الكتاب الجميل
٨٨
السفير

مجانا مع جريدة السفير
15.4.2016

ساڤونارولا

الراهب الثائر

ترجمة : حسن عثمان

الكتاب للجميع
٨٨

ساڤونارولا

الراهب الثائر

ترجمة
حسن عثمان

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (السفير)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٩

الطبعة الاولى
١٩٤٧

Twitter: @ketab_n

مجاناً مع جريدة

السفير

■

صاحبها ورئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: ياسر نعمة
مدير التحرير: ساطع نور الدين
المدير المسؤول: غاصب المختار

■

التحرير والإدارة: شارع منيمنة/الحمراء/بيروت
تلكس SAFIR 21484 LE
فاكس ٣٥٠٠٠٥ - ٧٤٣٦٠٢
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http://www.assafir.com
Coordinator@assafir.com

Twitter: @ketab_n

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

دار المدى للثقافة والنشر

رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy
لبنان - بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb
العراق - بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

تمت الطباعة في مطابع جريدة السفير
تلفاكس: (٤-٣-٢-١-٧٤٣٦٠١) ٩٦١ ١ +

الهيئة الاستشارية

المنجي بو سنينة
تركي الحمد
جابر عصفور
خالد محمد احمد
خلدون النقيب
سيد ياسين
طلال سلمان
علي الشوك
فؤاد بلاط
محمد برادة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى ذكرى
أولئك الذين استشهدوا
في سبيل الدفاع عن مبادئهم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فهرس الكتاب

تصدير 13

مقدمة 17

الفصل الأول : نشأة ساڤونارولا 21

أصل أسرة ساڤونارولا ، نشأته الأولى ، الحياة في فرارا وسخط ساڤونارولا ، فشله في الحب ، فراره إلى بولونيا ودخوله دير الدومنيكان ، اضطراب الأحوال في إيطاليا ، وعظ ساڤونارولا في فرارا ، الحرب الداخلية ، انتقاله إلى فلورنسا .

الفصل الثاني : لورنتزو العظيم وفلورنسا في عهده 31

إشارة إلى ظروف فلورنسا الداخلية ، سياسة لورنتزو في إيطاليا ، إحياء التراث القديم ، فيتشينو ودلاميراندولا ، الحفلات والمباهج ، لورنتزو الشاعر ، انجلو بوليتزيانو ، لويدجي بولتشي .

الفصل الثالث : سلطان الكلمة 41

أثر البيئة الجديدة ، عمل ساڤونارولا في دير سان ماركو ، فشله في اجتذاب جمهور فلورنسا وأثر ذلك في نفسه ، انتقاله إلى ردجوديميليا وتعرفه إلى بيكو دلاميراندولا ، انتقاله إلى سان جيمينيانو ونجاحه في اجتذاب الناس ، رحلاته في لمبارديا ، لورنتزو يستدعيه إلى فلورنسا ، نجاحه العظيم في اجتذاب أهل فلورنسا .

الفصل الرابع : بعض كتابات ساڤونارولا الفلسفية والدينية 47

المدارس الفلسفية في إيطاليا ، كتاباته الفلسفية : ملخص الفلسفة الخلقية ، تصنيف العلوم ، مهاجمة المبالغة في محاكاة القدماء ودعوته إلى

Twitter: @ketab_n

تحرير العقل ، اتجاه التفكير الديني ، كتاباته الدينية ، رسالة عن التواضع ، رسالة عن الصلاة ، رسالة عن حب يسوع المسيح ، رسالة عن حياة الأرامل ، اعتماده على الكتاب المقدس .

الفصل الخامس : ازدياد نفوذ ساڤونارولا 53

مهاجمة نفوذ ساڤونارولا مساوئ العصر ، ساڤونارولا ولورنتزو ، بييرو في فلورنسا واسكندر بورجيا في روما ، انفصال المجمع الديني التسكاني عن المجمع اللمباردي ، إصلاح دير سان ماركو ، كلام ساڤونارولا عن الحب وعن حياة الأمراء ورجال الدين .

الفصل السادس : الغزو الفرنسي لإيطاليا 61

إشارة إلى ظروف أوربا وإيطاليا ، أحوال فلورنسا ، شارل الثامن يدخل إيطاليا ، استسلام بييرو دي مديتشي ، مجلس السنيوريا يدرس الموقف ، إرسال وفد إلى شارل من أعضائه ساڤونارولا ، ثورة بدون دماء ، ساڤونارولا يقابل شارل ، شارل في فلورنسا ، مشاغبات ، عقد اتفاقية ، رحيل شارل عن فلورنسا وتأثير ساڤونارولا .

الفصل السابع : الدستور الفلورنسي وتغييرات لورنتزو الأوتوقراطية 71

نظرة عامة إلى نظام الحكم في فلورنسا ، اختيار أعضاء اللجان والمجالس الحكومية واختصاصاتها ، مجلس السنيوريا ، لجنة الاثني عشر ، لجنة الستة عشر ، مجلس الشعب ومجلس الكومون ، البرلمان العام ، تغييرات لورنتزو الدستورية ، سيطرته على الحكومة .

الفصل الثامن : إصلاحات ساڤونارولا الدستورية 79

حكومة العشرين ، آراء في إصلاح الدستور الفلورنسي ، ساڤونارولا يدعو إلى الحكم الديموقراطي ، قبول مشروع سوديريني ، المجلس الكبير ومجلس الثمانين عن دستور البندقية ، إبقاء اللجان القديمة ، الضرائب ، العفو السياسي ، استئناف الأحكام في التهم السياسية ، إلغاء البرلمانات العامة ، بنك الرهونات ، دعوة ساڤونارولا إلى اختيار الأكفياء في الوظائف ، تقدير ساڤونارولا كسياسي .

الفصل التاسع : التنبؤ عند ساڤونارولا 89

حالته النفسية ، يتنبأ بمصيره ، بعض العوامل التي أثرت فيه ، كتاباته وأقواله عن التنبؤ ، صدقه وإخلاصه ، روح العصر .

الفصل العاشر : إصلاحات ساڤونارولا الخلقية والاجتماعية 95

عمله على تغيير أخلاق العصر ، يعلن المسيح ملكاً على فلورنسا ، نجاحه في تغيير كثير من أهل فلورنسا ، إقبال الناس على دخول نظام

Twitter: @ketab_n

الرهبنة ، مثال تحول بتوتشو إلى الراهب بندتو ، نجاحه في تغيير سلوك أولاد فلورنسا ، استعانته بهم في تغيير أخلاق العصر ، إحراق الكتب والصور وملابس الكرنفال ، تعليق على هذا العمل ، محاولته تغيير الفن الفلورنسي ومدى نجاحه ، أثره في رجال الفن وعلى مايكل أنجلو خاصة .

105 **الفصل الحادي عشر : ظروف فلورنسا ومحاولة آل مديتشي استرجاع سلطانهم**

أحزاب فلورنسا ، دعوة ساڤونارولاأمام مجلس ديني ، شارل الثامن في جنوبي إيطاليا ، سخط الإيطاليين عليه ، الحلف المقدس ضد شارل ، تراجعه ، ساڤونارولا يقابل شارل ، موقعة فورنوڤو ، محاولة بييرودي مديتشي مهاجمة فلورنسا ، فشله ، مهاجمة ساڤونارولا الطغاة ، الامبراطور ماكسيليان في إيطاليا ، حصار ليڤورنو ، نجاة فلورنسا من الخطر . توسيع حق عضوية المجلس الكبير ، مشروع الضريبة التصاعدية ، عدم مبالاة أهل فلورنسا بالدين ، محاولة بييرودي مديتشي الثانية ضد فلورنسا ، فشله ، محاكمة المتآمرين على سلامة الجمهورية ، الدفاع عنهم ، موقف ڤالوري وإعدامهم .

119 **الفصل الثاني عشر : ساڤونارولا والبابا**

أعداء ساڤونارولا يثيرون البابا عليه ، اسكندر يكتب إلى ساڤونارولا ، اعتذاره عن الذهاب إلى روما ، قرار ضم المجمع التسكاني إلى المجمع اللمباردي ، معارضة ساڤونارولا ودفاعه ، البابا يطلب امتناعه عن الوعظ ، حكومة فلورنسا تتوسط لمصلحة ساڤونارولا ، تساهل البابا ، البابا يعرض قبعة الكردينالية على ساڤونارولا ، رفضه ، يعلن خضوعه لكنيسة روما ولكنه لا يطيع الأوامر المخالفة للدين ، مهاجمة سلوك رجال الدين ، أعداؤه يؤلبون البابا عليه ، دفاع أنصاره ، حنق البابا ، ساڤونارولا يعظ أمام الحكومة ، قرار البابا ضم المجمع التسكاني إلى المجمع الروماني ، عدم خضوع ساڤونارولا ، مهاجمة كنيسة روما .

129 **الفصل الثالث عشر : ساڤونارولا والبابا (تابع)**

مساعي حكومة فلورنسا ، تحرش أعدائه به ، يكتب إلى البابا ، صدور قرار الحرمان ، أثره ، مساعي حكومة فلورنسا ، موت أحد أبناء البابا ، «انتصار الصليب» وخضوع ساڤونارولا لسلطة الكنيسة ، ساڤونارولا يعود إلى الوعظ ويهاجم سلوك رجال الدين ، احتقاره قرار الحرمان ، غضب البابا ، منعه من الوعظ خارج سان ماركو ، حكومة فلورنسا تدرس الموقف ، مناقشات وكلام أنصاره وخصومه ، منعه من

Twitter: @ketab_n

الوعظ نهائياً ، آخر عظاته ، تفكيره في عقد مجمع ديني عام ، محاولة الاتصال بملوك أوربا ، وصول بعض رسائله إلى البابا .

الفصل الرابع عشر : تجربة النار وسقوط ساڤونارولا 143

عوامل سقوطه : تفاوت شعب فلورنسا بين الإيمان والشك ، خصومه ، أثر السياسة في الدين ، نقط الضعف في الدستور الفلورنسي ، خطورة ملكة التنبؤ ، أثر السياسة الخارجية ، الفرنتشسكان يتحدون ساڤونارولا لدخول النار ، معارضته ، دومنيكو يقبل التحدي ، تآمر رجال السنيوريا مع أعدائه ، تجربة النار ، تلكؤ الفرنتشسكان واختفاؤهم ، ملل الجمهور ، حدوث الشغب ، رجوع رهبان سان ماركو إلى الدير وسخط الجمهور ، محاصرة الدير ، القتال ، تسليم ساڤونارولا ودمنيكو ، حبسهما في القصر القديم .

الفصل الخامس عشر : نهاية ساڤونارولا 153

مراسلات بين البابا وفلورنسا ، إجراءات السينوريا ، التحقيق والمحاكمة الأولى ، تعذيب ساڤونارولا ، التهم الموجهة إليه ، تساهله في مسألة التنبؤ والنبوّة ، رسالته الدينية وأعماله السياسية ، المحاكمة الثانية ، عدم ثبوت التهم عليه ، التحقيق مع دومنيكو وسلڤسترو ، كتابات ساڤونارولا الأخيرة ، رسل البابا يحضرون المحاكمة الثالثة ، قرار إعدام الرهبان الثلاثة ، اجتماعهم الأخير ، تنفيذ الحكم .

خاتمة 161

حواشي الكتاب 165

مكتبة البحث 173

Twitter: @ketab_n

تصدير

أنتجت العبقرية الإيطالية في عصر النهضة تراثاً خالداً للإنسانية في الفن والعلم والأدب والسياسة أصبح من أهم دعائم الحضارة الأوربية الحديثة . وقد اهتمت أمم الغرب على اختلافها بدراسة عصر النهضة في إيطاليا دراسةً مستفيضة . ونزح كثير من أهل الغرب إلى إيطاليا للدراسة والبحث والتأمل . وأنشؤوا الدراسات الإيطالية في الكثير من جامعاتهم . ونشروا كثيراً من أصول الثقافة الإيطالية في عصر النهضة ، كما ترجموا إلى لغاتهم كثيراً من عيون ذلك التراث ، وكتبوا عنه مئات الكتب ، ولا يزالون يكتبون عن نواحيه المختلفة . ويكفي أن نشير إلى أسماء سايموندز وبُركارت وفينليسون وراشيل تيلور وباتير وفور وجبار وميريجكوسكي الذين تُقرن أسماؤهم دائماً بالتقدير لما بذلوه من جهود طيبة ، فضلاً عن جهود الإيطاليين أنفسهم ، في هذا الميدان الحافل الخصيب .

أما نحن في مصر والشرق فلا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن ذلك العصر العظيم . صحيح أن بعض أهل الشرق اهتموا بذلك التراث الإيطالي . ومن أمثلة ذلك أن الأستاذ محمد لطفي جمعة ترجم كتاب «الأمير» لماكيافلي قبل الحرب العظمى الماضية ، كما وضع بحثاً عن ساڤونارولا ، وأخبرني أنه أعدّ كتاباً مفصلاً عن عصر النهضة في إيطاليا ، وأن الأستاذ طه فوزي نشر منذ سنوات كتاباً موجزاً عن حياة دانتي ، وأن الأستاذ «أمين أبو شعر» من فلسطين ترجم «جحيم دانتي» ، وأن الأستاذ «عبود أبو راشد» من طرابلس الغرب ترجم «الكوميديا الإلهية» في ثلاثة أجزاء ، وأن الأستاذ دريني خشبة نشر سلسلة من المقالات عن «الكوميديا الإلهية» في مجلة «الرسالة» منذ سنوات ، وأن الأستاذ محمد بدران ترجم كتاب سدني دارك عن «النهضة الأوربية» ، وأن الدكتور عبد الرحمن بدوي ترجم أو

Twitter: @ketab_n

أوشك ينتهي من ترجمة «الحياة الجديدة» لدانتي . كما أن هناك عدداً من الأساتذة المصريين درسوا الفنون في إيطاليا ، وهم يتولون الآن التدريس والإنتاج الفني في مصر ، أذكر منهم على سبيل المثال الأساتذة (المرحوم) سحاب ألماس بك وعبد القادر رزق ومحمود عزمي ومصطفى متولي والدكتور شرف الدين سليمان . هؤلاء جميعاً بذلوا جهداً مشكوراً على أيّ حال . إلا أنه جهد لا يزال ضئيلاً جداً إذا ما وزن بإنتاج الغرب العظيم .

لا أدري إلى أي وقت نظل غافلين عن هذه الدراسة التي هي ضرورية لنا لعدة وجوه . منها أن العرب ومن تثقفوا بالثقافة العربية ساهموا بنصيب كبير في بعث حركة النهضة العظيمة ، فيجدر بنا أن نلم بالدور الخطير الذي قام به أجدادنا في الجنس والثقافة والدين . ذلك إلى أننا في حالة انتقال ، يتجاذبنا القديمُ والحديثُ ، وإن كنا لا نزال ، بالرغم مما بذلناه من جهود طويلة ، أكثر صلة بالقديم منا بالحديث . فيجدر بنا أن نلم بمظاهر عصر النهضة وآثاره المتنوعة ، لكي نفهم ونتعلم ونقتبس ، كما فعلت أمم أوربا من قبل . وإننا وإن كنا بدأنا في مصر أخيراً بالعناية بدراسة التراث اليوناني واللاتيني على نحو ما في جامعتي فؤاد الأول وفاروق الأول ، على اعتبار أنهما من أسس الحضارة الحديثة ، فجدير بنا في الوقت نفسه أن نهتم بدراسة التراث الإيطالي في عصر النهضة على الخصوص ، لأن إيطاليا هي المهد الذي تبلورت فيه تلك الثقافة اليونانية واللاتينية ، وانبعثت منها إلى أنحاء أوربا .

في اعتقادي وأظن أن في اعتقاد غيري من الأصدقاء ، أن الاهتمام بالثقافة الإيطالية عامة وبثقافة عصر النهضة خاصة يمكن أن يتحقق بوسائل متعددة . بوضع نصيب من هذه الدراسة في المعاهد المصرية ، وبتنويع إرسال البعوث إلى إيطاليا ، فتشمل دراسة الفنون كما تشمل دراسة الأدب والتاريخ والعلم والسياسة . . . وبإيجاد جماعة أو رابطة تجمع بين المهتمين بهذه الثقافة العظيمة ، وتنظم الإنتاج في شتى نواحيه في النحت والتصوير والترجمة والتأليف . . . ويا حبذا لو أمكن إصدار مجلة خاصة بالدراسات الإيطالية تكون مجالاً لجهود الباحثين .

ونحن لا يجوز لنا أن نقصر معرفتنا على ثقافة أوربية دون أخرى . لابد أن نلم بالثقافات جميعاً ، لا سيما بتلك الثقافة الإيطالية التي هي من أهم دعائم الحضارة الحديثة . والعلم لا يعرف التعصب والتحيز . وهو ملك شائع للناس جميعاً .

حاولت بوضع هذا الكتاب عن ساڤونارولا أن أقوم بنصيب يسير في هذه الناحية . وقد اعتمدت في وضعه على بعض ما كتبه ساڤونارولا وبعض الكتب الخاصة والعامة التي تناولت حياته وعصره ، كما استوحيت البيئة والأماكن التي عاش فيها ساڤونارولا في أثناء وجودي في إيطاليا . وهذا هو أول كتاب من الكتب التي أنوي -إن شاء الله- وضعها عن أعلام عصر النهضة في إيطاليا في الأدب والفن

Twitter: @ketab_n

والسياسة ، وعن غير ذلك من اتجاهات العصر وآثاره . وأرجو أن يتفضل غيري من الباحثين بالمشاركة في العناية بهذا العصر الخصيب .

وإنني أقرّر في هذه المناسبة تقدير الأستاذ شفيق غربال بك -الذي كان لي حظ التلمذة عليه- للتراث الإيطالي . وأنا مدين له بالفضل لأنه أثار اهتمامي بهذه الثقافة العظيمة . وإنني أتقدم بالشكر العميق لأستاذ الجيل الدكتور طه حسين بك لترحيبه وتقديره هذا الكتاب ، وله الفضل في صدوره في هذا الثوب . وأشكر صديقي الأستاذ محمد صادق بمصلحة التعاون ، لأنه كان أول من لفت نظري إلى ساڤونارولا في عام ١٩٣٠ . وأتقدم بالتقدير لذكرى الراحل الأب ماراسبيني الذي كان يعمل في مكتبة جامعة فؤاد الأول وزوّدني بآرائه ونصائحه . وأشكر الأب بولانجيه رئيس دير الدومنيكان بالعباسية ورجال ذلك الدير ، والأب بونيفاتشو دي ماركو من رهبان معهد دون بوسكو بالاسكندرية ، والأستاذ حسن محمود مدير مكتبة جامعة فؤاد الأول ، والأستاذ عبد العزيز اسماعيل أمين تلك المكتبة . أشكر كل هؤلاء على ما أبدوه نحوي من رحابة الصدر وكرم الأخلاق ، وعلى ماتفضلوا به من إعارتي ما احتجت إليه من الكتب القيمة .

كذلك أشكر بكل إعزاز ما تفضل بإبدائه من الملاحظات القيمة زملائي وأصدقائي بجامعة فاروق الأول الأساتذة والدكاترة يوسف كرم وتوفيق الطويل وعلي النشار . ولقد طوقني الأستاذ الكريم مصطفى السقا الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في هذه المرة أيضاً بفضل مراجعة مخطوطة الكتاب ، فأزجي إليه أطيب الثناء .

حسن عثمان
الاسكندرية في أغسطس ١٩٤٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدمة

جاءتْ حركة النهضة كردّ فعل ونتيجة طبيعية لسير الزمان الطويل في أثناء العصور الوسطى ، التي شاعت فيها تعاليم الكنيسة ، وامتدّ سلطان البابوات إلى الميدان الزمني ، والتي أعوز أهلها بصفة عامة ، الحرية في التفكير ، وعدّوا أن الدنيا وجسم الإنسان من نصيب الشيطان ، وأن التمتّع بالدنيا خطيئة ، وأن العالم كله نفاق وتظاهر ، وأن الحياة الأخرى هي الخالدة الباقية ، وأن الزهد وحرمان النفس هو طريق الخلاص الوحيد . وكان مهد النهضة في إيطاليا لعدة أسباب ، مثل توسط موقعها الجغرافي ، وتاريخها الروماني القديم وصلتها بالحضارة اليونانية القديمة ، وتأثرها بثقافة العرب والشرق ، وثروتها العظيمة التي جمعتها الجمهوريات والمدن الإيطالية ، بفضل السيطرة على أسواق التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط .

عصر النهضة عصر ثورة وانقلاب خطير ، أحدث تغييرات جوهرية في تاريخ الحضارة الإنسانية ، شملت شتى مرافق الحياة . . . انبعثت في عصر النهضة آثار القدماء ، وأقبل كثير من الناس على إحياء التراث اللاتيني واليوناني ، كما سارت في ذلك العصر تيارات متنوعة جنباً إلى جنب ، تيارات من العصور القديمة ، وتيارات من العصر الوسيط ، واتجاهات حديثة مستمدة من ظروف الحياة الواقعة . وأثرت هذه التيارات جميعاً بعضها في بعض . وتشابكت وامتزجت وتعارضت وتوافقت وتفاعلت . ونتج عن ذلك كله حضارة عصر النهضة التي هي أساس الحضارة الأوربية الحديثة .

أصاب النفس البشرية في عصر النهضة أزمةٌ نفسية عنيفة ، شأن ما يصيب النفس الإنسانية في عهود الانقلاب والثورة . ووضحت آثار ذلك في نواح شتى . فمن ذلك ما أصاب أخلاق أهل ذلك العصر ، الذين عملوا على التخلص من تقاليد

Twitter: @ketab_n

العصور الوسطى وأوضاعها . فانطلق روح الخيال في رجال عصر النهضة ، ونما نمواً عظيماً ؛ مما أدى إلى إقبال كثير من الناس على الإسراف في المقامرة ، ودفعهم خيالهم الخصيب إلى المخاطرة بكل شيء ، حتى حياتهم ، لتحقيق الأماني السعيدة! ويشبه ذلك ما وجد عند العرب في جاهليتهم الذين أسرفوا في الخيال كما أسرفوا في الميسر . ولو لم يقف القرآن حائلاً دون استمرارهم في ذلك الاتجاه لوصلوا إلى ما وصل إليه رجال عصر النهضة من الإسراف في الخيال والمقامرة .

ومن المظاهر الواضحة في أخلاق أهل العصر عدم التقيد بالروابط الزوجية ، فلم تكد تهمل الحقوق الزوجية في عصر كما أهملت في عصر النهضة . وليس معنى ذلك أن الناس انصرفوا عن حياة الأسرة نهائياً ، بل احتفظوا بها كعنصر تقليدي في حياة المجتمع ، ولكنهم إلى جانب ذلك أرادوا أن يعيشوا أحراراً يمتعون أنفسهم بالحياة إلى أكبر حد مستطاع . فوجد الحب الجنسي كما وجد الحب العاطفي ؛ وربما اجتمعا جنباً إلى جنب في شخص واحد . وأصبح من الأمور المألوفة أن يتطلع كلا الزوجين إلى حياة العشق والهوى بعد الزواج . وكانت تحدث أحياناً فواجع ومآسٍ وقتل وغدر وانتقام عنيف .

وأصبح من الأمور المألوفة أيضاً أن يخالف الأفراد أوامر الحكومات التي سيطرت على الشعب بالعنف والقوة تارة ، وبالخداع والحيلة تارة أخرى ، حتى فقد كثير من الحكومات الصفة الشرعية في نظر أغلب الناس . ولم يعد الناس يؤمنون بعدالة القانون . وكان شعور الجماعة إلى جانب مرتكبي جرائم القتل . وإذا أعدم أحد الجناة أثار الإعجاب في النفوس إلى حد البطولة في بعض الأحيان .

وهذه الأمثلة للعناصر التي كونت أخلاق العصر ، والتي أوجدت حالة من الفوضى في حياة المجتمع ، كانت في الوقت نفسه عاملاً أساسياً من أسباب العظمة والنبوغ . فهي ساعدت على نمو شخصية الفرد . فأخذ يعمل على تحقيق رغباته وغرائزه دون أن يقف في سبيله شيء . وعدّ الناس أن الغريزة لا يمكن أن تدفعهم إلى ارتكاب عمل سيئ . فعلى الفرد أن يتمتع بالحياة كما يشاء ، ويدافع عن حقوقه بيده ، ويعتدي على الناس قبل أن يُعتدى عليه . وساعد ذلك الأتون الملتهب على إنتاج روائع الفن والأدب والعلم .

وامتدت هذه الحالة الشاذة إلى رجال الدين والكنيسة . ولم يعد هناك ما يمنعهم أن يشتركوا في أعمال النهب والقتل والاعتداء على النساء . وانصرف كثير منهم عن واجبهم الأساسي . ولم يعد اهتمام الكنيسة موجهاً إلى الدين وإلى مساعدة الفقير . وعاش البابوات أنفسهم حتى قبل نهاية العصور الوسطى ، عيشة مخالفة لقواعد الدين والأخلاق ، وتمتعوا بملاذ الدنيا ، واتخذوا من النساء حريماً ، وارتكبوا جرائم الغدر والقتل وسمل الأعين ، وباعوا كل شيء في سبيل المال .

Twitter: @ketab_n

وبذلك أصبحت البابوية ملطخةً بالدماء وأثارت الرعب في قلوب كثير من الناس .

أما ناحية الحرية السياسية ، فإن حكومات الكومونات[1] التي ظهرت في المدن والجمهوريات الإيطالية على أنقاض النظام الإقطاعي أخذت تحد كثيراً من حرية الفرد . وخضع الفرد لسلطة الكومونات غير المحدودة ، والتي كان يتغير أعضاؤها تبعاً للظروف والأهواءالسياسية . وكثيراً ماكانت تُضحى مصلحة الشعب في سبيل المنافسات الحزبية العنيفة . وأدى ذلك إلى ظهور سلطة الأمراء الأوتوقراطية بعد القرن الثالث عشير . وسارت سلطة الحكم في اتجاه القول المأثور «الحكومة أنا» . وامتد أثر ذلك إلى الكنيسة . فأخذ البابوات يعملون على تقوية سلطتهم الزمنية ، واتخذوا لأنفسهم جنداً مسلحاً ، وتدخلوا في السياسة الإيطالية ، وحاولوا إحاطة أنفسهم بإمارات قوية ، يضعون على رأسها عصبة من أقاربهم . وأصبح يؤثر عن البابا قوله «الكنيسة أنا» .

ومع ذلك فإن تلك المظاهر لم تقض على الشعور الديني الصميم في نفوس الكثير من أهل العصر . كما لم يقض نمو السلطة الأوتوقراطية على رغبة الأحرار في التخلص من الحكم الاستبدادي . وعندما شمل السخط والقلق نفوس كثير من الناس في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر ، تطلع الناس إلى طريق للخلاص . واتجهوا أولاً إلى الناحية الدينية ذاتها ، لأنها تمس الروح الإنساني مباشرة ، فظهرت في إيطاليا وفي خارج إيطاليا حركات دينية تصوفية ، ترمي إلى إصلاح المجتمع من الناحية الدينية والخلقية والسياسية . فمن ذلك مثلاً ظهور حركة الوالدونيين ، نسبة إلى بيترو والدو الذي ظهر في ليون وانتقلت تعاليمه إلى إيطاليا . وعمل هو وأنصاره على وجوب إرجاع الدين إلى نص الكتاب المقدس . وقال أتباعه إن طاعة رجل عادي صالح خير من طاعة رجال الدين الفاسدين . وكذلك نهض أرنولدو دا بريشا في روما ، ودعا إلى إصلاح الكنيسة ، واعترض على أملاك رجال الدين وملابسهم الفاخرة ، ونادى بإقامة حكومة حرة مستقلة عن سلطة البابا ، على مثال الجمهورية الرومانية القديمة . ومن هؤلاء أيضاً يواكيمو دا فلورا الذي ظهر في جنوبي إيطاليا وقال إن العالم المسيحي تنتظره أيام حالكة السواد ، وإنه يسمع نذير العاصفة من بعيد ، وإن الكنيسة الزمنية ستتحطم . وأعلن أن العالم سيتغير بالتسامي والتصوف ، وأن العالم الجديد سيكون على رأسه الرهبان المخلصون ، وسيصبح أمل الإنسانية المرتقب . كما ظهر في وسط إيطاليا القديس فرنتشسكو الذي أوجد نهضة دينية هامة . فلم يهاجم البابا والكنيسة ، ولم يعرف الحزن ولا التشاؤم . ولكنه أعلن التفاؤل بإصلاح المجتمع على أساس الصفاء والحب والأمل . وأحب في الله الطبيعة وما عليها من المخلوقات . وعمل بذلك على التوفيق بين الإنسان والطبيعة والدين . وسيكون ذلك من الاتجاهات البارزة عند مفكّري عصر النهضة .

Twitter: @ketab_n

واستمر يظهر في إيطاليا طوائف من الرهبان الأوغسطينيين والفرنتشسكان والدومنيكان ، يعظون الناس ويدعونهم إلى التكفير عن خطاياهم . وعملوا على إيقاظ الضمير الإنساني . وانتقلوا من مدينة لأخرى للتخفيف من حدة حياة الفسوق التي عاشها كثير من أهل العصر ، ولتهدئة الخواطر في أثناء الاضطرابات السياسية العنيفة ، ولمؤاساة الناس في أوقات الطواعين . وهاجموا الربا الفاحش وحياة الاستهتار والبذخ ، ودعوا إلى إحراق أدوات الزينة وأقنعة الكرنفال . وكثيراً ما تقاطر الناس للاستماع إليهم حتى ضاقت بهم الكنائس ، فوعظوهم في الميادين العامة ساعات طويلة . ووجد الناس في كلامهم عزاء لنفوسهم ، وفي دعوتهم تخفيفاً لما حل بهم من ضيق وشدة . والنفس الإنسانية التي يتجاذبها القديم والحديث ، والتي تصطرع في حناياها ألسنة اللهب ، ألا تعتريها أزمات عنيفة جازفة ؟ والنفس الإنسانية المعذبة عندما تفقد الحب والأمل وعندما تتحطم أمانيها ، ألا تحاول أن تجد السلوى بالاتجاه إلى الإيمان والدين ؟

نعم لقد جاء سافونارولا في هذاالعصر الصاخب العنيف ، متمِّماً ما بدأه غيره من قبل . فهاجم رجال الكنيسة وعلى رأسهم البابا الداعر . وهاجم الاستبداد السياسي . ودعا إلى إصلاح الكنيسة ، وإلى اتباع تعاليم الدين . ودافع عن حرية الشعب . ودفع الكثير من أهل فلورنسا أمامه ، لفترة من الزمن ، دفعاً لم يقووا على معارضته . فتبخرت ثقافتهم في الأتون المستعر الذي أشعل نيرانه بحماسته الهائلة . سواء أكان ذلك من جانبهم عن إخلاص للدين والعقيدة ، أم عن رغبة في تحقيق الحرية السياسية . ونجح سافونارولا وأخفق . وارتفع وهوى . واستشهد في سبيل الدفاع عن مبادئه .

ح ٠ ع ٠

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول
نشأة ساڤونارولا

أصل أسرة ساڤونارولا –نشأته الأولى –الحياة في فِرَارا وسخط ساڤونارولا –إخفاقه في الحب –فِرارُه إلى بولونيا ودخوله دير الدومنيكان –اضطراب الأحوال في إيطاليا –وعظ ساڤونارولا في فِرَارا –الحرب الداخلية –انتقاله إلى فلورنسا .

ترجع أسرة ساڤونارولا إلى مدينة بادوا . وقد سجّل التاريخ أخبار هذه الأسرة لأول مرة بعد منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، عندما ظهر أنطونيو ساڤونارولا كجندي باسل مدافعاً عن حرية مدينة بادوا من اعتداء الطاغية إتزيلينو[٢] . وتقديراً لما أبداه أنطونيو ساڤونارولا من الشجاعة والجرأة سمي أحد أبواب مدينة بادوا باسم باب ساڤونارولا . وفي منتصف القرن الخامس عشر انتقل فرع من هذه الأسرة وعلى رأسه ميشيل ساڤونارولا ، إلى مدينة فِرَارا بناء على طلب الدوق نيقولا الثالث[٣] .

واشتهر ميشيل ، جد بطلنا طبيباً وعالماً ، وشغل كرسي الأستاذية في جامعة فِرَارا ، وأصبح الطبيب الخاص للدوق نيقولا دست ، كما كان رجلاً واسع الثقافة ، درس الدين وما بعد الطبيعة والسياسة ، ودرس الزراعة وينابيع المياه المعدنية في إيطاليا . وامتاز بالتقوى والورع والعطف على الفقراء والمحتاجين . وعندما مات الدوق نيقولا ظلّ ميشيل في خدمة الأسرة وعهد إليه بتعليم وريث الإمارة . ولما تقدم في السن اعتكف ، ونال معاشاً كافياً وعاش عيشة هادئة . وكان همّه الوحيد حينئذ أن يحفظ هذا المستوى في أسرته ، وأن يُعدّ من يخلفه من سلالته .

لا يعرف التاريخ كثيراً عن ابنه نيقولا ، الذي طغت عليه شهرة أبيه الواسعة .

Twitter: @ketab_n

ويبدو أنه درس الطب أيضاً . وظلّ يعمل في خدمة بلاط فِرّارا ، وأضاع الثروة التي جمعها أبوه بجده واجتهاده . وكانت زوجته إيلينا من أسرة بونا كوستي المشهورة في مانتوا . وامتازت إيلينا بقوة الشخصية ونبالة الخلق وكان لها تأثير كبير على ابنها جيرولامو ، فأكسبته صلابة الطبع والثقة بالنفس والتمسك بالمبادئ . وكان جيرولامو عظيم الحب لها شديد الإعجاب بسجاياها . وطالما التجأ إلى مشورتها يطلب منها العون ، في ساعات الضيق التي ألمت به ، في حياته الصاخبة العنيفة .

ولد جيرولامو ساڤونارولا في فِرّارا في ٢١ سبتمبر سنة ١٤٥٢ . وهو ثالث إخوته الذين بلغ عددهم سبعة[٤] . ومعلوماتنا قليلة عن عهد طفولته ونشأته الأولى . وقد ظهرت عليه مخايل الذكاء في سن مبكرة ، وتركزت حوله أماني الأسرة واختارته لأن يسير بتقاليدها إلى الأمام . وأخذه جده ميشيل بين يديه وحباه عطفه ورعايته ، وحبّب إليه الدرس وجعله يُقبل على التهام الكتب . وكان يأمل أن يصبح جيرولامو طبيباً . كما أخذ الجد يغرس في نفسه روح التقوى والصلاح وأظهر استياءه من فوضى الأخلاق في العصر الذي عاش فيه ، وأخذ يعلن سخطه على الشباب الذي يعيش عيش الخلاعة وينطق بالأغاني الماجنة . وأثّر ذلك في نفس الغلام الناشئ . فكان جيرولامو يتجنب الاعيب الغلمان في سنه وينأى عن أبناء الشوارع . ولم يكن لحياة المجتمع الذي عاش فيه إلا أن تثير في نفسه الاشمئزاز والسخط . ومع ذلك فإن جيرولامو امتاز بطبيعته الحارة الملتهبة وكان يستطيع أن يجذب الناس من حوله . وأخذ يعكف على قراءة الإنجيل والصلاة .

ولما مات جده تعهده أبوه بالعناية ، وأخذ يلقّنه مبادئ الفلسفة كمقدمة لدراسة الطب . فدرس آراء توماس أكويناس فيلسوف العصور الوسطى ، وتأثر بها خاصة ، وكان ينصرف إلى مؤلفاته وقتاً طويلاً حتى آثرها على دراسة الطب ذاته . واختلف إلى جامعة فرّارا وهو في الثامنة عشرة . ولكن لم ترضه الحياة في الجامعة ، وأثارته طرق التعليم السائدة في ذلك الوقت . فساء شعوره المناقشات بين الأساتذة المتنافسين في الجامعة ، وساءه فوق كل شيء تلك الطاعة العمياء التي كانت من حق الأساتذة على الطلاب . لم يرضه ذلك الجو . وكان جده قد علّمه الإخلاص في البحث عن الحقيقة ، وأن العقل والتجربة هما الطريق الوحيد للوصول إليها . وكان جيرولامو قوياً واثقاً من نفسه فأخذ يناقش معارضيه بمهارة ويتدرب على المحاجّة والكلام . ولكن المجهود الذي بذله لمقاومة الروح السائد في بيئته ، وتأذّي نفسه من المجتمع الذي عاش فيه أثّر في صحته الرقيقة ، فاضطر إلى الانقطاع عن دراسته بالجامعة ، ورجع إلى منزله وهو مقتنع بأن ليس في المجتمع ما يمكن أن يفيده .

وفي ذلك الوقت حاول أمراء فرّارا أن يجعلوا من مدينتهم مركزاً مهماً من مراكز حركة النهضة في إيطاليا . فأخذوا يشجعون العلوم والفنون والآداب . وأقاموا

Twitter: @ketab_n

الحفلات والمراقص الفاخرة بين جدران القصور وفي شوارع المدينة وأماكنها الرئيسية . وقد شهد جيرولامو منذ طفولته الباكرة طرفاً من هذه الحفلات والمباهج ، لا سيما عندما حضر البابا بيو الثاني[٥] إلى فرّارا ، في الرحلة التي قام بها لاجتذاب أمراء إيطاليا وضم صفوفهم لتكوين جبهة متحدة ، تعمل على وقف تقدم الأتراك العثمانيين وطردهم من أوربا ، وقد ازداد خطرهم منذ استيلائهم على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ . واحتفالاً بقدوم البابا أقيمت أقواس النصر ، ونثرت الأزهار ورفعت الأعلام وصدحت الموسيقا ، ونصبت تماثيل آلهة الوثنية القدماء في الأماكن التي مرّ بها البابا ، في أثناء مجيئه وذهابه حتى نهر البو . ورأى جيرولامو ممارسة شباب ذلك الوقت ألعاب المصارعة والسباق ، وعرض أجسامهم التي تكاد تكون عارية على الجمهور المتجمع حولهم ، المعجب بألعابهم وحركاتهم ؛ ورأى أسراب العشاق تختلس أحلى ساعات العمر في الحدائق والمماشي والطرقات الطويلة الممتدة . ودعي مرة للذهاب إلى بلاط دوق فرّارا . وأسخط نفسه ما شهد من ضروب البذخ والترف ومن فنون الألعاب والمباهج ، ومن تلك الحياة الطروب الماجنة السائدة في ذلك الوقت . فرفض بإصرار شديد العودة إلى ذلك البلاط مرة أخرى . ولا ريب فهو لم يتعلم كيف يستسيغ هذا اللون من التمتع بالحياة المرحة الصاخبة .

وكذلك شهد جيرولامو ذلك القتال والصراع الذي نشب بين أفراد الأسرة الحاكمة في فرارا عند وفاة الدوق ليونلّو في أغسطس سنة١٤٧١ . وكسب باركولي الموقف وأعمل القتل والتنكيل في أتباع منافسه نيقولا صاحب الحق الشرعي في الإمارة . وفي الغد أقيمت الحفلات وأعلنت مظاهر البهجة ، ونسي الناس الدم المراق ، وهو لم يجف بعد .

لم ترضِ جيرولامو كل هذه الحياة الماجنة الصاخبة العنيفة . وأثّرت في نفسه الحفلات والمباهج تأثيراً عكسياً مؤلماً . وأخذ يقوي في نفسه تلك الدوافع التي عملت على إثارة سخطه وحملته على محاربة البيئة التي عاش فيها بعزم شديد . وأخذ يبدو حزيناً متواضعاً ، متألماً مخلصاً ، مكباً على الصلاة ، وكثيراً ما انهمرت من عينيه الدموع عند أسفل المذبح وهو راكع يتعبد . ولم تكن هناك قوة يمكنها أن تحمله على الخروج من الشعور بالعزلة والوحدة . وكان يحب الطبيعة ، ويقضي الساعات الطويلة بين أحضانها يناجي نفسه وحيداً . ويسير مسافات طويلة على ضفاف نهر البو المتهادي إلى البحر ، ويأخذ بلبه الخلاء السهل الفسيح الممتد ، والجبل العالي يكلله الثلج الأبيض الناصع ، وتملأ نفسه رائحة الكروم العطرة ، ويسوده شعور غامض بالحنين إلى وطن بعيد مجهول ، ظل يبحث عنه طويلاً . وأخذ يتسلى بتوقيع أنغام موسيقية حزينة على القيثار . كما أخذ ينظم الشعر الذي نفّس به عن صدره المكروب ، وندّد فيه بمساوئ المجتمع وبزوال الفضائل من العالم .

Twitter: @ketab_n

وبالرغم من شعور السخط الذي أثاره ذلك المجتمع المضطرب في نفس جيرولامو الناشئ ، فإنه أخذ يعتاد البيئة التي عاش فيها بعض الشيء . وكان من المحتمل أن يعتدل مزاجه نوعاً ما ، ويلائم بين نفسه وبين وسطه ويُقبل على الحياة الواقعة بالتدريج . ووُجد الظرف الذي كان من المحتمل ، لو أنه سار سيره الطبيعي ، أن يعمل على تغيير مجرى حياته تغييراً حاسماً . وذلك عندما تذوّق أعنف العواطف الإنسانية .

حدث أن لجأ روبرتو ستروتزي أحد المنفيين السياسيين من فلورنسا إلى فرّارا ، وسكن منزلاً مجاوراً لآل ساڤونارولا . وكان لأسرة ستروتزي تقدير في نظر ساڤونارولا ، لأنها نفيت ضحية للرأي والدفاع عن الحرية . وكان لستروتزي ابنة جميلة غير شرعية يقال إن اسمها لاوداميا Laodamia . كيف استطاعت لاوداميا أن تُخرج جيرولامو من عزلته وتغيّر من صرامة طباعه ، وماذا كان فيها من سحر وعطر وفتنة جعلها تأخذ بلبه ؟ هذا ما يسكت عنه التاريخ . وليس من المستطاع أن يُسأل الموتى عن أسرارهم التي حملوها معهم في قبورهم إلى الأبد .

عندما التقت عيناه لأول مرة بعيني الفلورنسية الجميلة اهتزت نفسه ، واشتعلت في قلبه نيران الحب ، وثار بين جوانحه ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان يؤمن بالسعادة على الأرض ، وبدت الدنيا تشع أمامه ضوءاً جديداً ، وازدحمت في مخيلته أمانٍ متلاحقة ، وتخيل السعادة المجهولة التي تنتظره ، وامتلأ صدره بالثقة والحماسة . والتقى جيرولامو بلاوداميا خفية عن الأنظار ، ولم يعد جيرولامو العاشق الطموح يكفي حاجته ، ولم يصبح سيد نفسه كما كان من قبل . وانتابته أزمات نفسية ، وكانت تخف أمه للتخفيف عنه . ولم يدر بخلده أن هناك قوةً تستطيع أن تباعد بينه وبين فتاة أحلامه .

ولكن القدر القاسي لم يترك له ما أنعم به عليه لحظات قصيرة الأمد ، وأيقظه من أحلامه السعيدة ، وبدّد أمانيه العِذاب . كانت نوافذ آل ساڤونارولا وآل ستروتزي تطل على شارع ضيق ، وتعوّد ساڤونارولا أن يرقب لاوداميا من نافذته القريبة على حين كانت أختاه تريانه فتتضاحكان وتتغامزان . وذات يوم صمم على أن يصل في حبّه إلى النهاية السعيدة . فطلب يد لاوداميا من النافذة القريبة . فرفضت بإيماءة رأسها وقالت إن دماء آل ستروتزي العريقة لا تقبل مثل هذا الزواج . فثار ساڤونارولا وغضب . ولم يكن من الرجال الذين يتركون الكلمة الأخيرة لامرأة ؛ فصاح في وجهها قائلاً : « يا ابنة الزنا » وأغلق النافذة في عنف وغضب . وشعر باللطمة القاسية ، وأحسّ بأحلامه تذهب هباءً ، وبأمانيه تطير في الهواء ، فحمل قلبه الجريح ، وانطوى على نفسه ، وعاد إلى وحدته المريرة يبكي ويتأمل .

Twitter: @ketab_n

أخذ جيرولامو يبعد عن نفسه هذا الحادث المرير ، وخفّ أثره مع الزمن . ولكن هذه الصدمة أثرت في نفسه تأثيراً شديداً ، فعاد إلى دراساته ولكنه لم يجد فيها اللذة التي كان يجدها ، بل رأى أن مهنة الطب التي كان يُعد لها نفسه لم تعد ترضيه . وأصبح في حالة من القلق ، وثارت في نفسه حرب عنيفة ، فتطلع إلى الخلاص وإلى الراحة والعافية . وقد رده هذا الحال إلى شعوره الديني الصميم . وفكر هل يدخل الدير . وعاد فأبعد هذه الفكرة عن نفسه . وأصابه السأم والملل والضجر . وبالرغم من محاولته إبعاد ذلك الإخفاق الذي لقيه عن ذاكرته ، فإنه ظل يذكره في صميمه . ولكنه لم يعد يذكر الفتاة التي حطمت قلبه ذاتها ، وإنما ظل يذكر سيئاتها : القسوة والكبرياء والغطرسة ، وهي أخطاء الناس جميعاً .

كان يعزّيه فكرة أن الإنسان سيعيش فيما بعد في عالم أفضل . فأخذ يتطلع إلى العالم الآخر . وكانت ملكاته وفضائله موضع سخرية الناس ، وقد داسوها بأقدامهم . ومن يوم لآخر أخذت تقوى في نفسه فكرة الرهبنة ، وأصبح هذا الشعور الديني عزاء لقلبه المكلوم ، وفتح أمامه طريقاً آمناً للنجاة . وأدرك بجلاء مدى الصراع العنيف الذي هو مقبل عليه لفراق أهله وأحبائه .

ومن غير شك كانت الروابط الإنسانية تثقل على نفسه وتبدو أنها ستعرقل سبيله . فالحب الأسري وواجب الابن نحو الأسرة ، قيده بسلاسل قوية كان من الصعب عليه أن يحطمها . وكان يعرف من أول الأمر أن كل آمال الأسرة قد تركزت في شخصه . ولكنه لم يضعف ولم يتراجع . وعكف على قراءة الإنجيل ، بينما كانت تغرورق عيناه بالدموع . وكان من الضروري له أن يخفي رغبته عن أسرته حتى لا يحولوا بينه وبين ما اعتزم تنفيذه . وقام برحلة إلى فاينزا في ١٤٧٤ حيث استمع إلى عظة أحد الرهبان الأوغسطينيين فقوّى ذلك من عزمه وتصميمه . وقد مضت شهور طويلة حتى استطاع أن ينفّذ ما جال في نفسه .

ولحظت عليه أمه وجوماً في تفكيره وتغيراً في طباعه ، وكأنها قد تنبأت بما يجول في خاطره ، وكانت ترمقه بنظرات الحب والإشفاق والوجل ، فتمزق قلبه المليء بالعواطف . ولم يكن جيرولامو يجرؤ في تلك اللحظات على مقابلة عينيها اللتين تفيضان بالعطف والحنان . وذات يوم أخذ الفتى يغني ويعزف على قيثارته لحناً حزيناً نفذ إلى قلب أمه ، فتراءت لها الحقيقة الغامضة ، واختلجت نفسها وصاحت به بصوت تخنقه العبرات : «أي بني هذا لحن الفراق!» . فتماسك جيرولامو وتجلّد ، وصمت ولم يتكلم ، وكتم أنفاسه ، واستمرت أصابعه المضطربة تداعب أوتار القيثار ، دون أن يقوى على رفع بصره إلى عينيها . وافترقا بهذا الوداع الصامت الحزين .

وفي اليوم التالي أقيمت الحفلات الدينية في عيد القديس جورجو في فرّاراً .

Twitter: @ketab_n

وبينما كانت الأجراس تدق والمدينة مزدحمة غادر جيرولامو فرّاراً خلسة في ٢٤ إبريل ١٤٧٥ . وسرعان ما وقفت الأسرة على الأمر وساد أفرادها الجزع والاضطراب بعد أن ظلوا لا يعرفون خبراً عنه مدة يومين . وفي اليوم الثالث وصلهم خطاب من بولونيا ، وكان خطاباً رقيقاً مؤثراً برّر فيه مسلكه وقال فيه لأبيه إنه يعلم مبلغ ألمه بسبب هذا الرحيل المفاجئ ، وإنه ينبغي ألا يحكم على تصرفه بناء على العاطفة ولكن بناء على العقل . وقال إن الذي دفعه إلى هذا التصرف هو فساد العالم وخطايا الناس وآثامهم ، حتى أنه لم يعد يجد رجلاً واحداً يحرص على الخير والفضيلة ، وأن الله قد فتح أمامه طريق الخلاص وأنه قد استجاب لنداء الرب ، وأنه يؤثر أن يعيش كمخلوق عاقل لا أن يعيش كماشية بين القطيع من الأغنام ، وأنه واثق من أن الأسرة ستحب روحه دائماً ، أما الجسد المادي فلا أهمية له . وتساءل هل يظن أبوه أن مفارقته الأسرة لم تكلفه جهداً ومشقة ، وقال إنه لم يمر منذ مولده بتجربة قاسية مثل هذه ، وإنه قد تألم وتعذب كثيراً من أجل هذا الفراق المرير القاسي . وذكر أنه يعلم أن أسرته لا بد أن يكون شعورها قد جرح لرحيله في الخفاء ، وأنه قد تألم لذلك أيضاً ، وأنه أخفى نيته حتى لا يخونه قلبه في تنفيذها . وسأل أباه أن يكون قوياً وأن يعمل على مواساة أمه وتشجيعها على تحمل الموقف . وأضاف موصياً أباه بشأن إخوته وبخاصة أخيه ألبرتو ، الذي ينبغي أن يعنى بتعليمه حتى لا يكون عبئاً على الأسرة وسبباً في تنغيصها . وأشار إلى أنه قد ترك في غرفته كتاباً آخر فهرع إليه أبوه ووجد به النغم نفسه ، وقارن فيه مساوئ العصر بما كان سائداً في عهد سدوم وعمورة ، وقال إنه ينبغي للناس أن يتعلموا من الأطفال والنساء لأنهم وحدهم الذين يحتفظون بظل من طهارة النفس وسلامة الطوية .

وفي بولونيا كان جيرولامو سافونارولا قد قرع أبواب دير الدومينيكان فرحب به رؤساؤه واستقبل حياته الجديدة بحماسة وإخلاص . ومضت السنة الأولى في دير الدومينيكان ، وكانت سنة شاقة صعبة في أول الأمر ، عانى فيها سافونارولا صراعاً داخلياً عنيفاً للتخلص من ذكريات الماضي ، وكانت فترة انتقال بين الدنيا وحياةالرهبنة . ومن آن لآخر كان يتعقبه الألم الذي سببه هربه المفاجئ لوالديه . وكانت خطابات أهله إليه تثير عواطفه وتدخل الشك والاضطراب على نفسه . وأخيراً كتب إليهم بقساوة قائلاً لماذا تبكون أيها العميان ولماذا تأسفون وماذا أستطيع أن أقوله لكم مادمتم على هذا الحال ؟ وأخذ يعمل على كبت هذه العواطف العائلية في نفسه . وعكف على عمله بإخلاص . ولم يقفه شيء عنه . فكان يخدم على المائدة ويغسل الأقدام ويقوم بأعمال التنظيف . كما أقبل على الدراسة فدرس ما بعد الطبيعة والإلهيات والعلم الطبيعي والإنجيل . ولكي يوفر الورق كان يكتب تعليقاته على هوامش الكتب بخط صغير جداً لا يمكن قراءته . وأصبح لا ينام إلا

Twitter: @ketab_n

أربع ساعات . وحاول رؤساؤه أن يحملوه على الاعتدال ولكنه رفض بصرامة . وأبدى ملكات ممتازة فعهد إليه رؤساؤه بأن يتولى تعليم الرهبان الجدد .

كان لجدران دير الدومنيكان في بولونيا أثرها الفعّال في سافونارولا . ففصلته عن العالم الخارجي زمناً ، وأضفت على قلبه السلام ، وطهرته من نزعات النفس ، وصرفته إلى العبادة والتأمل . ويخطئ من يظن أن سافونارولا لم يكن إلا رجلاً خاضعاً مطيعاً على الدوام . فقد احتوت نفسه إلى جانب هذه الصفات على عناصر الثورة والجرأة والكفاح . وعندما كان يفكر في مساوئ الكنيسة وفوضى العصر ، كان يثور ويغضب ، ويعلن آراءه في صراحة نادرة ، غير عابئ بقواعد الطاعة والخضوع الأعمى . وكان يغمر قلبه الأسى العميق ، فيبكي ويصمت ، ويمضي الساعات الطويلة وهو يتأمل جمال الطبيعة . وهكذا مرّ الزمن الذي يغير كل شيء ولكنه لم يتغير هو ، فبقي راسخاً في إيمانه ، ثابتاً في عزلته وزهده ، متعصباً لمبادئه ، متطلعاً للمستقبل .

أما ملامحه وشكله فإنه كان متوسط القامة أسمر اللون . وكان له عينان لامعتان رماديتا اللون داكنتان ، وأنف أقنى وفم كبير . ودلت شفتاه الغليظتان المطبقتان على صلابته وتصميمه . ويدل شكل جبهته على التفكير في المسائل الخطيرة . ومع أن ملامح وجهه لم تدل على الجمال فإنها دلت على نبالة الخلق ، وكانت تعلو شفتيه ابتسامة حزينة تخفف من تقاطيعه الصلدة ، وتكسوه وداعة تجذب إليه الناس ، وتبعث الثقة في النفوس . وامتاز فوق كل هذا بالتواضع والبساطة المتناهية .

وفي ذلك الوقت ساد أغلب أنحاء إيطاليا حكم الطغاة المستبدين . واستطاع بعض أولئك الحكام المستبدين أن يحكم أمارته حكماً معقولاً ، حين أعوز بعضهم الآخر النظر الصحيح والملكات اللازمة للحاكم الكفء ، وامتاز الحكام باتخاذ وسائل القسوة والخداع والغدر لتحقيق الأطماع الشخصية . وحاول بعضهم الإخلال بالتوازن السياسي في إيطاليا وتوسيع أملاكه على حساب غيره ، وظهرت روح التنافس على أشده بين الشخصيات القوية . وكان من جراء ذلك التنافس وتعارض المصالح المختلفة ، أن قامت مؤامرات أريقت فيها الدماء ، للتخلص من الحكام المستبدين ولتحقيق المصالح . ومن الأمثلة على ذلك ما حدث في ١٤٧٦ . فقد حاول جيرولامو جنتيلي أن يحرر جنوا من سيطرة ميلانو ، وقامت مؤامرة انتهت بقتل جالياتزو سفورتزا المستبد بحكم ميلانو ، ثم فتك بالجناة في شوارع المدينة . وحاول نيقولا دست أن ينزع حكم فرارا من الدوق إركولي ولكنه لم يفلح . وقد أدى ذلك الإخفاق إلى استفحال نفوذ الحكام المستبدين الذين شدّدوا ضغطهم لكي يحتفظوا بما لهم من سلطان . ولكن ذلك الإخفاق لم يقض على المؤامرات والحركات العنيفة ، ولم

Twitter: @ketab_n

يثن المخاطرين عن القيام بمحاولات جديدة أملا في تحقيق أغراضهم . وحدثت أفظع مؤامرة من هذا النوع في فلورنسا ؛ وهي مؤامرة آل باتزي الذين ثاروا على استئثار آل مديتشي بالحكم ، وانتهت بقتل جوليانو ونجاة لورنتزو في إبريل ١٤٧٨ .

وفي وسط هذا المعترك الإيطالي الصاخب كان سافونارولا يرقب الحوادث وقد ملأ نفسه الرعب والأسى . وكان لابد أن يخرج من عزلته ويعمل على إصلاح هذا المجتمع الصاخب المضطرب . وكان نظام الدومنيكان نظام وعظ قبل كل شيء . ومن واجباته أن تنشر كلمة الله وأن يشع ضوءه في قلوب الجميع . وشعر سافونارولا أن عليه القيام بعمل إيجابي فعّال ، لا أن يقتصر على ترديد كلمة الله بين جدران الدير . وظهر أن صوته ضعيف ، في محاولاته الأولى للوعظ بين الناس ، وكان مظهره جافاً وجدياً إلى حد المبالغة . وكانت تعوزه التجربة وملكة الخطابة . وحاول أن يتلقى بعض الدروس في الخطابة على أحد أساتذة جامعة بولونيا ، الذي قال إنه سينجح إذا مزج الفصاحة بالفلسفة والإلهيات . ولكن الخطابة المدروسة بغير إحساس عرقلت ملكة التعبير الطبيعية فيه ، وحاول أن يستمد العون من الكتاب المقدس . ولكن ظلت عظاته بغير تأثير في السامعين .

ثم أرسل سافونارولا للوعظ في فرّارا في ١٤٨١ . وعاش فيها منعزلاً وتجنب مقابلة أصدقائه ، ولم ير أسرته إلا نادراً ، لكي لا يوقظ في نفسه عواطفه القديمة . وبالرغم من ذلك أثارت ذكريات الماضي شجونه . وكانت شوارع المدينة وأحياؤها ومنازلها وكنائسها تتحدث إليه عن ذلك الماضي الذي عمل على إبعاده عن نفسه . وأخذت تتجاذبه إحساسات مختلفة ووجد نفسه قد عاد إلى حيث انتهى . وقارن الحاضر بالماضي . وبدا له أن هربه أوشك أن يكون بغير جدوى . وشعر أنه ضعيف . ولكنه ظل يقاوم ما اختلج في نفسه وما اهتزت له جوانحه .

ولم يكن سافونارولا في فرّارا قد كشف بعد عن مقدرته الخطابية ولم يلتفت إليه مواطنوه ، وكان قليل الثقة بنفسه ، ولم يتمكن من السيطرة على سامعيه في أول الأمر ، وإن يكن ظهرت في عظاته لمحات من البلاغة وقوة العارضة . وذات يوم وقع له حادث جعله يدرك مقدرته الخبيئة . فعندما كان يرحل في سفين في نهر البو من فرّارا إلى مانتوا وجد نفسه أمام جماعة من الجند يقامرون ويصخبون دون أن يكترثوا به . فخاطبهم فجأة بكلمات غِضاب متدفقة . فأخذوا وأنصتوا وتركوا ما كانوا فيه ، وركعوا طالبين إليه أن يباركهم . وكان له بذلك جمهور صغير منصت . وكشف أنه يستطيع التأثير في الناس إذا ما تحدث إليهم حديث الرجل إلى الرجل ، ببساطة وبغير تصنع وتقيد بقواعد الخطابة المدروسة . ولكنه عندما كان يعتلي كرسي الوعظ أمام الجمهور ، تضعف ثقته بنفسه وتختفي سيطرته على الناس . وكان لابد له من أن يبذل جهداً جديداً لكي يظفر في هذا السبيل .

Twitter: @ketab_n

وفي تلك السنة نفسها عصفت بإيطاليا الحرب الداخلية . وبدأت موجهةً ضد دوق فرّارا ، ثم اتسع نطاقها وانقسمت إيطاليا إلى معسكرين متعاديين . ويرجع سبب الحرب الحقيقي إلى رغبة البندقية في توسيع سلطانها في الأرض الإيطالية من ناحية ، وإلى رغبة البابا في تقوية سلطانه ونفوذ أقاربه في إيطاليا من ناحية أخرى . وانضم إلى دوق فَرارا فلورنسا ونابولي وميلانو وبولونيا . وانضمت جنوا والبندقية إلى البابا في أول الأمر . ووقعت مناوشات غير حاسمة . وبدا أن البندقية ستكسب كل الفوائد وسينمو نفوذها على حساب الإمارات الإيطالية الأخرى . وعندئذ غيّر البابا سستو الرابع سياسته ، وصالح أعداءه من أمراء إيطاليا وحرضهم على قتال البندقية العدو الأكثر خطراً . وكان هذا التغيير الفجائي أمراً غريباً لمن لا يعرف طبيعة البابوات والساسة بوجه عام في إيطاليا في ذلك الوقت ، والوسائل التي يضطرون إلى اتخاذها لتحقيق مصالحهم . واستمرت المناوشات بعض الزمن ، ولكن انتهى الأمر بكلال المتحاربين وضجرهم من الحرب . وعقد الصلح في بانيولو في ١٤٨٤ . ومات البابا حانقاً مريضاً لأن الصلح فوّت عليه فرصة تحقيق أحلامه ومطامعه .

وقد اضطرت هذه الحرب كثيراً من رهبان الدومينيكان إلى مغادرة فرّارا إلى أماكن أكثر أمناً واستقراراً . فودّع سافونارولا أسرته ، وأصدقاءه ومهد صباه لآخر مرة ، إذ لم يقدر له أن يعود إلى فرّارا مرة أخرى . وأرسل سافونارولا إلى فلورنسا . وأخذ يقطع طريقه بين ممار جبال الأبنين إلى هذه المدينة الجديدة ، حين كانت تساور نفسه الأفكار الحزينة من جرّاء ما أصاب إيطاليا من الفوضى والاضطراب . وأدرك بوضوح ما جرّته على بلاده السياسة الخرقاء التي اتبعها البابا وأمراء إيطاليا ، والويلات التي سبّبتها بصفة خاصة مساعي البابوات لتحقيق أطماعهم ، بدلاً من العمل على توحيد إيطاليا ، وذلك في الوقت الذي ثبّت فيه الأتراك العثمانيون أقدامهم في البلقان وأخذوا يرسلون قواتهم لضرب أوترنتو ، كما هددوا بالزحف غرباً إلى قلب أوربا . وبينما يسير سافونارولا في طريقه إلى فلورنسا كانت الرياح تضرب أشجار الصنوبر العالية الرفيعة ، وتصفّر فوق سفوح الجبال ، وهي تصب لعناتها على من أثار الفوضى والدمار في إيطاليا .

وما أن هبط سافونارولا فلورنسا حتى أسكرته أنوار المدينة الجديدة ، وأثّر في نفسه اللسان التسكاني الجزل ، ولمس رقة شعور أهل فلورنسا ، واهتزت جوانحه لجمال تسكانا الناطق وفنها العريق ، الذي بدا لعقله المتدين تعبيراً إلهياً مقدساً ، ودليلاً على إبداع العبقرية التي تستوحي الإيمان الصادق . ودخل دير سان ماركو[٦] . ووجد رهبانه ممتازين في الثقافة والذوق . وشهد صور فرا أنجلكو[٧] التي ملأت جدران الدير تشع منها أضواء مقدسة ، فأحس في أول الأمر أنه انتقل إلى

Twitter: @ketab_n

عالم من الأحلام ، وارتاحت نفسه ، ونسي متاعب الماضي ، وبدت أمامه أنوار الأمل الباسم ، ولكنه لم يدر ما يخبئه له المستقبل القريب من الأحداث .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني
لورنتزو العظيم

إشارة إلى ظروف فلورنسا الداخلية -سياسة لورنتزو في إيطاليا -إحياء التراث القديم -فيتشينو ودلآ ميراندولا - الحفلات والمباهج -لورنتزو الشاعر -أنجلو بوليتزيانو - لويدجي بولتشي .

عانت فلورنسا في أواخر العصور الوسطى أهوالاً جساماً ، بسبب ظروف المنافسة وعوامل الصراع الداخلي بين الأسر القوية والأحزاب السياسية بين جدرانها ، وبسبب ما تعرضت له من أطماع جيرانها في إيطاليا . وكان من الطبيعي أن يعمل رجال فلورنسا على التخلص من هذه الفوضى الداخلية العقيمة ، وإن يؤمنوها شر الأخطار الخارجية الداهمة . وقد تمكن آل مديتشي[٨] من السيطرة على مصاير فلورنسا وأبدوا المقدرة اللازمة ، واستطاعوا أن يهدئوا الخواطر الثائرة ، وأن يصبوا الزيت على المياه المضطربة ، وأن يحملوا الناس إلى حد كبير ، على العمل في انسجام وتوافق ، وأن يحققوا السلام لفلورنسا زمناً لا بأس به .

كان لابد لتحقيق تلك الأهداف أن تنمو السلطة الأوتوقراطية على حساب الحكم الديموقراطي . وكان لورنتزو من أعظم رجال أسرة مديتشي . ووجد أن مصلحة فلورنسا ومصلحة أسرته على السواء تقتضي السير في جمع السلطة في يديه . ولكنه كان حذراً ماهراً في ذلك السبيل . فحاول أن يوجد التوافق بين الأوتوقراطية والديموقراطية ، وحاول أن يحتفظ بصورة الحكم الديموقراطي الذي ألفه الشعب ، وحرص على أن يتجنب الظهور بمظهر الطاغية المستبد بحقوق الشعب ، فهو كان فلورنسياً صميماً يعرف طبيعة شعبه تمام المعرفة . وفضلاً عن ذلك كان من أهم الصعوبات التي واجهها أن يحكم حزباً امتاز أعضاؤه بالثروة والجاه والمقدرة .

Twitter: @ketab_n

وكان عليه أن يحفظ هذا الحزب القوي تحت سيطرته ، وأن يسترضي أعضاءه ، وأن ينال تأييدهم ، لإجراء التعديلات الدستورية اللازمة ، التي سوف نعود إلى تفصيلاتها في موضع مقبل . وقد اضطر لورنتزو في بعض الأحيان إلى استخدام وسائل العنف والغدر الشائعة في عصره ، للتخلص من أعدائه ومنافسيه ، الذين كان عليه أن يضربهم بلا هوادة ، قبل أن يسدّدوا إليه سهامهم القاتلة . وحقق لورنتزو العظيم نصيباً من النجاح في حلّ مشكلة سياسية عويصة حلاً معقولاً : باستخدامه حكومة أوليجاركية تحفظ له السلطة الأوتوقراطية في شعب حر ديموقراطي ، كما فُهمت الحرية و الديموقراطية في ذلك العصر . وحقق إلى حد كبير السلام والأمن والاستقرار ، في فلورنسا الديموقراطية القلقة الصاخبة .

استطاع لورنتزو أن يقضي على محاولات أعدائه الذين تجمّعوا لمهاجمته خارج فلورنسا . فسيطر على الموقف واسترجع براتو من يد أعدائه[٩] . وكذلك أخضع مدينة فولتيرّا التي هددت أكثر من مرة بالثورة على فلورنسا . ولسوء الحظ تعرضت المدينة في أثناء ذلك للاعتداء والنهب من جانب الجند ، برغم محاولات قائدهم الحيلولة دون ذلك . وعُدّ لورنتزو مسؤولاً عن ذلك الحادث . على أنه سارع للذهاب بشخصه إلى فولتيرا للتخفيف عن أهلها في ١٤٧٢[١٠] .

وخدم لورنتزو الحظ بالنجاة من بعض الأخطار الجسيمة التي تعرض لها في أثناء قيامه بما أملته عليه الظروف . ومن الأمثلة على ذلك مؤامرة آل باتزي الشهيرة ، التي عضدهم فيها البابا سستو الرابع للعمل على انتزاع السلطة من أيدي آل مديتشي ، وإن كان قد حذرهم من ارتكاب الجرائم . صمّم المتآمرون على إهدار الدماء ، وتظاهروا في ثورتهم بالدفاع عن حرية فلورنسا من طغيان آل مديتشي . ولكن لورنتزو نجا بحياته ، حين قتل أخوه جوليانو في كاتدرائية فلورنسا في إبريل ١٤٧٨ . وتمتاز هذه المؤامرة برفعة شأن مَنْ اشترك فيها من كبراء المدينة وبعض رجال الدين ، كما تمتاز باختيار الوقت المناسب لها وبكثرة ضحاياها[١١] .

غضب البابا لإخفاق مؤامرة آل باتزي ، واشتد حنقه لمقتل أعوانه في تلك المؤامرة . ورأى أن الفرصة أوشكت أن تفلت منه للسيطرة على فلورنسا . وأدرك ماكان يستطيع أن يكسبه بنجاحها من النفوذ في إيطاليا . وقد اتخذ البابا عدة إجراءات عنيفة : صادر أموال بنك مديتشي في روما ، وأرسل إلى حكومة فلورنسا يطلب تسليم لورنتزو إليه! وبطبيعة الحال رفض مجلس السينوريا ذلك الطلب الغريب وقال : « كيف نكون أحراراً إذا أطعنا أوامرك ؟ إنك تسميه (لورنتزو) الطاغية وأغلب الفلورنسيين يسمونه حاميهم » . فأصدر البابا قرار الحرمان ضد الأراضي التسكانية كلها . وقد غضب الفلورنسيون ولم يفكروا في التسليم

Twitter: @ketab_n

والخضوع . واستعدت فلورنسا للدفاع عن كيانها ومصالحها التي هددتها مطامع البابوية الجامحة .

عندئذ وقع حادث فريد يبين كيف تغيرت عقول الناس في ذلك العصر ، وكيف أصبح مركز البابوية في نظر الساسة . استند رجال فلورنسا إلى بطلان ادّعاءات البابوية للسلطة الزمنية . واجتمع أساقفة تسكانا في كاتدرائية فلورنسا ، وطالبوا بعقد مجمع ديني عام على غرار المجامع الدينية السابقة ، للنظر في قرار البابا ضد تسكانا . كما أصدروا قرار الحرمان ضد البابا ذاته! وطبعت كنيسة تسكانا قراراتها ونشرتها بين كنائس أوربا .

كان من الطبيعي أن تنشب الحرب . فجمع البابا إلى جانبه بعض الولايات والمدن الإيطالية مثل نابلي وسيينا ولوكا وأوربينو ، واستغل ما كان بينها وبين فلورنسا من المنافسة وتعارض المصالح . ولم يكن لفلورنسا قبل بلقاء هؤلاء الأعداء دفعة واحدة ، وهزمت قوات فلورنسا في أكثر من موضع ، ودامت تلك الظروف الحرجة ما يقرب من عامين . وعندما وجد لورنتزو أنه لن يستطيع أن يدفع العدوان عن بلاده بالقوة الحربية ، لجأ إلى السياسة . وسافر بشخصه إلى نابلي . ونجح في التأثير في ملكها فرّانتي . وأوضح له مطامع ميلانو والبندقية في إيطاليا ، وما يمكن أن تؤدي إليه حالة الحرب الداخلية من استفحال خطرهما ، وحذره من تغير سياسة البابوية بتغير أشخاص البابوات ، وما يحتمل من انقلاب البابوية عليه في المستقبل . وعقد معه الصلح . وبذلك استرجعت فلورنسا ما خسرته من الأراضي . وقابل الفلورنسيون لورنتزو استقبالاً رائعاً في ١٤٨٠ ، بعد أن حمل إليهم السلام مع الشرف ، وحقق لهم بالسياسة ما لم يحققه بالسيف . وإزاء ذلك اضطر البابا إلى عقد الصلح وإلى سحب قرار الحرمان الذي كان قد أصدره ضد فلورنسا .

وعلى الرغم من محاولات لورنتزو إقرار السلام في إيطاليا ، سرعان ما تجددت الحرب ؛ إذ لم يرض البابا بما وصل إليه الأمر . وحاول من جديد أن يعمل على تحقيق أطماعه في إيطاليا . ووقعت تلك الحرب التي قسمت إيطاليا إلى معسكرين متعاديين : معسكر البابوية ، والبندقية وجنوا ، ومعسكر فرّارا وفلورنسا ونابلي وميلانو وبولونيا ، وقد مر بنا ذكرها ، وهي التي انتقل في أثنائها سافونارولا من فرّارا إلى فلورنسا ، وانتهت بصلح بانيولو في ١٤٨٤ . وقد استطاع لورنتزو أن يخرج فرنسا سريعاً من هذا القتال الجديد ، وجنّبها ويلات الحرب . وعمل صادقاً على إزالة أسباب سوء التفاهم بين الولايات والمدن الإيطالية . وبذل وسعه في أن يقيم بينهاحالة من التوازن والاستقرار ، كما حرص على أن يوجد علاقات طيبة مع البابا الجديد إنشنتو الثامن . على أن لورنتزو قد اضطر إلى الالتجاء للقوة في نطاق محدود . ونجح في انتزاع بيتراسانتا من جنوة في ١٤٨٧

Twitter: @ketab_n

كما استرجع سارتزانا في ١٤٨٧[١٢] . ثم رجع لورنتزو إلى السياسة العامة التي اتبعها ، فحرص على أن يوجد علاقات سلم مع جيرانه مثل سيينا ولوكا وبولونيا وفرارا . وبذلك أحاط فلورنسا بحلقة من الإمارات والمدن الصديقة .

وفوق مشاغل لورنتزو الكثيرة في ميدان الحرب والسياسة في الداخل والخارج ، كان زعيماً لعصره في كل فروع المعرفة . وكان في ذلك تسكانياً في الصميم ، أشرب روحه تقاليد فلورنسا وعاداتها ، مع مسايرة روح العصر . وهو يعدّ خير من يمثل اتجاهات العصر الذي عاش فيه . ويتضح ذلك بما ساهم فيه لورنتزو في مختلف مرافق الحياة .

كان من أهم عوامل ومظاهر عصر النهضة حركة إحياء تراث اللاتين واليونان . وعندما تغيرت العقلية الإيطالية وأخذت تتحرر من تقاليد العصور الوسطى بدأ الإيطاليون ينظرون نظرة جديدة إلى التراث القديم . فأقبلوا على دراسة النصوص الأولى وتفهّموا ما فيها من جمال ، واستوحوا معانيها لصوغ أفكار جديدة . ساير آل مديتشي ولورنتزو العظيم بصفة خاصة ذلك التيار . فكان لورنتزو يرسل البعوث الخاصة إلى الشرق للحصول على المخطوطات القديمة النادرة . وكان له جيش من النساخ يعملون دائماً في نسخ الكتب النادرة وإرسال صور منها إلى أماكن متعددة ليعم الانتفاع بها . وأعاد إنشاء جامعة بيزا ، ووجهها إلى دراسة التراث اللاتيني ، كما عني بدراسة التراث اليوناني في جامعة فلورنسا . وأحيا الأكاديمية الأفلاطونية التي أنشأها كوزيمو دي مديتشي في ١٤٦٥ . وبذلك أصبحت فلورنسا مقصد طلاب العلم من أنحاء أوربا قاطبة .

وفضلاً عن ذلك فإن لورنتزو قد عني شخصياً بدراسة التراث القديم . فكان يناقش العلماء في آراء القدماء ويقرأ معهم أشعار فرجيل وهوميروس ، وكان هو نفسه يهتم بدراسة المخطوطات القديمة التي ترد إليه من الشرق ، وجمع في قصره كثيراً من الآثار والتحف الثمينة . وأنفق لورنتزو في ذلك كله أموالاً طائلة من ماله الخاص . ويقدر ما بذله كل سنة بما يعادل ٧٠ألف جنيه . وأعلن وهو على فراش الموت أسفه لأنه لم يتمكن من إكمال مكتبته كما كان يأمل . وأدى إنفاقه الأموال الكثيرة في هذه السبل إلى موته رجلاً أفقر كثيراً من أبيه . وكان بذلك أحرص على نشر العلم من الاحتفاظ بالمال واكتنازه .

ومن المشكلات التي واجهها أهل القرن الخامس عشر ذلك التعارض والخلاف الذي أحسّوه بين تراث القدماء و تراث المسيحية . وعندما أكبوا على ارتشاف التراث الوثني القديم لم يستطيعوا أن يقضوا على مقام التراث المسيحي في نفوسهم ، وإن كان الكثير من أهل العصر قد خرجوا من الناحية العملية على قواعد

Twitter: @ketab_n

الأخلاق والدين التي رسمتها التعاليم المسيحية . وظنوا أنه من الميسور التوفيق بين تلك الآراء المتعارضة .

حاولت الأكاديمية الأفلاطونية في فلورنسا وعلى رأسها مارسيليو فيتشينو التوفيق بين آراء القدماء على ما بينها من خلاف ، من ناحية ، والتوفيق بين آراء القدماء في مجموعها وآراء المسيحية ، من ناحية أخرى . فقال فيتشينو في كتابه الذي وضعه باللاتينية عن «اللاهوت الأفلاطوني» إن الطبيعة تزخر بعدد لا يحصى من النفوس : الماء والأرض والنباتات والكواكب والضوء . وكل هذه النفوس عقلية أبدية ولا تنفصل عن الصورة الخارجية التي تتخذها ، وهي تدفع الطبيعة على الحركة الدائمة . وإن فكرة النفوس تتفق مع آراء أفلاطون وأرسطو جميعاً . وإن في الإنسان نفسين النفس الحاسة وهي لا تنفصل عن الجسد ، وتخضعه بعد الموت لتحولات المادة الدائمة ؛ ثم النفس العاقلة التي هي نفثة من الله ، ويمكنها أن ترى ما بعد الحاضر وتتنبأ بالمستقبل وتشاهد الله وإن الله أراد أن يكون الإنسان من عمل يده وعلى صورته . وإن الكائن الأعظم هو الوحدة ، ويوجد الكمال في الواحد ، الذي أحاط عرشه بالملائكة . وعدّ فيتشينو أيضاً أن فرجيل قد تنبأ بظهور المسيح ، وقد حاكى بذلك آراء الأفلاطونية المحدثة ، ومزج بين آراء القدماء وآراء المسيحية . ونجد في كتابته آراءً أفلاطونية وأشكالاً أرسطاطالية وآلهة وثنية وملائكة الكتاب المقدس كلها في هيكل واحد .

كذلك كان بيكو دلا ميراندولا من ألمع رجال العصر الذين ، أحاطوا بلورنتزو العظيم ، وساروا في الاتجاه نفسه . وامتاز بالجمال والذكاء وبنبالة الخلق ، ودرس التراث القديم وتعلم اللغات الشرقية ، كما ألم بالثقافة المسيحية وتراث العصور الوسطى . وحرص على أن يتمتع بملاذ الحياة ووضع أغاني في الحب باللغة الإيطالية ، ولكنه أحرقها قبل أن تصل إلى أيدينا .

حاول بيكو أيضاً التوفيق بين آراء القدماء فيما بينهم ، وبين هؤلاء والمسيحية . ونادى بعظمة الإنسان وأهمية الطبيعة البشرية . وقال إن الإنسان عالم صغير في ذاته ، تمتزج فيه عناصر الأرض والهواء والنبات وحواس الحيوانات الدنيا والعقل والذكاء ، كما أن فيه شبه الله . وحاول إيجاد الصلة بين التراب وأفكار الملائكة لا على أساس الدين ولكن على أساس حق الإنسان الطبيعي ، ووَضَعَ النفس والحواس والقلب والذكاء والجسم كلا في موضعه . وخالف بذلك فكرة العصور الوسطى .

وصلنا من آثار بيكو دلاّ ميراندولا بالإيطالية «أغنية الحب الإلهي في نظر الأفلاطونيين»[١٢] ، التي حاول فيها أن يحدد المراحل التي تمر خلالها النفس من الأرض إلى الجمال غير المنظور على طريقة أفلاطون . وحاول فيما كتبه عن الخلْق

Twitter: @ketab_n

التوفيق بين أفلاطون وسفر التكوين . فبحث أوجه الشبه والمعاني المزدوجة في الطقوس اليهودية وأساطير اليونان . وقال إن كل شيء على الأرض هو رمز يقابل حقيقة عليا في السموات . كما حاول إثبات ألوهية المسيح بالرجوع إلى الفلسفة الوثنية القديمة . ولكن ذلك لم يرض البابا ، فعدّه هرطيقاً ومنع تداول آرائه . ثم رفعت عنه تلك القرارات فيما بعد .

على أن أهل القرن الخامس عشر لم ينجحوا تماماً في التوفيق بين آراء القدماء وتعاليم الكنيسة . وهم لم يفهموا تطور الإنسانية التاريخي . ولم تكن عندهم فكرة واضحة عن تقدم الإنسان ولا عن الاختلاف بين العصور . وازدحمت أمامهم آراء القدماء والمحدثين . وفهموا أن التوفيق بين القديم والحديث لا يكون على اعتبار أن آثارهما مراحل متتابعة في سيرِ الزمان التدريجي ، ولكن على أنها توجد جنباً إلى جنب ويمكن أن تتفق فيما بينها بوسيلة ما . وهم قاموا بما أمكنهم القيام به ، وتركوا لمن جاء بعدهم تحقيق ما قصروا عن أدائه .

أما الحفلات والمباهج التي أقيمت في ذلك العهد فكانت من أهم مظاهر النشاط في حياة المجتمع الفلورنسي . وكان لورنتزو وأخوه جوليانو على رأس تلك الحفلات والمباهج . فكان لورنتزو يضع بنفسه تصميم الرسوم والملابس والأقنعة والعربات اللازمة والمستوحاة من الفن اليوناني القديم . وكان من أهم تلك المباهج حفلات الكرنفال ، التي كانت تظهر فيها النساء في شكل آلهة اليونان القدماء ، وتسير المواكب المختلفة ، ويركب بعضهم الجياد المطهمة ، التي يغطى بعضها بجلود الأسود والفهود ، وتقام أقواس النصر من أزهار الربيع ، وتتناثر أزهار النرجس والبنفسج ، وتوقد المشاعل ليلاً . ومن الأقنعة المشهورة التي كان يلبسها الرجال والنساء ، أقنعة رجال العلم وأصحاب الحرف وبائعات الكرم والشياطين ، والنفوس المعذبة والحور العاشقات والمنافقين ، والراهبات اللاتي هربن من الدين ، والرياح والسلام والموت . كما كان يلتقي الشبان بالشابات ويرقصون في الميادين العامة ، ويوقعون الموسيقا وينشدون أغاني الحب والربيع التي صاغ بعضها لورنتزو نفسه .

واتهم بعض الكتاب لورنتزو بأنه حرض شعب فلورنسا على إقامة تلك الحفلات والمباهج وعلى التمتع بملاذ الحياة ، لكي ينصرفوا عن السياسة وشؤون الحكم . وعدّ سافونارولا أن لورنتزو مسؤول عن إفساد الشعب . وفي الواقع أن تلك الحفلات التي أقيمت على ذلك النحو قد استغرقت جزءاً كبيراً من وقت أهل فلورنسا ، وصرفتهم عن مسائل الحكم والسياسة . واستفاد لورنتزو من هذه الناحية . ولكن إلى جانب ذلك كان لورنتزو يميل إلى هذا النوع من الحفلات ، ويتذوق ذلك الأسلوب من الحياة الحرة الخالصة من القيود والأوضاع ، وكان لورنتزو مسايراً في ذلك روح العصر . ولم يكن مسؤولاً عن خلق تلك الروح في نفوس

Twitter: @ketab_n

الناس . ولو أن أهل فلورنسا لم يستسيغوا هذا النوع من الحفلات ولا ذلك الأسلوب من الحياة ، لما استطاع لورنتزو ولا غير لورنتزو أن يكرههم على ما لايحبون .

ويساعدنا الإلمام بالأدب على فهم روح العصر . وجد في عهد لورنتزو طائفة من الشعراء المجيدين ، كان هو على رأسهم . درس لورنتزو الشعراء الإيطاليين الذين سبقوه ، وعدّ أن اللغة الإيطالية جديرة بقول الشعر العظيم ، بالرغم من تقديره وعنايته بإحياء تراث القدماء . وصاغ لورنتزو من الشعر ما لم يسمع الإيطاليون بمثله منذ عهد بوكاتشو ، وأمكنه أن يمزج أشعار الحب عند بتراركا بالروح الواقعي الذي وجد في العصر الذي عاش فيه . وامتاز شعره بالرقة والعذوبة والبساطة والصدق في التعبير . وله طائفة من الأشعار الممتازة في وصف الطبيعة الساحرة . فوصف الربيع في تسكانا ، ووصف الأزهار والنجوم ، والماشية في المرعى ، وكلاب الصيد ، والطير الشادي فوق الأغصان . ولم يظهر في شعره أثر لخفق الجوانح بالحب على طريقة دانتي[١٤] أو حتى على طريقة بتراركا[١٥] أو بوكاتشو[١٦] . وصل لورنتزو إلى مرحلة أبعد من ذلك . فلم يكن يصطرع في نفسه الروح مع الجسد ، وكانت عنده السيطرة للجسد والتمتع بالحياة . وقد عاش تلك الحياة ذاتها . فتزوج المرأة التي قدمتها له أمه دون معارضة ، وفي الوقت نفسه قضى أوقاته مع فتيات الريف الجميلات في قصوره بضواحي فلورنسا ، وأسرف في الحب والتمتع بالحياة على طريقة أهل العصر ، حتى أضر ذلك بصحته . وبناء على ذلك تظهر المرأة في شعره كمخلوق جميل وسط الطبيعة المزدهرة ، وقد برزت تفاصيلها وثناياها بروزاً واضحاً صادقاً .

ومن شعره المشهور «أغاني المرقص» التي اعتاد الشباب الترنم بها في الحفلات والمباهج . وهي في العادة تقصّ أخبار العاشق المخفق المضني ، وأخبار العاشق السعيد الموفق . ويحرض لورنتزو فيها الشبان والشابات على أن يقفوا عجلة الزمن الذي يمضي سريعاً ، ويدعوهم ألاّ يجعلوا زهرة العمر تضيع عبثاً وهباء . واشتهرت بصفة خاصة الأغاني التي وضعها لحفلات الكرنفال . ومن أروع تلك الأغاني القصيدة المسماة «انتصار باكوس»[١٧] التي يقول فيها ما معناه :

ما أجمل الشباب
الذي يولي الأدبار سريعاً
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحدٍ في غد .
وها هو ذا باكوس وأريانا[١٨]
جميلان ، وكلاهما يعشق الآخر .

Twitter: @ketab_n

ولأن الوقت يخدع ويولي سريعاً
فهما يتلازمان راضيين دائماً .
وهذه الحور وأتباعها
في حالة من المرح الدائم .
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحدٍ في غد .
وهذه الآلهة السعيدة
التي عشقت الحور
وضعت لهن مائة من الفخاخ
في الكهوف والأحراج
والآن وقد بعث الحرارة فيهم باكوس
فإنهم يرقصون ويقفزون دائماً
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحد في غد
وإنه لحبيب إلى هاته الحور
أن يخدعن .
ولا يستطيع أن يقاوم الحب
سوى غلاظ القلب الجاحدين .
والآن وهم مختلطون بعضهم ببعض ،
يعزفون ويغنون .
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحدٍ في غد .

* * *

ليفتح كل منكم أذنيه جيداً ،
لا تهتموا بأمر الغد
ولنكن اليوم جميعاً سعداء
الإناث والذكور والشباب والشيوخ .
وليذهب بعيداً كل فكر حزين .
ولنجعل أيامنا كلها أعياداً .
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحدٍ في غد .
يا أيها النساء والفتيان العاشقون

Twitter: @ketab_n

فليحي باكوس وليحي الحب
وليعزف كل منكم وليرقص وليغن
وليضرم الحب الرقيق في قلوبكم النار .
لا تعب ولا ألم .
وليكن في المستقبل ما يكون .
من يرغب أن يكون سعيداً فليكن اليوم
لأنه لا ثقة لأحدٍ في غد .

ما أجمل الشباب
الذي يولي الأدبار سريعاً .

هذه القصيدة من أروع ما كتبه لورنتزو . وتتناول الشباب الذي يولي الأدبار أويهرب من الناس على حد تعبيره . وتشيع في أجزائها الحياة والحرارة ، وتسطع في ثناياها الصورالبراقة اللامعة ، التي سرعان ما تنساب ويختلط بعضها ببعض . وتحض الناس على طرح الأحزان والآلام وعلى التمتع بالحياة السعيدة قبل فوات الوقت . وهي تعبر أصدق تعبير عن روح العصر .

وقد أحاط لورنتزو طائفة من أدباء العصر الممتازين بدرايتهم بتراث القدماء وبروحهم الشاعر الصافي . وكانوا يجتمعون بلورنتزو في قصوره بضواحي فلورنسا . ونجد من هؤلاء أنجلو بوليتزيانو[١٩] ، الذي ترجم في سن مبكر جزءاً من إلياذة هوميروس إلى اللغة اللاتينية ، واستطاع أن يكتب شعراً لاتينياً صافياً . كما يعدّ من واضعي أسس علم الفيلولوجيا الحديث . ومحاضراته في فلورنسا عن التراث القديم جذبت إليه طلاب العلم من أنحاء أوربا .

ويمتاز شعره الإيطالي بصدق التعبير عن روح العصر ، مع الاقتباس عن روح القدماء ؛ وبروعة الأسلوب وابتكار المعاني ، وبالجمال الفني . أحب بوليتزيانو الطبيعة كما أحبها الأغريق ، وتذوق جمالها ، ووجد في ثناياها آلاف الصور الرائعة التي هزت شاعريته الفياضة وكتب شعراً تصويرياً وصف فيه الطبيعة بعين نقية دقيقة صافية . وفي قصيدته «قصة أورفيو»[٢٠] مزج بين عنصر التراجيديا وروح الطبيعة الساحرة ، مع إعدادها للتوقيع الموسيقي ، وشيوع روح الأغريق الوثنية في ثناياها . وعدّ أورفيو بطل عصر النهضة الذي يقوم بنشر المدنية في عالم متبربر عن طريق الفن والشعر والجمال . ولم يصورالمرأة في شعره كمخلوق سماوي أتى من السماء إلى الأرض لكي يقوم بالعجائب ، ويطهر قلب الرجل ويقوده إلى الله . ولكنه صور المرأةالواقعية في إطار الطبيعةالجميلة . فهي تغسل وجهها في النبع الذي يتدفق منه الماء ، وصدرها ورد الربيع ، وشعرها أصفر كالذهب ، وهي تحادثه بغير لغة ، وتمزقه

Twitter: @ketab_n

قطعاً بغير سلاح ، وتقوده إلى الموت بغير سيقان . ويجعل بوليتزيانو الأشياء عزيزة على الإنسان ، ويزرعها في النفس على الدوام ، كما يبقي أنغام الشباب تهتز أبداً في حنايا القلوب .

كذلك نجد لويدجي بوتشي[٢١] من أدباء االعصر البارزين . كان شاعر بلاط آل مديتشي ووضع ملاحم وقصصاً شعرياً مستمداً من أساطير العصور الوسطى ومن قصص العامة في تسكانا . وصور روح العصر أصدق تصوير ، بما أبرزه في شعره من جوانب الحياة المتعددة . وجمع في أشعاره بين التفكير والفلسفة والدين والوثنية ، والشك والتهكم والسخرية ، والسحر والخزعبلات ، والإعجاب بجمال الطبيعة . وتبدو كل هذه المناظر والمواقف طبيعية ويسود بينها التوافق والانسجام . وتشبه بعض أشعاره كتابات سافونارولا الدينية ، كما أن بعضها الآخر يشبه شعر لورنتزو العظيم في أغاني الكرنفال . واستطاع بولتشي أن يرسم شخصيات إنسانية تمثل بعض نواح من روح العصر . مثل شخصية مورجانتي الذي يصوره كبطل شعبي مدع جاهل جشع ، ولكنه طيب القلب مخلص شجاع . ومثل شخصية مارجوتي الذي يعبر عن صفات عامة الشعب ، فهو لص وضيع مخادع متهكم سيئ الطباع أقرب ما يكون إلى الحيوان . ومثل شخصية أستاروتي الذي يمثل الرجل الطيب العاقل المحبوب المتدين ، ولكن على طريقته ؛ فهو يعدّ أن المعاملة الحسنة موجودة في الجحيم ، ويقول إن الملائكة ارتكبوا الخطيئة وهم يعلمون ، ولكن آدم ارتكب الخطيئة وهو لا يعلم ، وعلى ذلك فهناك أمل في أن يجد الجميع العفو والرحمة عند الله .

هذا مجمل لأحوال فلورنسا ولظروف المجتمع الذي عاش فيه سافونارولا ، والذي سينهض لمعارضته ، ويبذل حياته في ذلك السبيل .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث
سلطان الكلمة

أثر البيئة الجديدة -عمل سافونارولا في دير سان ماركو-
فشله في اجتذاب جمهور فلورنسا وأثر ذلك في نفسه -
انتقاله إلى ردجو دميليا وتعرفه إلى بيكو دلا ميراندولا -
انتقاله إلى سان جيمينيانو ونجاحه في اجتذاب الناس -
رحلاته في لمبارديا -لونتزو يستدعيه إلى فلورنسا -
نجاحه العظيم في اجتذاب أهل فلورنسا .

عندما أقام سافونارولا في فلورنسا سرعان ما عاوده شعور العزلة من جديد ، وبدت له حقائق كانت عنه خافية . ولما عرف أهل فلورنسا عن كثب أدرك تميزهم بطول اللسان وبروح الشك السائدة فيهم ، ولاحظ أنه حتى بين رهبان سان ماركو لم يسد الروح الديني الخالص . وأغضبه اهتمام أهل فلورنسا بإحياء تراث القدماء وإشادتهم بآثار أفلاطون وأرسطو ، وإنكارهم في مناقشاتهم بعض أسس الديانة المسيحية . فأخذ يعدّ هؤلاء المتحمسين لفلسفة القدماء خارجين على الدين ، ونظر إليهم نظرة ازدراء ، وانتقد آراءهم ، بالرغم من أنه كان قد قضى في دراسة آثار القدماء زمناً ليس بالقصير . وهكذا وجد أن آماله العريضة التي علقها على فلورنسا أوشكت أن تضيع هباء .

ومضى في عمله في دير سان ماركو . وعهد إليه رئيسه الأب باندلو بتعليم الرهبان الجدد . فأقبل على عمله بحماسة . ودعا تلاميذه إلى دراسة الكتاب المقدس . وتولى التعليق على فصول منه . وكان يتكلم من قلبه . وشعر أحياناً بإحساس غير عادي . وكان يفيض حماسة وفصاحة عندما يتكلم عن فضائح العصر . وكثيراً ما كان يظهر في قاعة الدرس والدمع يترقرق في مآقيه . واستطاع

Twitter: @ketab_n

أن يؤثر في نفوس أولئك الرهبان الجدد .

لكن لم يكن الأمر على ذلك النحو عندما وعظ جمهور أهل فلورنسا في كنيسة سان لورنتزو ، الذين كانوا يؤثرون الاستماع إلى الوعاظ الممتازين باتيان الحركات المدروسة واختيار الألفاظ والعبارات المنمقة والأسلوب الجزل ، والاقتباس عن أدباء اللاتين وفلاسفة اليونان ، وآراء الأكاديمية الفلورنسية ، والذين يثيرون ضحك الجمهور في بعض المناسبات . وكانوا يفضلون الاستماع إلى رجل الدين الذي يظهر لهم أنه قليل الثقة بالدين . وكان من ذلك الطراز من رجال الدين في ذلك الوقت ماريانو دا جناتزانو الراهب الأوغسطيني ، الذي حاز ثقة الجمهور وتوافد للاستماع إليه كبراء فلورنسا على رأسهم لورنتزو العظيم ، وأطراه أدباء العصر[٢٢] .

لم يحز سافونارولا إعجاب جمهور فلورنسا في أول الأمر . فلم تتوافر فيه الصفات التي تحببه إلى أهل فلورنسا ، ولم تتوافر فيه أخلاق الرجل الفلورنسي . صحيح أن سافونارولا كان يتكلم من قلبه ، ولكن كان ينطق بألفاظ جافة غير منمقة ، ويبدو جاداً أكثر من اللازم . ونفر منه الجمهور عندما تكلم بخشونة في آثام البشر وفساد رجال الدين . وكان أحياناً يتلعثم ولا تسعفه الكلمات . فانصرف عنه الناس ، وقل مستمعوه حتى وصلوا إلى نحو خمسة وعشرين بمن فيهم من النساء والأولاد . ونصح له بعض الناس أن يحتذي طريقة ماريانودا جناتزانو وأن يكون مثله رقيقاً لطيفاً معتدلاً ، وأن يقتبس من تراث القدماء ، وأن يتبع روح الفن ، وهو الشرط الأساسي للنجاح في فلورنسا ، التي كان كل شيء فيها يوحي بالفن : أحجار سان ماركو وصور فرا أنجلكو والحديقة الملأى بالتماثيل . ثم إن الخطوات التي رفعته عن عامة الناس كانت من العوامل التي جعلته يفقد ملكة التأثير في الجمهور .

وكان إخفاقه امتحاناً قاسياً على نفسه . وكل من كانت له تجربة بالعقبات التي تعترض الخطوات الأولى في حياة الرجال ، يدرك مدى الصعوبة التي واجهها . وجد سافونارولا نفسه وقد سُد أمامه الطريق وهو لا يزال في مرحلة البدء . ولكن لم يكن أمامه طريق آخر غيره . وقرر في تلك الأونة الانقطاع عن وعظ الجمهور ورجع إلى تلاميذه في الدير .

وعاد في الدير إلى التعليق على الكتاب المقدس ؛ وقال لتلاميذه إن مخازي العصر قد أفسدت الكنيسة ، التي أصبحت في حالة تعجز فيها عن القيام بالإصلاح ، وإن أباطيل الحياة الزائفة ، كالفصاحة والحفلات والفخامة والزخارف هي التي تجذب الرجال . وتساءل عن علاقة هذه الأباطيل بالدين ، وقال إن الدين لم يكسب منها سوى قتل العقيدة الخالصة . وإن الكنيسة ذاتها هي المسؤولة المجرمة

Twitter: @ketab_n

لتأثرها وخضوعها لمادية العصر . وأعلن سخطه لأن رجل الدين أصبح رمزاً للكسل وللطفيلي الذي يعيش على مجهود غيره .

وبدا أن حياته كواعظ ستقتصر على قاعة الدرس الضيقة ، بعد أن لازمه الإخفاق أمام الجمهور . وكان في السن التي تتكون فيها عادات الإنسان وترسخ ، بحيث يكون من الصعب التخلص منها فيما بعد . ولكن ظلت تضطرم بين جوانحه نيران رغبة ملحة في مخاطبة الناس والتأثير فيهم ، واجتذابهم إلى طريق الفضيلة والإيمان . وكلما مرت الأيام ازدادت تلك الرغبة في نفسه اشتعالاً . ولم يعد يطيق جدران الدير الضيقة ، ولا الركود الذي استولى عليه . ووجد أن تلاميذه أقل حاجة إلى آرائه من جمهور أهل فلورنسا . وأخذ يطيل التفكير في إخفاقه وفي مساوئ الكنيسة . وجعل يسائل نفسه كيف يمكنه أن يسيطر على أهل فلورنسا ؟ وكيف يستطيع أن يكون فصيحاً ساحراً إذا لم يتذوق المستمعون كلماته ؟ كان لابد من مرور الوقت لكي يكشف عن مقدرته الخبيئة وينتصر .

ولحسن الحظ أرسله رؤساؤه في دير سان ماركو في ذلك الوقت يمثلهم في اجتماع ديني للدومنيكان يعقد في ردجو دميليا[٢٣] . وأخذ في أثناء الطريق يفكر فيما كان يخالج نفسه دائماً : ويلات الحرب التي تهدد مسقط رأسه فرّارا ، وتثيرالدمار في إيطاليا ، وداوم التفكير في أن تلك الفوضى لم يسببها إلا جشع البابوات وسعيهم لتحقيق مصالحهم ومصالح أقاربهم على حساب إيطاليا . وحضر ذلك الاجتماع الديني عدد غير قليل من رجال الأدب والعلم . وهناك تعرف إلى بيكو دلا ميراندولا . ولمس فيه لين الطباع وحسن السجايا . وكان من الصعب تصور قيام صلة بينهما ، بسبب الفوارق التي كان من المرجح أن تباعد بينهما . وكيف يمكن أن يلتقي بيكو دلا ميراندولا رجل المجتمع اللين الرقيق وصاحب الثقافة القديمة ، بسافونارولا الراهب المتقشف العنيف ، الذي يسوده شعور السخط والحزن ، والوحدة ؟ بالرغم من هذه الفوارق الجوهرية شعرا بالدوافع التي تقرب بينهما . جمع بينهما طيبة القلب وسلامة الطوية وحب الحقيقة . وأثار إعجاب بيكو الثقة والإيمان والعقيدة الراسخة في قلب سافونارولا ، وكان ذلك من العوامل التي جعلته ينشط لمحاولة التوفيق بين العقيدة المسيحية وفلسفة القدماء . وتوطدت بينهما أواصر صداقة متينة ثابتة .

ودارت في اجتماع ردجو دميليا مناقشات في العقيدة على طريقة أصحاب المذهب المدرسي . وظل سافونارولا صامتاً . وعندما أثير الكلام عن حياة رجال الدين ونظامهم وقف ثائراً ، وهاجم بشدة فوضى الكنيسة وفساد رجال الدين . وعندما تكلم بهذا الإحساس ظهر سافونارولا رجلاً غير عادي وأثار إعجاب المستمعين .

Twitter: @ketab_n

رجع سافونارولا إلى فلورنسا في ١٤٨٢ . وكان يحز في نفسه أنه لا يستطيع اجتذاب الجمهور إليه . وازداد استياؤه لاستمرار أهل فلورنسا في إعجابهم بالأب ماريانو دا جناتزانو . وحفزه ذلك على التمسك بآرائه ، وأخذ يترقب في صلواته وعبادته وحياً مباشراً من الله . وكان من بين تلاميذه في دير سان ماركو الراهب سلفسترو ماروفي ، وكان يصاب أحياناً بنوبات عصبية يهذي في أثنائها ، وامتاز بذاكرة عجيبة ، وبالرؤيا . وعطف عليه سافونارولا ، وشاركه في مقدرته على الرؤيا . ورأى يوماً أن السموات قد انفتحت أمامه ، ومرت أمام ناظريه الويلات التي ستحل بالكنيسة وسمع صوتاً يدعوه إلى إعلان ذلك للناس . واعتقد أن عليه رسالة عالية يجب أداؤها ، وأن ذلك سيكون دأبه مدى الحياة . وكان عليه أن يتلمس الوسائل لتحقيق ذلك .

وحدث في أثناء ذلك أن مات البابا سستو الرابع ، وأمل المخلصون من رجال الدين اختيار بابا مصلح . ولكن على العكس وصل إنوتشنتو الثامن إلى كرسي البابوية عن طريق الرشوة . واشتهر بالبذخ والترف ومخالفة قواعد الدين . وأعلن عن أسماء أبنائه وعمل على معاضدتهم وتقوية نفوذهم في إيطاليا . وكان البلاط البابوي بؤرة فساد لا تليق بالمسيحي العادي ، فضلاً من رأس الكنيسة . ويمكننا أن نتصور ما جال بنفس سافونارولا من شعور بإزاء تلك الحالة .

وبعد قليل أرسل سافونارولا للوعظ في عيد الصوم الكبير في جمهورية سان جيمينيانو . وكانت منطقة صغيرة بين تلال سيينا ، امتازت بالبساطة والهدوء ، وبجمال الطبيعة واتساع الأفق ، الذي يقرب الإنسان من الطبيعة ويقوده إلى الله . ولم يتأثر أهلها بالفلسفة القديمة كأهل فلورنسا ، ولم يتطلبوا في عظات رجال الدين ذلك الأسلوب الجزل ولا تلك الاقتباسات عن تراث القدماء . ووجد سافونارولا ، الذي كانت تنمو ملكاته وتنضج بالتدريج ، في هذه البيئة الجديدة ما لم يجده في فلورنسا . فاستطاع أن يرفع صوته بين أبراج سان جيمينيانو . ووجد في إنصات أهل سان جيمينيانو ، طريق التعبير بحرية وحماسة عن آرائه التي ملأت جوانحه زمناً طويلاً . فأعلن كلماته التي ستصبح صيحة الحرب وعلم الجهاد في السنوات القادمة . فقال إنه ينبغي أولاً تطهير الكنيسة ، وثانياً إعادة تنظيمها ، وثالثاً أن يحدث ذلك بأسرع ما يكون . وتكلم بشجاعة وحماسة عندماتوعد الناس بالويل والثبور . وقد أزال إيمانه الحار تلعثمه أمام الجمهور ، وأجرى على لسانه الكلمات كالسيل المتدفق . وتحدث بحرارة وبساطة ، ومن أعماق قلبه ، فأذهل الناس وأخذهم بسحره وفصاحته ، وأقبلوا لسماعه . وكشف سافونارولا في سان جيمينيانو عن مقدرته الخبيئة . وأدرك أنه قد أظهر الإيطاليين على حقيقة أنفسهم ، وأنه قد عبر عما يجول بخاطرهم . ثم رجع إلى فلورنسا هذه المرة وقد ازدادثقة

Twitter: @ketab_n

بنفسه ، وأصبح أهدأ حالاً ، وأكثر خبرة بطبائع البشر ، وأقوى على مواجهة الناس والتأثيرفي سامعيه .

ثم غادر ساڤونارولا فلورنسا من جديد ، إذ أرسل للوعظ في بعض مدن لمبارديا في ١٤٨٦ . وفي السنوات القليلة التالية قضى حياة الواعظ المتنقل من مدينة إلى أخرى . وكان يتكلم بلهجة لمبارديا ، وشارك أهلها في الذوق والإحساس . وخص أهل بريشا بوقفة خاصة . وهنالك ازدادت حرارة كلماته ، ودوى صوته كالرعد ، وهدد إيطاليا بغضب الله . وقال لأهل بريشا إن مدينتهم ستصبح فريسة لنهب الأعداء ، وإن الدماء ستجري فيها أنهاراً ، وستنتزع النساء من أزواجهن ، وسيعتدى على الفتيات ، وسيقتل الأطفال أمام أعين أمهاتهم . وختم كلامه بدعوة الناس إلى إعلان الندم ودعاء الله أن يكون رحيماً بعباده العادلين . وبدت كلماته المدوية كأنها صوت من العالم الآخر ، وأثار وعيده الرعب في القلوب[٢٤] . والنجاح الذي أحرزه ساڤونارولا في بريشا ، والذي تلا نجاحه في سان جيمينيانو قرر مجرى حياته . فازداد ثقة بالرسالة التي كان عليه أن يؤديها ، وأخذت تنتابه بعد الانتهاء من عظاته الحماسية تلك الحمى الدينية ، التي كان يضطر بسببها إلى الاعتزال والراحة فترة من الزمن كي يستعيد حالته الطبيعية .

ومضى ينتقل من بلدة إلى أخرى . وكان أينما ذهب استرعى الأنظار وأثر في الناس ببساطته وإخلاصه . واستعاد الثقة والحرية وسلام النفس . وسجل التاريخ أنه انتقل إلى بافيا ، وكتب منها كتاباً إلى أمه يفيض بالعاطفة ، رداً على طلبها منه الحضور إليها في فرارا . فرجا منها أن تغفر له إذا لم يستطع أن يقدم لأسرته سوى الصلوات ، وقال إنه يشارك الأسرة بقلبه في آلامها ومسراتها ، وإنه قد ترك العالم لا لكي يخلص نفسه وحدها من الآلام ، ولكن لكي يخلص الناس جميعاً . وإن الناس يبكون لفراقه ويقدرونه هنا أكثر مما يفعلون في وطنه ، وإنه سيفعل من أجلها كل ما يستطيعه ، وإنه سيحضر إلى فرارا عندما يكون ذلك ضرورياً . ثم ارتحل إلى جنوا وإن كان التاريخ لم يحفظ لنا أخباره هناك .

ونعلم أنه ما لبث أن استدعاه رؤساؤه فجأة إلى فلورنسا في صيف سنة١٤٨٩ . ومن الغريب أن حدث ذلك بناء على رغبة لورنتزو العظيم . فعل لورنتزو ذلك لكي يرضي صديقه بيكو دلا ميراندولا ، الذي مرت به بعض الأوقات الحرجة العويصة . فمن ذلك أنه وقعت له فضيحة مع سيدة فلورنسية متزوجة ، هرب معها ثم أعادها إلى زوجها عندما شكا إليه حاله . وجرت أخبار تلك الحادثة على ألسنة أهل فلورنسا . واعتكف بعدها بيكو وسط كتبه . وبعد شهور حاول التوفيق بين الديانة المسيحية والفلسفة القديمة . ولم يرض ذلك البابا . فمنع آراءه من الذيوع . وأصدر ضده قرار الحرمان ، بعد أن أخذ بيكو ينقد حياة رجال الكنيسة

Twitter: @ketab_n

المخالفة لقواعد الدين . وحاول لورنتزو التدخل لمصلحة بيكو عند البابا . واضطربت نفس بيكو ، وأصبح في حاجة إلى مساعدة صديق يثق به من رجال الدين المخلصين . وتذكر في تلك الأزمة الراهب المخلص الذي عرفه في ردجو ديميليا . فطلب إلى لورنتزو استدعاءه من شمالي إيطاليا . وأكد له أنه سيكون مصدر شهرة له ولفلورنسا . وعلى ذلك استدعي إلى فلورنسا عدو آل مديتشي المقبل والعامل للقضاء على سلطتهم ، بناء على طلب لورنتزو ذاته ، الذي لم يتنبأ بما سيؤدي إليه ذلك من الأخطار ، ولم يدرك الشعلة التي وضعها بيديه في دير سان ماركو .

سارع ساڤونارولا إلى المدينة التي قابلته بعدم اكتراث ، وسار في الطريق الذي سلكه إليها من قبل . وشعر بقوة لا تقاوم تدفعه إلى مصير غامض مجهول . وكان الوقت صيفاً فأحس بالإجهاد والتعب ، ووقف في الطريق ولم يستطع متابعة السير . فخرج إليه رجل ساعده وأطعمه ووفر له بعض الراحة ، وصحبه حتى أبواب فلورنسا .

أعادت إليه أسوار فلورنسا ذكرى إخفاقه السابق . ووجد كل شيء في دير سان ماركو لم يتغير . ورأى الوجوه القديمة . ولم ينظر إليه أحد نظرة جديدة . ولم يشعر إنسان بالتغيير الذي طرأ عليه . وعاد إلى واجباته السابقة ، وإلى تدريس الرهبان الجدد . وأخذ يعظ تلاميذه وزملاءه في الدير .

ثم شاعت بين الناس أخبار اهتمام لورنتزو به واستدعائه إلى فلورنسا ، وبلغهم ما أثاره من الإعجاب خارج فلورنسا . فطلب بعض أهل فلورنسا حضور عظاته . فوعظ في حديقة الدير . وازداد الراغبون في الاستماع إليه . وكلما ازداد الناس حوله تشجع وزاد حماسة . وأخذ صوته في الارتفاع . وانتقد أخلاق العصر وفساد الكنيسة وموت العقيدة . وتكلم بحرارة وبساطة . وتدفقت منه الكلمات . وضاقت حديقة الدير بالسامعين . وأعلن أنه سيعظ الجمهور في السنوات القادمة .

وقف ساڤونارولا في كنيسة سان ماركو يعظ الجمع المحتشد الذي ضاق به المكان . ونادى بصيحة الحرب التي أعلنها في سان جيمينيانو من قبل . وتكلم بصوت مدو ، كمن يدافع عن حياته . وقذف بالكلمات ، ومسّ قلوب الناس ، وهدد وتوعد ، وصاح في الجمع المحتشد كمن يواجه هذه الكتلة البشرية الجامدة ، التي عارضته من قبل ، وأصمّت آذانها عنه ، ولم تحفل بشعوره ، لكي يخضعها عند قدميه ، ويلهبها بنيرانه ، ويرغمها على الإحساس بشعوره . ونجح نجاحاً عظيماً . وانتقم لإخفاقه السابق . وفتح أمامه الطريق المستعصي الوعر . وتحدث باسمه أهل فلورنسا . وأمسك أصحاب الدراسات القديمة عن الكلام في أفلاطون وأرسطو ، وأخذوا يتناقشون في مزايا هذا الراهب الجديد .

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع
بعض كتابات ساڤونارولا

المدارس الفلسفية في إيطاليا -كتاباته الفلسفية : ملخص في الفلسفة الخلقية -تصنيف العلوم -مهاجمته المبالغة في محاكاة القدماء ودعوته إلى تحرير العقل -اتجاه التفكير الديني -كتاباته الدينية : رسالة عن التواضع -رسالة عن الصلاة -رسالة عن حب يسوع المسيح -رسالة عن حياة الأرامل -اعتماده على الكتاب المقدس .

إن دراسة آراء ساڤونارولا الفلسفية والدينية في سياق الحوادث التي مرت به ، تساعدنا على فهم تاريخه . والارتباط وثيق بين تلك الآراء وظروف حياته . ومن المفيد أن نفهم ما هذه الآراء وما تعاليمه التي جاهد في سبيل نشرها .

لم يكن ساڤونارولا مبتكراً في الفلسفة ولم تكن له آراء جديدة بالمعنى المفهوم . وهو درس وأخذ عن مفكري القدماء ومفكري العصور الوسطى . وفي الوقت الذي عاش فيه ساڤونارولا كان أصحاب الدراسات القديمة ماضين في عملهم بنشاط عظيم . ودراستنا لكتابات ساڤونارولا الفلسفية والدينية توضح لنا مدى تأثره واقتباسه عن آراء القدماء ، كما تبين لنا إلى أي حد اعتمد على تفكيره الخاص في دراسة تلك الآراء ، وكيف استطاع أن يثير حماسة الناس ويجذبهم إليه بعض الوقت .

أدت حركة الإحياء في عصر النهضة إلى بعث المذاهب اليونانية القديمة كلها ، وتعصب فريق من المفكرين لكل منها . وفي ذلك الوقت كان في إيطاليا مدرستان فلسفيتان : المدرسة الأفلاطونية المحدثة ومدرسة أرسطو . فالمدرسة الأفلاطونية بدأت في فلورنسا بإنشاء الأكاديمية الفلورنسية ، كما رأينا ، وانتشرت بالتدريج

Twitter: @ketab_n

في جنوبي إيطاليا حتى وصلت إلى المثالية المتسامية عند جوردانو برونو[٢٥] . على حين انتشرت آراء مدرسة أرسطو في الشمال ، ولاسيما في جامعات بولونيا وبادوا وبافيا وفي كل إيطاليا العليا ، وكانت من العوامل التي شجعت منهج البحث التجريبي وأدت إلى تقدم العلم الطبيعي الذي وصل إلى أعلى مستوى له بظهور جاليليو جاليلي[٢٦] . وقد تأثر ساڤونارولا بآراء توماس أكويناس فيلسوف العصور الوسطى ، كما درس حياة القديسين والكتاب المقدس . ويضاف إلى ذلك ميله الطبيعي للزهد والتقشف ، كما استقرت في أعماق قلبه فكرة خلقية واضحة قوية ، جمعت بين هذه العناصر التي تأثر بها ، وكانت محور أفكاره وضوء حياته ووحدة وجوده .

كتب ساڤونارولا عدة رسائل فلسفية . منها « ملخص في الفلسفة »[٢٧] تناول فيه الماهيات والحركة والقوى المحركة الأولى والسماء وكون الأشياء وفسادها . ويتدرج في دراسة الطبيعة كلها بطريقة تصاعدية من الجماد إلى الإنسان . ووصف العالم كما وصفه أتباع أرسطو كحيوان ضخم له ثلاث نفوس كبيرة . النفس النباتية أو النامية[٢٨] ، والنفس الحاسة[٢٩] ، والنفس العاقلة أو الناطقة[٣٠] . وتكلم عن نظرية المعرفة فيقول إن الإنسان ينبغي أن يبدأ من المعلوم إلى المجهول عن طريق الإحساس . وهذا هو أسهل طريق للوصول إلى الحقيقة . والإحساس مصدر المعرفة وهويختزن في الذاكرة . ويحول العقل الإحساسات الجزئية المنفردة معاني كلية . وعلى ذلك فإن الحكمة الحقيقية تتجه نحو المبادئ والأسباب الأولى . وهذا الرأي مأخوذ عن أرسطو الذي كان يرى أن باب المعرفة الرئيسي هوالإحساس . وعنده أن « من فقد حساً فقد علماً » ومع ذلك فإن العقل لا يمكنه أن يحول الإحساس فكرة ، دون وجود معرفة عقلية سابقة وهي الحدس[٣١] . وبغيره يكون العقل غير قادر على تحصيل المعرفة ، وغير قادر حتى على فهم معاني الألفاظ . وهو متأثر في هذه الناحية بالأفلاطونية المحدثة . وعلى ذلك فإن أي فكرة أو مذهب يجب أن يقوم على الإحساس والحدس معاً . وهكذا حاول ساڤونارولا أن يبحث في مشكلة الفلسفة الأساسية[٣٢] .

وفي بحثه « ملخص الفلسفة الخلقية »[٣٣] نجد ساڤونارولا يتتبع خطوات توماس أكويناس[٣٤] مع آراء الأفلاطونية المحدثة . فيقول إن غاية الإنسان هي السعادة ، وهي لا تقوم كما يرى الفلاسفة الطبيعيون في عصر النهضة على العلم النظري ، ولكن على رؤية الله[٣٥] ، وفي هذه الدنيا لا يكون للإنسان إلا ظل خفيف من السعادة وفي الحياة الآخرة يمكن الإنسان أن ينعم بالسعادة الحقة في أكمل صورها .

Twitter: @ketab_n

ورأى ساڤونارولا في الفلسفة كما رأى في الدين ، ضرورة قيام الإنسان بالأعمال الصالحة لبلوغ السعادة . فالسعادة هي جزاؤها . ويقول إن الإرادة الحرة هي التي تفرق بين الإنسان و الحيوان . وهو لا يعترف كالكثير من معاصريه بأن إرادة الإنسان تتأثر بقوى خارجية . فهو يرى أنها لا تتأثر مثلاً لا بالكواكب ولا بالعواطف ولا حتى بالله ذاته . والخالق يجعل الكائنات تسير في نطاق قوانينها الطبيعية . والله يترك إرادة الإنسان حرة حتى لا يحطمها . ويرى ساڤونارولا أن الإنسان ينبغي أن يظهر في كلامه وأفعاله كما هو في الحقيقة ، إن لم يكن أقل من الحقيقة ، لا أكثر منها . وينبغي أن يكون في عنق كل إنسان أن يظهر الحقيقة لجاره .

أما «تصنيف العلوم»[٣٦] فهو بحث كتبه رداً على اتهامه باحتقار الفلسفة والشعر . فقسم العلوم وقال إنه يحترمها جميعاً بحسب موضع كل منها . ووضع تقسيماً واضحاً محدوداً أخذه عن تصنيف أرسطو وشراح الفلاسفة القدماء . فيقسم الفلسفة إلى قسمين : الفلسفة العقلية والفلسفة الوضعية . فالأولى مرشدة للعقل وهي المنطق . والثانية تبحث الماهيات الحقيقية ، وتنقسم إلى الفلسفة العملية والفلسفة النظرية . وتنقسم الفلسفة العملية بدورها إلى فلسفة آلية وفلسفة خلقية moral . وتنقسم الفلسفة الخلقية إلى فلسفة أخلاقية ethical[٣٧] واقتصادية وسياسية . كما تنقسم الفلسفة النظرية إلى علم الطبيعة والرياضيات وما بعد الطبيعة . ويرى ساڤونارولا أن علم ما بعد الطبيعة هوأشرف العلوم -وهذا هو رأي أرسطو- لأنه يبحث في الحقائق العليا ويعمل أكثر من أي علم آخر على ترقية الإنسان وجعله نبيل الأخلاق . ويعدّ هذا التقسيم تقسيماً من وجهة النظر الطبيعية . أما من وجهة النظر الدينية فيرى أن علم اللاهوت هو العلم الحقيقي الوحيد . وأن العلوم الأخرى تبحث مسائل خاصة من وجهة نظر خاصة ، في حين أن علم اللاهوت يبحث كل المسائل من وجهةنظر واحدة كلية ، وأن علم اللاهوت هو العلم الأول الذي يبحث الأشياء ويتتبعها حتى العلة الأولى . ولهذا لا يكفي نور الطبيعة وحده ، ولا بد إلى جانبه من نور السماء .

ولا يوافق ساڤونارولا على الإسراف في محاكاة القدماء . ويعدّ المقلدين أشخاصاً ضيقوا عقولهم وقيدوها بسلاسل الماضي ، حتى إنهم لا يقولون إلا ما قاله القدماء ، ويرفضون ما لم يقله القدماء[٣٨] . وفي العصر الذي أشاد فيه الناس بآثار القدماء رفع ساڤونارولا صوته ضد المبالغة في المحاكاة والتقليد . ودعا إلى استخدام الإنسان عقله وتفكيره الخاص . وبالرغم من أنه لا يُعدّ من أصحاب المذاهب الفلسفية المبتكرة ، إلا أنه كان في طليعة الذين حرّروا الفلسفة من تأثير

Twitter: @ketab_n

القدماء[٣٩] . ومنذ صغره لم يكن يحكم على الكتّاب بحسب شهرتهم ونفوذهم بين الناس ، بل كان يدرس المسائل التي تعرض له ويستخدم عقله وتفكيره . ومن الأمثلة على ذلك أنه بالرغم من تأثره بالفلاسفة القدماء فإنه عارض الفلسفة والفلاسفة . وانتقد واقعية أرسطو . وقال إنه لم ينجح في إثبات خلود النفس ، ولم يصل إلى نتائج حاسمة في مسائل كثيرة . وقد أظهر ساڤونارولا دقة في التحليل والاستنباط وأبدى حرية واستقلالاً في كل ما صدر عنه من الآراء والأحكام ، وناضل في سبيل الدفاع عنها إلى آخر لحظة من حياته .

ومن مميزاته تقديره للعقل والتجربة والضمير في المسائل العلمية والعملية على السواء . ولم يفرق في ذلك بين العلم والدين . ولم يكن كما فعل غيره من المعاصرين الذي كان لهم رأي خاص في الفلسفة ورأي مخالف في الدين . وكان بذلك من الممهدين السابقين لعصر جديد ، لم يكن قد انبثق نوره بعد .

أما ناحية كتاباته الدينية في ذلك الوقت ، فنلاحظ أن أهم مظاهر التغيير في عصر النهضة أن أصبح أساس المذاهب الفلسفية والدينية قائماً على محاولة التقريب بين الإنسان والله . وكان هذا الاتجاه الجديد مصدراً مهماً لحماسة المشتغلين بالفلسفة والدين . وعمل رجال الفكر ورجال الدين من أهل الجيل الجديد على إزالة أوجه التعارض بين الحياة على الأرض وحياة السماء ، وبين العقل الإنساني والطبيعة ، وعملوا على اتحاد المخلوقات بالخالق . وقد أدت حالة الشك وفوضى الأخلاق السائدة إلى أن يتجه بعض الناس إلى التفكير في الله وفي حياة الروح ، كوسيلة لإصلاح المجتمع وإنقاذ الإنسانية المعذبة . ووجد من الناس من تمسكوا بهذه الآراء ، ممن لم ترضهم أحوال المجتمع ، ودفعتهم مبادئهم إلى العمل على إيجاد حياة جديدة . وساعدت آراء المدرسة الأفلاطونية المحدثة وزعيمها مارسيليو فيتشينو على إذكاء ذلك الروح . فيه نادت بالاتصال بالله مباشرة ، وأعلنت أن ذلك هو غاية السعادة الإنسانية . وتغلغلت هذه الأفكار في أذهان بعض الناس ، في الوقت الذي بدا فيه سلطان المادية سائداً . وأخذ بعض أهل إيطاليا في نهاية القرن الخامس عشر يعقدون الأمل على قوة مثل هذه الأفكار والمبادئ لإصلاح المجتمع . وقد تشبع ساڤونارولا بهذه الآراء منذ حداثته ، وتملكت نفسه وأصبحت ناموس حياته . وأصبح أمله الوحيد الاتجاه نحو الله ، وعمل على أن يجعل الناس يشاركونه في ذلك الأمل . ويوضح ذلك الاتجاه كتاباته الدينية التي وضعها في حوالي ١٤٩٢ ، وهي مليئة بالحماسة الدينية . ويساعدنا عرض ملخصها على تقدير الأفكار التي استطاع بها ساڤونارولا أن يؤثر في الجماهير التي التفّت حوله في ذلك الوقت .

من كتاباته الدينية رسالة عن «التواضع»[٤٠] قال فيها إن فضيلتي التواضع والبر هما قوام الحياة الروحية في الإنسان . فينبغي أن يشعر الإنسان في قرارة

Twitter: @ketab_n

نفسه بالتواضع أمام الله . وبأنه لا يستطيع أن يفعل أمراً صالحاً دون إرادة الله ، وأن إرادة الإنسان حرة ، فينبغي إذاً أن يعمل بكل قوته على إبعاد الكبرياء عن نفسه ، وأن يكون متواضعاً أمام مَنْ هم أعلى منه وأمام نظرائه وأمام مَنْ هم أقل منه أيضاً . كما ينبغي أن يجعل حاضراً في ذهنه دائماً أنه لا يساوي شيئاً .

ويقول في رسالة عن «الصلاة»[٤١] إن الصلاة من الوسائل الفعالة التي تحفظ للإنسان صفة التواضع . فعلى المؤمن أن يتعبد كل يوم فترة طويلة . وينبغي أن يملأ قلبه تواضعاً وبراً ، وإلا كانت صلاته لا قيمة لها .

وفي رسالة عن «الصلاة العقلية»[٤٢] يقول إن على من يصلي أن يتوجه إلى الله كأنه في حضرته ، فهو موجود في كل مكان وفي قلب كل إنسان . وعلى ذلك ليس علينا أن نبحث عن الله على الأرض ولا في السماء ، ولكن في قلوبنا . وقد يهتم الرجل في صلاته بالكلمات التي تتردد على لسانه ، ولكن هذا شيء مادي . وقد يلقي بالاً إلى معاني كلماته ، ولكن هذه دراسة أكثر منها صلاة . وقد يركز أفكاره في الله مباشرة ، وهذه هي الصلاة الصحيحة . فينبغي ألا يهتم المؤمن في صلاته بالألفاظ والمعاني ولكن ينبغي أن يسمو بروحه عن شخصه ، وأن ينسى العالم وما حوله ، ويفنى في التفكير في الله . فالألفاظ غير ضرورية والكلام عائق ، والصلاة الحقيقية هي صلاة القلب والعقل . والله لا يعنيه مقدار الكلمات التي ينطقها المصلي بقدر ما يعنيه الروح الذي يسيطر على الفرد . فالحركات الخارجية والطقوس والشكليات لا قيمة لها . والله يريد العبادة الباطنية الخالصة[٤٣] .

وفي رسالة عن «حب يسوع المسيح»[٤٤] يتضح اتجاهه التصوفي بشكل أقوى . يقول : إن حب المسيح يدفع المؤمن لأن يجعل روحه متحدة بروح المسيح ، فيرغب في أن تحيا في شخصه تعاليمه ، وأن يلاقي ما لقيه المسيح من العذاب . ولهذا الحب قوة خارقة ، فهو يسيطر على نفس المؤمن ، ويجعله يشعر عند سيره على الأرض كأنه يطير في الهواء من فرط النشوة ، ويحس بسعادة لا توصف ، ويجعله يتلقى أنفاس الخالق التي تتغلغل في أعماقه ، فيشعر الإنسان المتناهي أنه يتحد بالخالق اللامتناهي ، عندما تصفو النفس ، وتتطهر من أدران الجسد وعلائقه[٤٥] . ونجح إلى حد كبير في إثارة الشعور الديني الكامن في نفوس الناس ، والذي كان قد غيرته تعاليم العصر الجديد ، واستطاع أن يثير في نفوسهم الحماسة الفياضة والنشوة الفائقة . وآمن أنه بهذه الوسيلة سينجح في تجديد العالم وإصلاح المجتمع الذي عاش فيه ، كما فهم طبيعة ذلك الإصلاح .

وله رسالة عن «حياة الأرامل»[٤٦] ، أثبت فيها بطلان الفكرة الخاطئة التي شاعت عنه بأنه عدو للحياة الزوجية ، وبأنه يسعى لإخضاع أهل فلورنسا جميعاً

Twitter: @ketab_n

لقواعد حياة الرهبان ، كما أوضح فيها رأيه السديد بالنسبة لزواج الأرامل . قال إن الأرامل كاليتامى يرعاهم الله بعنايته الخاصة . وإن أفضل ما يناسب حياتهن أن يزهدن في الدنيا ، ويعشن كالحمام الذي إذا ما فقد أليفه انزوى واعتكف ، ولم يتحدث إلى غيره ، وقضى بقية حياته في عزلة . والأرملة التي تمتاز بقوة الشخصية تصبح مثلاً أعلى لغيرها من النساء فتعيش وحيدة بعيدة عن الرجال . وتكون وقوراً مهيبة ، فلا يجرؤ أحد على أن يوجه إليها ابتسامة أو كلمة لا تليق . وهي تتولى برعايتها وعطفها أولادها وأحفادها . ولكن إذا ما اضطرت الأرملة بسبب تربية أولادها ، أو بسبب الفقر ، أو إذا لم تستطع مقاومة رغبات الجسد ، فعليها أن تعود إلى حياة الزواج المحترم . لأن هذا أفضل من أن تعيش محوطةً بالمعجبين الذين يعرضونها لأخطار لا حصر لها .

وقد أكسبته هذه الكتابات التي نشرت في ذلك الحين شهرة بين الناس . وأخذ نفوذه يقوى بالتدريج . وأحس بقوة آرائه وبثقته بنفسه . واعتقد أن له قوة الاتصال بالله مباشرة . ولكنه وجد أن توطيد نفوذه في الناس وإقناعهم بآرائه إقناعاً لا يساوره الشك ، والقضاء على الغرور الذي استولى على أهل العصر ، وجد أن تحقيق ذلك لا يمكن أن يتم ، لاسيما بالنسبة لقوم تعودوا أن يخضعوا لسلطة عالية ، بناء على التعاليم والمبادئ التي أخذ ينادي بها بين الناس ؛ وجد أنه لابد إلى جانب ذلك من قوة وسلطة عظيمة تؤثرفيهم وتسيّرهم نحو الخير ، وتعمل على تغيير أحوال المجتمع . واستمد تلك السلطة العظمى بطبيعة الحال ، من الكتاب المقدس . ذلك النبراس الذي سار على هديه ، والذي علمه وكوّن عقليته . ذلك العالم الحي الزاخر الناطق ، الذي صوّر له آثار الماضي ، وقرأ فيه أخبار الحاضر والمستقبل . ذلك الكتاب الذي كان عنده كلمة الله . وساءل نفسه : من ذا الذي يجرؤ على معارضة كلمة الله ؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس
ازدياد نفوذ ساڤونارولا في فلورنسا

مهاجمة ساڤونارولا مساوئ العصر -ساڤونارولا ولورنتزو -بييرو في فلورنسا واسكندر بورجيا في روما -انفصال المجمع الديني التسكاني عن المجمع اللمباردي -إصلاح دير سان ماركو -كلام ساڤونارولا في الحب -وفي حياة الأمراء ورجال الدين .

ساعدت كتابات ساڤونارولا الفلسفية والدينية التي طبعت في تلك الفترة على ذيوع صيته بين الناس ، وعملت على اجتذاب المثقفين الذين ظلوا مترددين بإزائه . واكتظ المستمعون إليه في كاتدرائية فلورنس[٤٧] حتى بلغوا ١٠,٠٠٠نفس . وقد أثار ذلك من غير شك قلق لورنتزو ورجاله . وعندما وعظ ساڤونارولا الناس في موسم الصوم الكبير في سنة ١٤٩١ ، تردد أول الأمر في مهاجمة مساوئ العصر مهاجمة صريحة حتى لا يثير غضب لورنتزو ، ولكنه لم ينجح في مقاومة رغبته الجامحة في التعبير عما يخالج نفسه . فندد في صراحة بجشع رجال الدين وحرصهم على جمع الذهب . وقال إن الفقراء مضطهدون مثقلون بأعباء لا قبل لهم بها . ومنهم من يطالب بأن يدفع ضرائب تبلغ ضعف دخله ، في حين أن الأغنياء لا يدفعون إلا مبالغ زهيدة .•وهم الذين يفرضون الضرائب تحقيقاً لمصالحهم الشخصية دون رعاية مصلحة الشعب . وإن الأرامل إذا جئن شاكيات باكيات أُمرن بالذهاب إلى النوم! وإذا اشتكى الفقير طلب إليه المزيد من الدفع! وهدد فلورنسا بأنها مقبلة على أيام لم تسمع بها من قبل .

وقد أثارت كلمات ساڤونارولا اهتمام مجلس السنيوريا في فلورنسا ، فدعاه

Twitter: @ketab_n

للاستماع إليه في القصر القديم في ٦إبريل سنة١٤٩١ . فتكلم ساڤونارولا بشجاعة قائلاً : « إن الشر والخير يأتيان في المدينة من الرأس . فعليه تقع المسؤولية حتى بالنسبة للخطايا الصغيرة . وإن الطغاة قوم لا يمكن إصلاحهم لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون النفاق والملق ، ولأنهم لا يردون الأموال التي اغتصبوها إلى أصحابها . وهم يتركون أمور الدولة في يد وزرائهم . ويشتدون على الفقراء ويتركون الأغنياء . ويطلبون أن يعمل لهم الفقراء والفلاحون بلا مقابل . ويشترون أصوات الناخبين . ويفرضون الضرائب التي تثقل كاهل الشعب . فينبغي أن تزيلوا أسباب الاستياء ، وأن تحققوا العدالة ، وأن تعملوا لخير الجميع » . وقد ازداد قلق لورنتزو من هذا الخطاب الجريء ، كما استاء بيكو دلا ميراندولا لأنه كان الرجل الذي أشار على لورنتزو بدعوة ساڤونارولا إلى فلورنسا . ووقف ساڤونارولا وجهاً لوجه أمام لورنتزو . وبدأ بينهما كفاح صامت خفي . وكان كفاحاً بين المبادئ وطرق التفكير وأسلوب الحياة العملية .

زادت هذه الشجاعة في شهرة ساڤونارولا ، وأعلت من قدره بين الناس ، فانتخب رئيساً لدير سان ماركو . وأعطاه هذا المنصب قوة واستقلالاً . ورفض أن يقوم بالزيارة التقليدية المفروضة على رئيس الدير الجديد للورنتزو . وعدّ أن اختياره لمنصبه يرجع إلى الله ، ولا فضل لأحد عليه . وحاول لورنتزو من ناحيته أن يسترضيه باللين . وملأ نفسه حب الاستطلاع والرغبة في رؤية هذا الراهب المتحمس الذي جاء يغزوه في عقر داره ، ولكنه لم يشأ أن يمس هيبته ويتقدم بدعوة ساڤونارولا إليه . أراد ملاقاته ولكنه ترك المسألة للظروف . فذهب لورنتزو عدة مرات للاستماع إلى عظات ساڤونارولا في دير سان ماركو ، وتوقع أنه هناك ملاقيه . وكان يمشي بعد الصلاة في حديقة الدير ، حذراً متطلعاً إلى لقائه دون أن يطلبه . ولكن ساڤونارولا لم يلتفت إلى وجوده ، ولم يستمع إلى إلحاح زملائه عليه ليخف إلى ملاقاة لورنتزو والحفاوة به ومرافقته في تجواله بالحديقة . وقال للرهبان في إباء : « إذا لم يطلبني لورنتزو فدعوه يذهب أو يبقى كما يشاء » .

وفي الواقع كان ساڤونارولا قاسياً في حكمه على لورنتزو . فهو لم يكن مسؤولاً عن خروج الناس على قواعد الأخلاق والدين . ولم يكن إلا واحداً ممن جاروا تيار العصر كما رأينا ، وكان لورنتزو من الناحية الخلقية يفضل غيره من الملوك والأمراء المعاصرين . وعلى كل حال فإن ساڤونارولا لم يكن يرغب في الاقتراب من طاغية عدّه محطم حرية فلورنسا ، والعقبة في سبيل نشر الحياة المسيحية بين الشعب ، واعتقد أن تجنبه ومهاجمته تكون من العوامل التي توصله إلى النجاح في القضية التي نصب نفسه من أجلها . وحاول لورنتزو أن يجرب وسائل أخرى لاسترضاء ساڤونارولا . . فأودع صندوق الدير كمية من الذهب .

Twitter: @ketab_n

ولكن ساڤونارولا لم يقبل ذلك ووزع الذهب على الفقراء . وقال إن الرهبان يكفيهم الفضة والنحاس دون الذهب . وعندئذ أيقن لورنتزو أنه أمام أرض وعرة غير صالحة لزرع الكروم .

وحاول لورنتزو أن يحمل ساڤونارولا على تغيير طريقته وموقفه في فلورنسا . فأرسل إليه بعض كبراء المدينة . قالوا له إنهم حضروا إليه من تلقاء أنفسهم ، ونصحوه بتجنب الحديث في السياسة وبالكف عن إثارة الشعب ، لأن ذلك سيؤدي إلى حدوث اضطرابات في المدينة . وأشاروا إلى الخطر الذي قد يتعرض له إذا هو أصر على مسلكه . فصاح فيهم قائلاً إنه يعرف أنهم مرسلون من قبل لورنتزو وسألهم أن يطلبوا إليه استغفار الله مما ارتكبه من الآثام ، وإنه لا يخشى النفي ولا ما هو أشد منه ، وإن التعاليم الجديدة سيكفل لها النجاح ، وسينهار النظام القديم ، وإنه سيبقى في فلورنسا ، التي سيرحل عنها لورنتزو ، وإن البابا وملك نابلي ولورنتزو ذاته قد أصبحت أيامهم قليلة .

أدرك لورنتزو إزاء ذلك كله ، خطورة الموقف ، الذي لم يكن يحسبه يصل إلى ذلك الحد . وحاول أن يلجأ إلى طريقة جديدة للقضاء على نفوذ هذا الراهب الدخيل الخطر . فعهد إلى الراهب ماريانو دا جناتزانو بأن يعمل على مقاومة نفوذ ساڤونارولا عن طريق الوعظ والخطابة . وكان الراهب ماريانو يتظاهر في ذلك الوقت بصداقته لساڤونارولا ، وهنأه بنجاحه في اجتذاب الجماهير إليه . ولكن عندما طلب إليه لورنتزو مهاجمة ساڤونارولا أظهر حقيقة شعوره نحوه . فخطب ماريانو الناس ، واتهم ساڤونارولا بأنه مدع للنبوة ، وأنه مسبّب الفوضى ومثير الشقاق بين الناس . ولكن لم يستهو هذا الكلام نفوس السامعين ، وازداد قدر ساڤونارولا في أعين أهل فلورنسا . وأصبح سيّد الموقف ، إذ باء ماريانو بالفشل وكفّ عن الوعظ والخطابة ، وهو الذي كان إلى عهد قريب أبرع خطباء إيطاليا . وحفظ ماريانو هذه الهزيمة في نفسه . وسيكون من العوامل الفعّالة في القضاء على ساڤونارولا فيما بعد .

مضى ساڤونارولا في وعظه وخطابته لا يوقفه شيء ، وأبدى حماسة هائلة في نقد بعض مساوئ العصر الشائعة . فهاجم القمار والمقامرين . وقال إنهم أسوأ من الكفار وهم لصوص جشعون قتلة مكروهون من الله . وسيلعن الله الرجل الذي يقامر أمام ابنه والمرأة التي تقامر أمام ابنتها . سيلعن الله المقامرين في المدينة وفي المزرعة وسيلعن ماشيتهم وأرضهم وفاكهتهم وقمحهم وأجسامهم . كما حمل على المرابين الذين يبتزون أموال الناس بالباطل ويرشون أصحاب السلطة لنيل مآربهم . وهددهم وتوعدهم باللعنة والخراب . ثم تكلم عن ميلاد المسيح ، وأثار شعور الناس بتنديده بما لقيه من التعذيب على أيدي اليهود . ومن الخطب التي جذب بها الجماهير في هذه الناحية قوله : « إبك يا قلبي . إبك يا نفسي . ياعينيّ أبكيا . ابكوا معي أيها الكبار

Twitter: @ketab_n

والصغار ، من نساء ورجال ، أغنياء وفقراء . . . ابكوا هذا الموت البشع ، ابكي أيتها الكواكب . ابكي أيتها الأرض . لتبك معي كل العناصر والمخلوقات على الموت الرهيب الذي لقيه منقذنا . . . استيقظ أيها المسيح . استيقظ على الصليب أيها السيد . أيتها العذراء المجيدة ، أيها القديسون الذين باركتهم الجنة ، ادعوا السيد المسيح أن ينصت إلينا . . . أنا لا أستطيع الكلام أكثر من هذا ، وليس عندي غير الدموع . . . » وتكلم ساڤونارولا ببساطة وحرارة ومن القلب إلى القلب . وشارك الناس في مشاعرهم وآلامهم . وكان هو الرجل الوحيد الذي ناضل بإخلاص في سبيل الدفاع عن الحق والعدل . ويعدّ ساڤونارولا بحق أول خطباء العصر الحديث .

كانت صحة لورنتزو آخذة في الضعف . فلجأ إلى قصره في كاريدجي على مقربة من فلورنسا في إبريل سنة ١٤٩٢ . وبذل أطباؤه جهدهم لتخفيف آلامه . ولكن بدون جدوى . وكانت أزهار الربيع تملأ المكان ، ونسمات كاريدجي تبعث الأنفاس عطرة ، وأشعة الشمس تلمس سفوح التلال الحمر ، على حين كان لورنتزو مسجى في فراش المرض ينتظر النهاية ، وحوله أصدقاؤه يبكون في همس . وكان يطلب إلى جانبه من وقت لآخر بيكو دلا ميراندولا وأنجلو بوليتزيانو . ومرت في خاطره حوادث الماضي . وفكر في الاعتراف في ساعاته الأخيرة . ولم ينتظر أن يمنع أحد عنه الغفران ، وهو الذي تعود الطاعة من الجميع . وتذكر الراهب ساڤونارولا الذي لم يستطع التغلب عليه ، فأرسل إليه يستدعيه . قال ساڤونارولا إنه لا فائدة ترجى من ذهابه لأن لورنتزو لن يستمع إلى كلماته . ولكن لورنتزو أصر على حضور الراهب الوحيد المخلص الذي عرفه في حياته . فسارع ساڤونارولا إليه . يقال إن لورنتزو طلب إليه أن يعفيه من بعض الأخطاء التي اعتقد في ساعة الموت أن له فيها نصيباً من المسؤولية ، وهي نهب مدينة فولتيرا ، والاستيلاء على أموال الفتيات القاصرات ، وبعض أعمال الانتقام التي حدثت عقب مؤامرة آل باتزي . فطلب إليه ساڤونارولا أولاً أن يعيش مؤمناً برحمة الله ؛ فوافق لورنتزو على ذلك . وثانياً أن يرد الأموال التي اغتصبها إلى أصحابها ، أو على الأقل يكلف أبناءه بأن يفعلوا ذلك ؛ فوافق لورنتزو . وثالثاً أن يعيد الحرية إلى شعب فلورنسا . فغضب لورنتزو وتألم . واستجمع قواه الباقية وأولاه ظهره دون أن ينطق بكلمة . فخرج ساڤونارولا دون أن يمنحه الغفران[٤٨] . ومات لورنتزو بعد ساعات . وكانت هذه الزيارة نصراً أدبياً لساڤونارولا . إذ عرفت أهل فلورنسا قدر ساڤونارولا عند لورنتزوالعظيم .

أحدث موت لورنتزو تغييراً كبيراً في أحوال تسكانا وإيطاليا . ولم يكن لابنه بييرو الذي خلفه في فلورنسا ملكات أبيه في إدارة شؤون تسكانا وفي حفظ التوازن في إيطاليا . واهتم بييرو بالرياضة واللهو ، وأهمل شؤون الحكم ، وقضى على بقايا مظاهر حرية الشعب التي حرص لورنتزوعلى الاحتفاظ بها ، وخالف السياسة

Twitter: @ketab_n

الخارجية التي اتبعها لورنتزو ، كما سنرى بعد . وبذلك فقدت فلورنسا بسرعة مركزها الممتاز في المجتمع الإيطالي . وأوجد ذلك حالة من السخط والتذمر بين كثير من أهل فلورنسا ، مما ساعد على إيجاد الجو الملائم لإحداث التغيير المنتظر .

ومات في ذلك الوقت أيضاً البابا أنشنتو الثامن . وخلفه اسكندر بورجيا الأسباني الأصل ، الذي اشتهر قبل وصوله إلى كرسي البابوية بالجشع في جمع المال وبصلاته بالأتراك والمغاربة واليهود ، غير عابئ بتقاليد البابوية . كما عرف بالحياة الإباحية التي عاشها ، فكان دائماً عبداً لإحدى النساء . وأخذ ينشط في جمع الأموال من أملاكه ، وعمل على تحقيق أطماعه ومصالح أبنائه وأقاربه ، مما لا يناسب رجال الدين فضلاً عن رأس الكنيسة الأعلى . وكان لذلك أثر سيئ في نفوس كثير من الناس ، فتطلعوا إلى ساڤونارولا لتخليصهم من ذلك الحال .

كان ساڤونارولا قد استغرق في التفكير في أحوال فلورنسا ومساوئ العصر ، حتى أنه أخذت تظهر له رؤى مبعثها الإيمان العميق والرغبة الصادقة في إصلاح المجتمع . فمن ذلك أنه رأى ليلة سيفاً مصلتاً من السماء ، وسمع أصواتاً تعد الرحمة للمحسن ، وتهدد بعقاب الأدنياء وتعلن أن غضب الله قريب . واتجه السيف إلى الأرض ، وأظلمت السماء ، وتساقطت منها سيوف وسهام ونيران ، وأصبح العالم طعمة للحرب والمجاعة والوباء . وانتهت الرؤيا بصوت يأمر ساڤونارولا بأن يعلن ما رآه للناس ، وأن يدعوهم إلى خشية الله ، ويحضهم على اتباع الحياة الطيبة الصالحة .

لم يكن لبييرو صبر لورنتزو . فلم يستطع أن يتحمل وجود ساڤونارولا على الدوام في فلورنسا . فطلب إلى رؤسائه إبعاده عن المدينة ولو بعض الزمن . ثم حاول أن يبعده عن فلورنسا نهائياً ، ولكنه لم يفلح في ذلك . وقام ساڤونارولا ببعض الرحلات فزار البندقية وبيزا ، ووقف في بولونيا فترة أطول في موسم الصوم الكبير في ١٤٩٣ . وتقاطر أهل بولونيا لسماع صوته المدوي . وعندما كانت زوجة بنتيفوليو طاغية بولونيا تدخل متأخرة إلى عظاته وتحدث ضوضاء في أثناء سيرها هي وأتباعها ، لم يمتنع ساڤونارولا عن التنديد بسوء تصرفها بكلمات قاسية أمام الناس . ولم يعبأ بما أمكن توجيهه إلى شخصه من التهديد . وقال إنه واثق من أنه لن يموت في بولونيا .

وعندما رجع ساڤونارولا إلى فلورنسا وجد أن أغلب أهلها قد ازداد سخطهم لسوء تصرف بييرو دي مديتشي . وبينما كان يفكر في هل يلزم الصمت زمناً ما أو يستمر في كفاحه ، تذكر مسألة لو تمت لتوطدت سلطته في فلورنسا ولما تعرّض للنقل والإبعاد بسهولة . وذلك أن المجمع التسكاني الديني كان قد ضم إلى المجمع اللمباردي عندما نقص عدد الرهبان بسبب الطاعون في ١٤٤٨ . ولكن لم يكن

Twitter: @ketab_n

هناك ما يمنع الآن من عودة كل من المجمعين إلى استقلاله السابق . ولو تم هذا الاستقلال لأصبح ساڤونارولا مستقلاً في تسكانا . وكان يعارض ساڤونارولا في ذلك دوق ميلانو ورجال المجمع الديني اللمباردي وملك نابلي والبابا ذاته . ونجح ساڤونارولا في أن يجتذب بييرو إلى جانبه في هذه الناحية . وسرعان ما غير بييرو موقفه من ساڤونارولا . وكان من طبعه التغير والتناقض . ومن المحتمل أنه فعل ذلك لكي يعارض لودوفيكو دوق ميلانو ، أو لكي يكسب قلوب رهبان سان ماركو ، فيكفوا عن مهاجمته . وأرسل ساڤونارولا رسله إلى البابا في روما . وبذل الجانبان ما استطاعا من وسائل الإغراء ومحاولة التأثير لتحقيق غرضهما . وبدا الأمر عسيراً . وأخيراً استطاع كاراڤا كاردينال نابلي وحامي نظام الدومنيكان والذي كان يقدر ساڤونارولا ، أن يؤثر في البابا في جلسة خاصة . حدثه الكاردينال كاراڤا في مسائل متنوعة ، وانتهز فرصة ملائمة ، وأخرج من جيبه صيغة الأمر الذي يقضي بفصل المجمع التسكاني عن المجمع اللمباردي ، ووضعه أمام البابا على منضدة . وطلب إليه أن يبصمه . فضحك البابا وهز رأسه . وضحك الكاردينال . وأمسك بيد البابا وأخذ الخاتم من إصبعه ، وهو مستمر في ضحكه ، وبصم القرار . وبذلك تمتع دير سان ماركو باستقلاله . ولكن هذاالاستقلال الذي أعطى الحرية لساڤونارولا وقوى مركزه في فلورنسا ، كان من شأنه أن يجعل الأخطار تدنو منه رويداً رويداً .

وما إن أحس ساڤونارولا بسلطته الجديدة ، حتى أخذ يعمل على تنظيم دير سان ماركو . فقام بطائفة من الإصلاحات العملية الحاسمة . وباع أغلب ممتلكات الدير ، وقال إن الرهبان ليسوا في حاجة إلى امتلاك أي شيء ، حتى صوامعهم وملابسهم . فكلها ملك شائع بينهم جميعاً . وحمل الرهبان على العيش الخشن المتقشف . وحتم عليهم أن يعملوا للعيش بكدهم وجهدهم . وقسمهم جماعات حسب ملكاتهم . ففريق يؤدي الأعمال اليدوية ، وفريق يقوم بالشؤون الدينية . وأنشأ مدرسة يعلم فيها الرهبان التصوير والنحت والعمارة ونسخ المخطوطات . كما عمل على تنشيط دراسة العلم الإلهي والفلسفة والأخلاق ، ودراسة الكتاب المقدس ، واللغات الشرقية ، وبخاصة اليونانية والعبرية والتركية .

وفي موسم صوم الميلاد في ١٤٩٣ تابع ساڤونارولا عظاته وتكلم في ذلك الموسم خمساً وعشرين مرة . فعرض بعض آرائه وندد بمعيشة الأمراء ورجال الدين ، مكرراً بعض ما سبق الكلام فيه . قال : إن الإيمان منحة من الله ، وهو ضوء يهبط من السماء إلى قلب الإنسان ويتوب المخطئ ويدخل في نور الله بإرادة الله . ومن الأمثلة التي ضربها على ذلك قصة ماريا المجدلية التي أوغلت في حياة الفسوق ، ولم تنصت لنصائح أختها مارتا . ولكن عندما مسها الله بنوره ، هب ضميرها النائم ، واستيقظ قلبها الآثم ، وأسرعت إلى المسيح تبلل قدميه بدموعها

Twitter: @ketab_n

الحارة . فالله قد أحبها وخلصها من آثامها وخطاياها ، وعاشت حياة الطهر والتبتل . ثم قال ساڤونارولا إنه ينبغي ألا يلعن الإنسان الآثمين ، ولكن يلعن آثامهم .

وتكلم ساڤونارولا عن الحب الذي قوامه البر والرحمة والعمل الصالح ، فقال : إن الحب هبة من الله . وهو نار تشعل كل الأشياء الجافة ، ويتغلغل في قلب كل من يتعرض له فيشعله . وهو قوة هائلة تقوم بالعجائب ، وتتغلب على كل العقبات ، وهو قانون القوانين ، ومقياس كل الأفعال الإنسانية . ولا يمكن أن يؤدى أي عمل صالح بغير الحب . فالطبيب الذي يحاول أن يشخص داء المريض ويصف الدواء ، ويعدّه بنفسه ، ويعمل على تخفيف آلام المريض بكل الوسائل ، ويتحمل في سبيل ذلك مصاعب شتى ، لا يفعل ذلك بغير دافع من الحب الإنساني . ولو كان قصده مجرد الربح المادي لما عني بالمريض إلى ذلك الحد . والأم التي لم تكن لها تجربة سابقة بإنجاب الأولاد وتربيتهم ، من الذي يعلمها العناية بطفلها ؟ هو الحب الذي يجعلها تتحمل من أجله المتاعب والآلام راضية ، وتنسى ما تعانيه في سبيله عندماتراه يبسم لها .

أما الأمراء فيقول إنهم أدنياء سفلة يعيشون في قصورهم ، وينعمون بملاذهم ويمتصون دماء الشعب . وبلاطهم بؤرة للوحوش من كل نوع ، الذين يهرعون إلى قصور الأمراء لكي يشبعوا لذاتهم الوضيعة . فهناك الفلاسفة والشعراء المنافقون ، يمدحونهم ويتغنون بمجدهم الكاذب وبثرواتهم الزائلة ، ويرجعون بأنسابهم إلى الآلهة . كما يحمل على رجال الدين فيقول إنهم يضيعون وقتهم في الحديث عن أرسطو وأفلاطون وفرجيل وبتراركا ، ولا يهتمون بخلاص النفوس . وبدلاً من أن يتناولوا كل هذه الكتب لماذا لا يعرضون الكتاب الوحيد الذي هو قانون الحياة وروحها ؟ . . . والناس في أيامنا هذه يحملون على الكبرياء والطمع مع أنهم غارقون فيهما إلى أعينهم . وهم ينادون بحياة الطهر والورع ، مع احتفاظهم بالعاهرات من النساء . ويحضون الغير على الصوم ، وهم يتناولون أشهى الأطعمة! . . . إن الشيطان يغوي الفتاة العذراء بأن يضع في طريقها شاباً مليحاً يعمد إلى خداعها وغوايتها ، ثم يتركها تعض أنياب الندم ، بعد أن يقضي منها مأربه . ويدفع الشيطان أيضاً الرجل الصالح إلى بلاط الأغنياء ، فيبهره ما يراه في ذلك المجتمع الصاخب ، ويجرفه تيار الغواية العنيف . وكذلك يسدد الشيطان ضرباته إلى رجال الدين أنفسهم ، فيجعلهم يحيدون عن الطريق القويم ، برغم ما تذرعوا به من تعاليم الدين . وهم أصبحوا يعظون لإدخال السرور على نفوس الأمراء ، ولكي ينالوا منهم العطاء والمجد ، لا لكي يبثوا تعاليم الأخلاق والدين بين الشعب . وهم قد حطموا الكنيسة الصحيحة وشيدوا بدلها كنيسة باطلة ملوثة وأخضعوا الكنيسة للمنجمين واحتفظوا بالمظاهر والطقوس وحدها .

Twitter: @ketab_n

وفي موسم الصوم التالي في ١٤٩٤ تكلم ساڤونارولا عن سفينة نوح والتجاء الصالحين إليها لتجنب الطوفان . وأطال الكلام عنها . وأحس كأن قوة عليا تدعوه إلى الإبطاء . واشتد تزاحم الناس لسماع كلماته في كاتدرائية فلورنسا . ودوى صوته كالرعد . قال : إن الله سيسلط عقابه على البلاد ، وإنها ستتعرض للغزو . فارتعدت فرائص الناس . ومرت بقلوبهم قشعريرة باردة عندما سمعوا كلماته الملتهبة . وعلى غير انتظار ، وكصاعقة انقضت من السماء ، جاءت الأنباء قائلة إن سيلاً من الغزاة الفرنسيين يتدفق على إيطاليا من جبال الألب . فشخصت أبصار الإيطاليين إلى الرجل الذي تنبأ بهذا الخطر ، والتمسوا عنده النصح ، وأملوا لديه الخلاص . وفي لمحة عين ، وبقوة كالسحر أصبح أتباع ساڤونارولا أصحاب السيطرة في فلورنسا .

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس
الغزو الفرنسي لإيطاليا

إشارة إلى ظروف أوربا وإيطاليا -أحوال فلورنسا -شارل الثامن يدخل إيطاليا -استسلام بييرو دي مديتشي - مجلس السنيوريا يدرس الموقف -إرسال وفد إلى شارل من أعضائه ساڤونارولا -ثورة بدون دماء -ساڤونارولا لا يقابل شارل -شارل في فلورنسا -مشاغبات -عقد اتفاقية -رحيل شارل عن فلورنسا وتأثير ساڤونارولا .

شهدت أوربا في أثناء القرن الخامس عشر نمو سلطة الحكومات الملكية ، ونشأة الدول القوية المتحدة ، التي أحاطت بإيطاليا الضعيفة من كل ناحية . فكان الأتراك العثمانيون قد وصلوا إلى السيطرة على البلقان بقواتهم الحربية الممتازة ، وأخذوا يهددون إيطاليا وغرب أوربا في البر والبحر . وأصبحت أسبانيا دولة قوية بعد أن أتمت وحدتها القومية وطردت بقايا العرب من شبه الجزيرة ، وبعد أن أخذ كولمبوس يفتح الطريق نحو عالم جديد غني وراء المحيط . وكانت فرنسا دولة قوية موحدة ، قوي فيها نفوذ الملك على حساب أمراء الإقطاع ، وكان لها جيش قوي يتطلع إلى العمل . وألمانيا ولو أنها كانت ضعيفة ظاهرياً ، إلا أنها كانت تملك قوة حربية آخذة في الازدياد بالتدريج . كما كان السويسريون جنوداً أشداء ، واقفين على حدود إيطاليا ، مستعدين أن يعبروا الألب لمن يدفع أجورهم . وتطلع كل هؤلاء لغزو إيطاليا . وستؤدي الظروف إلى أن تصبح إيطاليا ميدان حرب ومسرح قتال للجنود الأجانب ، وستصبح السيطرة على إيطاليا من الأسس التي ستقوم عليها السياسة الأوربية الدولية زمناً طويلاً .

وساعدت ظروف إيطاليا ذاتها على إيجاد تلك الحالة . فهي كانت مهد حركة

Twitter: @ketab_n

النهضة ومركز الغنى والثروة . وقد أثار ذلك شعور الغيرة في قلوب الأوربيين نحو إيطاليا . ووجدوا أنه ليس من المناسب أن تظل إيطاليا محط أنظار الجميع ، وأن تبقى مقصد الطلاب الذين يهرعون إلى جامعاتها من كل أنحاء أوربا ، وأن تظل المركز الوحيد للفنون والعلوم والآداب ، وأن تدرس لغتها ، وتحتذى عاداتها في بلاط الملوك والأمراء في أوربا ، وأن يعرف الكتاب والفنانون والأطباء والفلاسفة والفلكيون والملاحون والتجار والأمراء الإيطاليون بتفوقهم على نظرائهم في أوربا . ومن هنا نفهم شعور الإعجاب الممزوج بالكراهية الذي أحسه الأوربيون نحو إيطاليا في ذلك العصر .

وفي الوقت نفسه كانت حال إيطاليا الحربية لا تتناسب مع مركزها الثقافي الممتاز . فالإيطاليون الذين كانوا أول من وضع فن الحرب الحديث ، وعلموا أوربا الخطط الحربية الحديثة ، وقابلوا القوات الأجنبية بشجاعة نادرة ، كانوا قد زالوا من الوجود . وعندما عكف الإيطاليون على مسائل الفن والأدب والحضارة ، أهملوا العناية بشؤون الحرب ، وعهدوا إلى المرتزقة بالقيام عنهم بأعمال الحرب في الدفاع والهجوم . وبذلك أصبحت إيطاليا ضعيفة من الوجهة الحربية . وعندما لم تعد إيطاليا قادرة على غزو أوربا ، أصبحت هي هدفاً للغزو الأجنبي . وتطلع الأوربيون لثروتها وفنونها وعلومها ومبانيها .

أما من الناحية السياسية فكانت إيطاليا مقسمة إلى ولايات مستقلة ، كما نعرف ، ساد بينها التنافس والصراع الداخلي الدائم . وأدى ذلك إلى ضعف جميع تلك الولايات . ولم تستطع قوة بعينها أن تتغلب على أسباب النزاع وتوحد شبه الجزيرة . ووجد الأجنبي في هذا الانقسام الداخلي فرصة لاستغلال الموقف . فكان من الحتم إذاً ، بعد أن تهيأت كل تلك الأحوال المواتية ، أن تصبح إيطاليا مسرحاً للغزو الأجنبي في أواخر القرن الخامس عشر .

وإذا نظرنا إلى فلورنسا بخاصة ، وجدنا أن الظروف الجغرافية قد لعبت دوراً مهماً في تحديد مصيرها . فهي كانت دولة غنية ، وضعيفة ، ومحوطة بحلقة من الإمارات التي تنافسها ، وهي : أملاك البابوية والبندقية وميلانو . وكان البابوات مهتمين بتوطيد سلطانهم الدنيوي . وذلك مما يهدد فلورنسا ، التي كانت تناخمها أملاك البابوية من ناحية الجنوب . وفي الشمال الغربي كانت البندقية ، بالرغم مما أصابها من الضعف ، لا تزال أقوى وأغنى من فلورنسا . وهي بعد أن تحول طريق التجارة العالمية من الشرق الأدنى إلى جنوبي إفريقيا ، وبعد أن وقف أمام سفنها الأتراك العثمانيون في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، تطلعت إلى النمو والاتساع في الأرض الإيطالية ذاتها ، وذلك مما يهدد جيرانها حتى فلورنسا . وفي الشمال كانت ميلانو ، تحت حكم آل سفورتزا ، تعاني اضطرابات داخلية . واستطاع

Twitter: @ketab_n

لودوفيكو أن يغتصب السلطة من ابن أخيه جالياتزو . وهدد ملك نابلي لودوفيكو بالقتال ، مما أوجد ذلك حالة من الاضطراب في إيطاليا .

وأظهر لورنتزو العظيم ، في هذا المعترك الصاخب ، مهارة وقدرة على تصريف الأمور ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل . ووجد أن السلام لا يمكن أن يستقر في إيطاليا ، وأن مصلحة فلورنسا لا تتحقق إلا بالمحالفات السياسية . ومحالفته لنابلي في ١٤٨٠ كان من شأنهاأن تخفف من ضغط البابوية عليه . على حين منعت عنه محالفته لميلانو ، خطر البندقية . وكان لورنتزو يميل أحياناً إلى هذا الجانب أو ذاك ، لكي يحفظ التحالف قائماً . وبذلك أوجد حالةمن التوازن كان من شأنها أن تعمل على إبعاد خطر الحرب عن فلورنسا وإيطاليا إلى أبعد وقتٍ ممكن .

ولكن لم يكن لابنه بييرو من بعد النظر ما يجعله يتبع الطريق نفسه . واتبع سياسة خرقاء . فأخذ يتآمر مع نابلي على ميلانو ، وكان الأحرى به أن يوطد علاقاته مع ميلانو لمحاولة الوقوف في وجه الغزاة الأجانب . وكان ذلك من العوامل التي دفعت ميلانو إلى أحضان السياسة الفرنسية . وبناء على ذلك ستطلب نابلي المساعدة من إسبانيا . وسيصبح الفرنسيون والإسبان فيما بعد ، غزاةً في الأرض الإيطالية .

حكم فرنسا في ذلك الوقت شارل الثامن . وكان شاباً في الثانية والعشرين من العمر ، ضعيف البنية وجسمه غير متناسب ، وتفكيره غير ممتاز ، ولكنه كان صاحب خيال وأطماع واسعة ، تجري في عروقه دماء أجداده من الملوك الغزاة الفاتحين . وتطلع إلى أن ينال مجد سان لويس وشارلمان . وفكر في أن يثير حرباً صليبية جديدة على الأتراك العثمانيين . وكانت السيطرة على إيطاليا وعلى نابلي بصفة خاصة ، أول خطوة في سبيل تحقيق ذلك المشروع العظيم ، إذا ما تهيأت له الفرصة في المستقبل . فضلاً عن أنه كانت هناك أطماع للتاج الفرنسي في نابلي ، عن طريق بيت أنجو ، الذي حكم نابلي فترة ، ثم أقصي عنها .

وقد توالت على شارل الثامن الدعوات من إيطاليا ذاتها ، للتعجيل بتنفيذ الحملة الإيطالية . فأرسل إليه لودوفيكو سفورتزا عدة سفراء لذلك الغرض ، بعد أن أصبح يخشى تهديد فردناند ملك نابلي ، ولا سيما بعد أن مالت فلورنسا إلى جانبه . وأبدى اسكندر بورجيا ترحيبه بالحملة ، ورأى في ذلك وسيلة لكبح جماح ملك نابلي . ولكن البابا لم يثبت على رأيه . ونجح ملك نابلي في استمالته إليه . على حين نجد كردينال سان بييرو دي فنكولي[١٩] عدو اسكندر الألد يحرض شارل على تنفيذ مشروعاته في إيطاليا . وكذلك اجتمع حول شارل بعض أمراء نابلي الخارجين على ملكها ، وحرضوه على ضرورة الإسراع بالقيام بعمل حاسم .

أضف إلى ذلك أن شارل كان في يده جيش عظيم ، وكانت قوته الرئيسية

Twitter: @ketab_n

تعتمد على فرق المشاة ، الذين يتحركون في مجموعات كبيرة مركزة ، دقيقة التدريب ، وتستطيع أن تقوم بأعمال بارعة سريعة . ووجد إلى جانبهم الفرسان وهم مكونون من نبلاء فرنسا ، ويضمون إليهم زهرة فرسان اسكتلندا . واستخدم الجيش الفرنسي أحدث الأسلحة ومنها المدافع ، التي كان يمكن تحريكها بسرعة سير المشاة . وبلغت قوة جيش شارل نحو ٤٦٠٠٠ من المشاة والفرسان . ولم يكن من السهل أن يظل هذا الجيش المدجج بالسلاح راكداً بلا عمل . فكان يتحفز للوثوب عند أول إشارة .

ومن ناحية أخرى ، وبالرغم من هذه الظروف كلها التي كانت تمهد للحرب ، عارض أصحاب الرأي من رجال فرنسا مشروع الحملة الإيطالية . وقالوا للملك إنه لا يمكن الاعتماد على حلفاء من أمثال لودوفيكو المزعزع أو اسكندر المتقلب . وإن الخزينة الفرنسية لا تتوافر بها تكاليف الحملة . وكذلك لم يكن رجال فرنسا واثقين بمقدرة شارل على قيادة مثل هذه الحملة من الناحية الحربية . ولكن هذه المعارضة لم يكن لها التأثير المطلوب . وصمم شارل على تنفيذها . ولتحقيق ذلك حاول شارل أن يأمن جانب إسبانيا ، حتى لا تهاجمه في المؤخرة ، فأرجع لها بعض المناطق حدود البرانس ، التي كان قد كسبها لويس الحادي عشر من قبل .

وفي تلك الظروف أعلن ساڤونارولا صداقته للفرنسيين ، معارضاً بذلك سياسة بييرو دي مديتشي . وسيكون للغزو الفرنسي بقيادة شارل أثر مهم في حياة ساڤونارولا . وظهر شارل كنجم مفاجئ ، فتح عالماً جديداً في إيطاليا ، قام فيه ساڤونارولا بدور عملي . وبذلك ستتاح له الفرصة ، لكي يخرج من ميدان الوعظ والخطابة ، إلى ميدان الواقع العملي . وخطرت لساڤونارولا فكرة شارل لمحاولة إعادة مجد المسيحية في الشرق . وفي أغلب أنحاء إيطاليا ، كان أصدقاء الحرية يتطلعون إلى قدوم الفرنسيين . وطبيعة أهل إيطاليا المستسلمة ، وعنصر التغير وتوقع المجهول في أخلاقهم ، جعلهم يأملون الخلاص من حكم الطغاة على أيدي الفرنسيين .

وبعد فترة تردد أصابت شارل ، بدأ الحملة الإيطالية في أغسطس سنة١٤٩٤ . ولقيه عند الحدود لودوفيكو سفورتزا . وتمكنت القوات الفرنسية من إحراز انتصارات سريعة . فأوقف الجنرال دوبيني قوات ملك نابلي الزاحفة شمالاً في إقليم رومانيا ، وقضى عليها . وفي جنوا استطاع دوق أورليان أن يضرب بأسطوله المحتشد قوات ملك نابلي المتجمعة في تلك المنطقة ، وأرغمها على الانسحاب . وانتصر الفرنسيون أيضاً على قوة أخرى لملك نابلي عند رابالّو . وأصبح الجيش الفرنسي مصدراً للرعب في إيطاليا ، ولم يلاق الفرنسيون أي عائق في سبيل تقدمهم . ثم زحفت القوات الفرنسية في أراضي تسكانا . ولم يكن لبييرو دي

Twitter: @ketab_n

مديتشي الشجاعة الكافية للصمود في بعض قلاعه الحصينة ، التي كان يستطيع منها بسهولة أن يكلف الفرنسيين خسائر فادحة على الأقل . وهزمت القوات الفرنسية بعض جنود بييرو . فسُقِطَ في يده . وعدّه شعب فلورنسا مسؤولاً عن غزو الفرنسيين لبلادهم . ووجد أن لا سبيل للخلاص بغير الذهاب إلى شارل بنفسه للمفاوضة ، آملاً في الحصول على صلح شريف . ولكن شارل قابله بفتور . واضطر بييرو إلى تسليم قلاع سارتزانا وسارتزانلو وبيتراسانتا إلى شارل ، وتعهد بدفع مبلغ كبير من المال ، وتقرر أن يحتل الفرنسيون بيزا وليفورنو حتى تنتهي الحرب في إيطاليا . وبذلك أصبح شارل مسيطراً على أراضي تسكانا .

ما كادت تذاع أنباء استسلام بييرو لشارل على ذلك النحو ، حتى سخط أهل فلورنسا ، وأخذوا يتجمعون في الشوارع والميادين ، وحملوا ما وصل إلى أيديهم من الأسلحة ، وساد فلورنسا شعور عام بعدم الثقة بمصير الحوادث . ولم يكن لآل مديتشي قوة حربية يمكن الاعتماد عليها ، ولم توجد بفلورنسا سلطة فعلية تسيطر على الموقف ، وهددت المدينة ثورة جامحة . وكان ساڤونارولا هو الشخص الوحيد الذي له سلطان على نفوس الناس . فتطلع إليه الجميع لإيجاد سبيل للنجاة من الأخطار .

خرج ساڤونارولا من عزلته وخاطب الناس قائلاً : «انظروا هذا سيف الله مصلتاً فوق رقابكم ، هذه تنبؤاتي قد تحققت وبدأ عقاب الله . . . أيا فلورنسا لقد انتهى زمن الغناء والرقص . هذا وقت سكب الدموع من أجل خطاياك . خطاياك يا فلورنسا وخطاياك يا روما وخطاياك يا إيطاليا هي التي جلبت هذا العقاب الآن . فأعلنوا بندمكم وصلوا لله وكونوا متحدين . أواه يا شعبي! كنت لكم أباً زمناً طويلاً . وقد عملت في كل أيام حياتي لكي أعلمكم حقائق الإيمان ، ولكن لم ألق غير السخرية . . . لطالما صرخت من أجلك يا فلورنسا وبكيت . . . اصفح أيها الرب عن شعب فلورنسا . . .» وكان صوت ساڤونارولا كالسحر ، فهدأت النفوس ، ولم تحدث قلاقل ، ولم تسفك دماء .

عقدت حكومة فلورنسا اجتماعاً خاصاً لدرس الموقف . ومع أن كل أعضائها كانوا ممن عينهم آل مديتشي ، إلا أنهم نظروا في اجتماعهم على ضوء الحوادث الجارية . وكان المتبع ألا يتكلم أي عضو دون أن يدعي للكلام ، وكان عليه أن يوافق على ما يعرض عليهم . ولكن الموقف الدقيق الذي كانت تجتازه فلورنسا جعل الأعضاء لا يتقيدون بهذه التقاليد . فوقف أكثر من واحد يعرض ما وصلت إليه أحوال فلورنسا من سوء . وأخيراً وقف بييرو كابّوني فقال : «إن بييرو دي مديتشي لم يعد يصلح لحكم الدولة . وينبغي أن تتخذ حكومة الجمهورية ما يكفل تحقيق مصالحها . وقد حان الوقت لإزالة هذه الحكومة الصورية . ولنرسل سفراءنا

Twitter: @ketab_n

إلى الملك شارل ، وإذا قابلوا بييرو في الطريق فعليهم أن يمروا به دون تحيته . ولندعهم يوضحون أنه سبب كل هذا الشر الحادث ، وأن المدينة حسنة النية نحو الفرنسيين . لنرسل رجالاً محترمين للترحيب بالملك . وليدع في الوقت نفسه كل الضباط والجنود من كل مكان . وليستعد كل الرجال للقتال إذا اقتضى الأمر ذلك . وإذا ما فعلنا ما نستطيع نحو هذا الملك . . . فلنكن مستعدين لأن نواجهه ونقاومه بشدة إذا ما عاملنا ، بالقول والعمل ، بأكثر مما يتسع له صبرنا . وفوق كل شيء ينبغي ألا ننسى إرسال الأب جيرولامو ساڤونارولا بين أعضاء الوفد ، لأنه قد كسب حب الشعب » .

وعندما رأى بييرو دي مديتشي وفد فلورنسا قدم على شارل في بيزا ، دون أن يعيره أي التفات ، أدرك أن هناك تغييراً خطيراً قد حدث . فحاول جهده أن يكسب معاضدة الملك ، وأمر بجمع ما يستطاع جمعه من الجند واتجه نحو فلورنسا . وأراد أن يدعوالناس إلى برلمان كان قد عرف نياته ، فلم يسمح له بدخول قصر الحكومة إلا مع عدد قليل من أتباعه . وقابله أعضاء المجلس بفتور ، ونصحوا له بأن يسرح جنده ، لكي يجنب نفسه وفلورنسا عواقب الدخول في صراع عديم الجدوى . وقد ارتبك بييرو لهذه المقابلة المفاجئة ، وانسحب لكي يجمع أمره ويعود من جديد لكي يفرض إرادته بالقوة . وبعد أن أصدر بعض التعليمات لجنده ، عاد مرة أخرى إلى مجلس السنيوريا ، وسمح له أعضاؤه بالدخول منفرداً ومجرداً من السلاح . فأخذ يغلي من الغضب لهذه المعاملة ، وألقى بنظرات التهديد ، وغادر المكان . وفي الخارج وجد نفسه في مركز حرج ، إذ أخذ الشعب يتظاهر ضده ، وألقى عليه الغلمان الأحجار ، وتعقبوه بالصفير والصياح . وحاول بييرو أن يجمع بعض الجند لإنقاذ الموقف . ولكن بدون جدوى . فقد أفلت الزمام من يده نهائياً . وأرغم على الفرار إلى بولونيا ، ثم انتقل إلى البندقية ، التي اعتاد أهلها أن يحسنوا استقبال الأمراء الذين فقدوا سلطانهم . على حين قررت السنيوريا منح مكافأة مالية لمن يحمل إليها بييرو حياً أو ميتاً . وبذلك تمت ثورة بدون دماء في فلورنسا مدينة الاضطراب والصخب .

وقابل وفد فلورنسا شارل في بيزا ، قبل وصول ساڤونارولا . وعرض أعضاؤه صداقة فلورنسا لفرنسا ، وأنهم مستعدون لاستقباله في مدينتهم كصديق ، ورجوا منه أن يعين مطالبه لكي تكون واضحة للشعب الفلورنسي . ولكن الملك قابلهم بفتور ، وقال في كبرياء إن كل شيء سيسوى في المدينة . وتركه أعضاء الوفد ولم يحصلوا على شيء محدد . ثم وصل ساڤونارولا ، ودخل على الملك ، وخاطبه بلهجة الأمر قائلاً : « إن الله قد أرسلك لكي تخلص إيطاليا من الويلات ، كما تنبأت بذلك منذ سنوات طويلة . وإن الله قد أرسلك لكي تصلح الكنيسة التي هي غارقة

Twitter: @ketab_n

الآن في التراب ، وإذا لم تكن عادلاً ورحيماً . وإذا لم تحترم فلورنسا ونساءها وأهلها وحريتها ، وإذا نسيت الواجب الذي أرسلك الله للقيام به ، فإنه سيختار غيرك لأدائه ، وسيبطش بك . . . » وأخذ شارل وقواده بكلمات ساڤونارولا . وكان ذلك مما حمل شارل على أن يسلك مسلكاً حسناً في فلورنسا . وعندما رجع ساڤونارولا كان أول من حمل أنباء طيبة مطمئنة إلى أهلها .

انتهز أهل بيزا هذه الفرصة للانتقاض على حكم فلورنسا . واقتراب الجند الفرنسي أحيا الأمل في نفوسهم لاستعادة استقلالهم ، وعندما دخل شارل بيزا نهض أهلها بالثورة ، وحطموا معالم الحكم الفلورنسي ، وطردوا الحكام الفلورنسيين . وتعالت صيحات الحرية والاستقلال ، واستدعي المبعدون السياسيون . واستعد أهل بيزا للدفاع عن كيانهم ومحاربة فلورنسا بقوة السلاح . وحدث ذلك كله تحت أعين الجند الفرنسي . وبدا شارل في أول الأمر يشجع تلك الثورة . وبذلك وجَّه ضربة قوية إلى فلورنسا بالسماح للمدن التابعة لها بالثورة عليها . وحذت حذو بيزا مدن أخرى .

وازداد شعور أهل فلورنسا بالاضطراب والفزع . فالحكومة القديمة كانت قد سقطت ، ولم تكن الحكومة الجديدة قد استقرت بعد . وكان الجيش الفرنسي آخذاً في الاقتراب من المدينة ، وقد لطخت أسلحته بدماء الإيطاليين . وكان بييرو كابّوني وجيرولامو ساڤونارولا هما رجلا الساعة في تلك الظروف . أخذ ساڤونارولا يدعو الناس إلى البر والسلام والاتحاد . وأخذ كابّوني يجمع الجند ، ويجهز السلاح ، ويقيم المتاريس ، لكي يكون مستعداً للدفاع عن المدينة عند الضرورة .

ودخل فلورنسا بعض الضباط الفرنسيين لمعاينة أماكن نزول جنودهم . وأدهشتهم شكل القصور الفلورنسية الصلدة ، التي بدت كقلاع حصينة ، ترتفع من بينها الأبراج العالية ، تحمل طابع القتال العنيف . وأشيع في تلك الأثناء أن بييرو دي مديتشي اقترب من المدينة ، فقرع ناقوس الخطر ، وهرع الناس بأسلحتهم إلى ميدان السنيوريا وإلى المواضع الاستراتيجية في المدينة . وعرف أخيراً أن الشائعة غير صحيحة . ولكن الضباط الفرنسيين لمسوا بأنفسهم روح الشعب الفلورنسي ، الذي استرجع حريته ، وأحس أنه سيد العالم ، واعتقد أن ليس هناك أيّ قوة تخيفه بعد اليوم .

وفي الوقت نفسه أقيمت استعدادات فخمة لاستقبال شارل الثامن وأعد قصر مديتشي لنزوله . وخرج النبلاء ورجال السنيوريا لاستقباله . وبدا شارل غريب الشكل برأسه الكبير وأنفه الطويل وفمه الواسع ، وساقيه القصيرتين فوق جواده الأسود الضخم ، ولكن علت وجهه مسحة من الطيبة والجاذبية . ونزل المطر فابتسم الملك . وسار خلفه ألوف من الجند المختلط من المشاة والفرسان الفرنسيين

Twitter: @ketab_n

والسويسريين والألمان والاسكتلنديين ، في نظام رائع ، مما أثار إعجاب شعب فلورنسا ودهشته . وعبر موكب الملك الجسر القديم ، وتقدم حتى وصل إلى ميدان الكاتدرائية . وهناك ترجل الملك ودخل الكاتدرائية ، حيث أقيمت الصلاة . وصاح الناس جميعاً من أعماق قلوبهم بحياة فرنسا . لقد جذبهم شارل بضآلته وبما بدا عليه من البساطة . وزينت المدينة ليلاً بالأضواء والمشاعل ، وأقيمت الألعاب . وفي الأيام التالية ازدادت حماسة الناس له . وزار حديقة الأسود وحديقة الزراف ؛ كما زار السجون ، وطلب إطلاق سراح المعتقلين السياسيين . فازداد تقدير الناس له .

لكن الأمور لم تستمر على ذلك المنوال . إذ أن بييرو دي مديتشي حاول الاتصال بشارل ، وعرض عليه إذا رجع إلى فلورنسا ، استعداده للاشتراك في الحكم مع الفرنسيين . ومال شارل إلى معاضدة بييرو . وأبدى صلابة إزاء مفاوضي فلورنسا ، وحادثهم بكبرياء ، وعدّ أنه دخل المدينة فاتحاً . وتكلم كلاماً طيباً عن بييرو . ففضب أنصار الجمهورية ، وهب أهل فلورنسا للدفاع عن حريتهم ضد هذا الطغيان الجديد . وأقيمت المتاريس في شوارع المدينة ، ووقعت مشاحنات ومصادمات بين أهل فلورنسا والجند الفرنسي ، تلقى فيها الفرنسيون درساً قاسياً ، وانهالت على رؤوسهم كل أنواع المقذوفات من جميع الجهات . وعرفوا أنهم إذا استمروا على ذلك الحال ، عرّضوا قواتهم للضياع بين شوارع فلورنسا الضيقة .

واستغلت السنيوريا هذا الموقف ، فأرسلت بعض كبراء المدينة لتهدئة الخواطر . واعتدل شارل في لهجته . وفي أواخر نوفمبر ١٤٩٤ أمكن الاتفاق على أغلب المسائل ما عدا المسألة المالية ؛ إذ طالب شارل بأكثر مما تستطيع فلورنسا دفعه . وجرى نقاش في هذه المسألة ورفض شارل ما عرضته فلورنسا . وأرسل إنذاراً لرجالها وقال إنه سينفخ في أبواقه . فاستشاط كابوني غضباً ، وألقى بالإنذار في وجه الملك ، وقال ونحن سنقرع أجراسنا . وكان كابوني شجاعاً صارماً ، فاضطر الملك إلى الموافقة ، وعقدت الاتفاقية الآتية : « تقوم علاقة صداقة مخلصة بين جمهورية فلورنسا والملك . وأن يجد كل من رعايا الطرفين الأمن والحماية عند الطرف الآخر . وأن يلقب الملك بحامي حرية فلورنسا . وأن تدفع فلورنسا ١٢٠,٠٠٠ فورن على ثلاث دفع . وألا يحتفظ الملك بالقلاع التي في يده لمدة أكثر من سنتين ، وإذا انتهت الحرب ضد نابلي قبل ذلك فعليه التخلي عنها دون تأخير . وينال أهل بيزا العفو إذا ما أعلنوا تبعيتهم لفلورنسا . وتلغى المكافأة التي وضعت للحصول على رؤوس آل مديتشي ، مع بقائهم بعيدين عن حدود الأراضي التسكانية » .

ولكن تغير وجه الأمور من جديد . فإن شارل بعد توقيع هذه الاتفاقية ، لم يبد استعداده لمغادرة فلورنسا . فأغلقت الحوانيت واستعد الفلورنسيون لمواجهة

Twitter: @ketab_n

الموقف مرة أخرى . وكان يكفي أقل اصطدام لوقوع ما لا تحمد عقباه . فلجأ الناس إلى ساڤونارولا ، الذي كان يعمل من ناحيته على تهدئة الخواطر باستمرار . ودعا الناس إلى الهدوء والسكينة ؛ وإلى طرح مطامعهم الشخصية ، والعمل للمصلحة العامة ، والدفاع عن الحرية ، والسعي لتحقيق الوحدة . ثم ذهب لمقابلة الملك مرة أخرى وقال له : « إن بقاءك هنا يسبب ضرراً بالغاً لهذه المدينة . وإنك تضيع الوقت ، وتنسى المهمة التي ألقتها العناية الإلهية على عاتقك ، فعليك بمتابعة رحلتك ولا تسبب خراب هذه المدينة ، فتثير عليك غضب الله » . وكان لساڤونارولا مقام محترم عند شارل ، فرحل عن المدينة . وازداد تقدير الناس لساڤونارولا ، وهو الرجل الوحيد الذي استطاع أن يجنِّب فلورنسا الدمار وسفك الدماء ، في ذلك الوقت العصيب .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع
الدستور الفلورنسي وتغييرات لورنتزو الأوتوقراطية

نظرة عامة إلى نظام الحكم في فلورنسا -اختيار أعضاء اللجان والمجالس الحكومية واختصاصاتها -مجلس السنيوريا -لجنة الاثني عشر -لجنة الستة عشر -مجلس الشعب ومجلس الكومون -البرلمان العام -تغييرات لورنتزو العظيم الدستورية -سيطرته على الحكومة .

إن دراسة الدستور الفلورنسي من المسائل المعقدة ، ولكنها جديرة بالنظر . وهي تبين لأهل القرن العشرين صعوبة إيجاد حكومة غير ديموقراطية ، عند شعب يتمتع بمستوى عال من الحضارة . وقد حاول حكام فلورنسا أن يحولوا دون تمتع الشعب بالمشاركة في الحكم . ولكن شعب فلورنسا كان من الذكاء والمهارة وسرعة الخاطر بحيث لم يكن من المستطاع أن يقف دائماً موقفاً سلبياً أمام سلطة الحكام . وواجه رجال فلورنسا في عصر النهضة مشكلة إيجاد نظام حكم تتوافر فيه هيئة تنفيذية قوية مستقرة ، تتمتع بتعضيد المصوتين ، الذين لم يكن لهم في الوقت نفسه ، مجلس منظم يهيمن على تلك الهيئة التنفيذية .

ووجدت محاولات متعددة لحل مشكلةنظام الحكم ، وأُدخلت بعض التعديلات على الدستور الفلورنسي من وجهات نظر مختلفة . مثل تعديلات لورنتزو العظيم كأمير غني مستبد ، وإصلاحات ساڤونارولا كراهب مخلص ، واقتراحات ماكيافلّي كفيلسوف سياسي ، استمد آراءه من تجاربه كموظف اشترك في تصريف شؤون الدولة . وقد طبق بعض هذه التعديلات ، وكانت كلها حلقات في سلسلة تطور نظام الحكم الفلورنسي ، نجح بعضها ، وقصر بعضها الآخر عن تحقيق النجاح المرجو منها .

Twitter: @ketab_n

ويدلنا ذلك كله على أن المهمة التي واجهها ساسة فلورنسا ، كانت محوطة بالمصاعب التي لم يتمكنوا من إيجاد حل حاسم لها ، بالرغم من الجهود التي بذلوها في ذلك السبيل .

ويتضح من دراسة الدستور الفلورنسي بعض الحقائق . فهو كان من صنع رجال الأعمال ، الذين خبروا الحياة العملية ، ولم يتأثروا بالسياسة النظرية . وتجمعت سلطة الحكم في يد التجار ورجال المال ورجال البنوك . ولم يشترك في الحكم لا النبلاء ولا الشعب في مجموعه ، الذي لم تكن له جمعية وطنية منتخبة بالمعنى المعروف في الوقت الحاضر . ويقوم بأعباء الحكم هيئة تنفيذية وبعض لجان قوية لها مجالس استشارية . وقد نشب الخلاف في فلورنسا بشأن أحسن وسيلة لإيجاد الهيئة التنفيذية . هل توجد بطريق التعيين أو الانتخاب أو الاقتراع . وكان ذلك من أسباب وجود هذه اللجان والمجالس المتعددة . واتخذت هذه الهيئات الحكومية أسماء عددية ، فنجد مثلاً « عشرة الحرب والسلم » بدلاً من وزارة أو إدارة الحربية و« ثمانية الحفظ والأمن » بدلاً من وزارة الداخلية ، ونجد مجلسي « الستة عشر » و« الاثني عشر » ، وهكذا . وهذه المجالس واللجان ذات الأسماء العددية ، التي تبدو لنا غريبة على الأقل ، كانت شيئاً مألوفاً وبسيطاً بالنسبة لأهل فلورنسا في ذلك العصر .

لم توجد عبثاً هذه الشبكة من اللجان والمجالس في فلورنسا . فقد وجدت نتيجة للظروف ، وكان كل منها يؤدي غرضاً معيناً ، مهما تفاوتت قيمته . فقد عانت فلورنسا شيئاً كثيراً من الصراع الحزبي العنيف ، وتلقت من ذلك دروساً لا تنسى . فكان ينبغي أن يمنع ، بأي ثمن ، استفحال نفوذ أي شخص معين ، حتى لا يتحول حكمه طغياناً . ومن هنا كان قصر المدة التي يشغلها أعضاء اللجان والمجالس ، بالرغم من أنه يؤدي إلى عدم استقرار الأداة الحكومية . ومن ذلك اختيار الأعضاء بطريق الاقتراع دون الانتخاب بالمعنى الحديث . وكذلك كان من الضروري أن تنال الحكومة القائمة المعاونةالفعلية من جانب أكبر عدد ممكن من الناس . وكان للفلورنسيين ولع بشغل المناصب الحكومية ، بغض النظر عن أهميتها الحقيقية . ومن هنا نجد كثرة اللجان والمجالس ، التي لم يؤد بعضها عملاً مهماً ، وإنما وجدت لكي ترضي رغبة الفلورنسيين في الاشتراك ، بأيّ صورة ، في وظائف الحكومة .

ويضاف إلى ذلك أن فلورنسا لم تشبه أيّ دولة حديثة . فهي كانت مدينة – دولة . وليست لها أملاك واسعة ولا جيش عظيم ولا أسطول ، ولا يهم حكومتها القيام بالخدمات الاجتماعية ، التي كانت في يد الكنيسة والأفراد في ذلك العصر . ولم يعبأ شعب فلورنسا بشكل الحكومة ، وإنما كان يعنيه الإدارة الحازمة الرشيدة .

Twitter: @ketab_n

ويلاحظ أيضاً أن الفلورنسيين في عصر النهضة لم ينجحوا في إيجاد التوازن بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية . كان عندهم قوانينهم التي عدّلوها وغيروها من وقت لآخر كما شاؤوا . ولكنهم لم يدركوا أهمية الهيئة التشريعية ، ولم يصلوا إلى إيجاد السلطة التنفيذية المسؤولة أمام ممثلي الشعب . وحاولوا أن يحلوا مشكلة الحكم بأن جعلوا السلطة التنفيذية القوية ، ترجع في أوقات متقاربة إلى المنتخب ، ليعيد اختيار أعضائها ، بطريقة الاقتراع . وبهذه الوسيلة أمكنهم السيطرة على شؤون الحكم بدرجات متفاوتة .

وكانت أهم هيئة في حكومة فلورنسا هي مجلس السنيوريا[٥٠] وكان يتكون من حامل لواء العدالة[٥١] ، وهو رأس الدولة ، ومن ثمانية رؤساء ، شغلوا مناصبهم بدون أجر ، كغيرهم من أعضاء اللجان والمجالس الأخرى . ولكن الدولة كانت تقدم لأعضاء مجلس السنيوريا المسكن والمأكل في أثناء تولّيهم الحكم . ويرجع تكوين مجلس السنيوريا إلى نظام النقابات القديم . فكان يؤخذ من هؤلاء الرؤساء اثنان عن كل حي من أحياء المدينة الأربعة ، يمثلون نقابات الفنون والمهن الكبرى والصغرى[٥٢] ، بنسبة ستة إلى اثنين .

وإن رجحان كفة ممثلي المهن الكبرى على ممثلي المهن الصغرى في مجلس السنيوريا ، وفي كافة اللجان والمجالس الحكومية في فلورنسا ، كان معناه تجمع السلطة في يد طبقة الأغنياء . ولم تكن هناك إذاً ديموقراطية بالمعنى المفهوم ، تعطي سلطة متساوية للناس ، أو لأفراد الطبقة الوسطى ، وأعطيت السلطة للأغنياء وحدهم من الطبقة الوسطى .

ووضعت شروط لابد من توافرها لاختيار أعضاء مجلس السنيوريا . فأبعد أولاً النبلاء ، وكذلك العامة من الناس ، وأي شخص غير مقيد في نقابات المهن ، والأشخاص المقيمون خارج منطقة فلورنسا . كما أبعد كل شخص نسبت إليه أيّ تهمة سياسية . وكان هذا سلاحاً ماضياً استغله أصحاب السلطة ضد خصومهم السياسيين . وأبعد أيضاً أي شخص لم يدفع ما عليه من الضرائب . وأخيراً أبعد الشخص الذي يكون هو أو أحد أقاربه قد شغل عضوية هذا المجلس منذ زمن قريب . وكانت هناك لجنة خاصة للنظر في صلاحية الأشخاص ، بناء على القواعد السالفة ، لاختيارهم أعضاء في مجلس السنيوريا . وكانت توضع أسماء المرشحين في مجموعات ثُمانيّة ، تكفي مدة خمس سنوات . وتوضع كل مجموعة في كرة من الشمع داخل صناديق خاصة . ويتم اختيار أعضاء المجلس دفعة واحدة ، بطريق الاقتراع . وفي أوقات الانقلابات السياسية ، كانت تعد قوائم جديدة ، بعد استبعاد أسماء الخصوم السياسيين . وبذلك وجدت الفرصة لأصحاب النفوذ للتدخل

Twitter: @ketab_n

ولتسيير الأمور بحسب أهوائهم . وبالغ الفلورنسيين في حيطتهم فجعلوا مجلس السنيوريا يتغير مرة كل شهرين . وكان من شأن هذا التغير السريع أن تفقد الأداة الحكومية صفة الثبات والاستقرار . ولكن الفلورنسيين وجدوا أن ذكريات الماضي المخيف ، تحملهم على أن يفضلوا أهون الضررين : عدم الاستقرار أو التعرض لحكم الطغيان . وعوّضوا عدم الاستقرار في أداة الحكم بتعيين سكرتيرين دائمين في اللجان والمجالس الحكومية .

أما اختصاص مجلس السنيوريا فكان مباشرة السلطة التنفيذية ، واقتراح القوانين ، والنظر في القضايا الهامة . وكانت تقرر المسائل بأغلبية الثلثين . ولكل عضو من أعضاء المجلس أن يشترك في رياسته مع حامل لواء العدالة -رأس الدولة - لمدة ثلاثة أيام . ويرجح رأيه رأي رئيس الدولة إذا كان الأخير معارضاً .

وكان لمجلس السنيوريا لجان ومجالس تساعده في شؤون الحكم . فيليه مباشرة مجلس الرفقاء ، وينقسم إلى لجنة الاثني عشر من الرجال الصالحين ، وهم يمثلون أيضاً نقابات المهن الكبرى والصغرى بنسبة تسعة إلى ثلاثة . ثم لجنة الستة عشر من حاملي أعلام فرق العسكر ، التي ترجع في أصلها إلى التشكيلات العسكرية القديمة ، ويؤخذون أربعة من كل حي من أحياء المدينة . ووظيفتهما ضبط أعمال مجلس السنيوريا التي تكون قد صدرت في شيء من التسرع . وتعرض عليهما المسائل في أيام متتالية ، ولا يتقرر شيء إلا بموافقة أغلبية الثلثين على الأقل . وكان اختيار هؤلاء الأعضاء أشبه باختيار أعضاء السنيوريا ، وإن كانت مدة بقائهم في وظائفهم أطول قليلاً .

ويلي ذلك مجلسان كبيران : مجلس الشعب ويتكون من ثلاثمائة عضو ، يؤخذون من أرباب المهن أيضاً ، ويتجدّدون كل أربعة شهور . ثم مجلس الكومون ويتكون من ثلاثمائة وتسعين عضواً ، ويضم القضاة والقائمين على حماية القانون . وفي هذا المجلس وحده كان للنبلاء حق التمثيل ، لأنه كان من الممكن أن يصبحوا قضاة وضباط قوانين . وكانت مشروعات القوانين ، بعد اقتراحها في مجلس السنيوريا ، تعرض على مجلس الرفقاء ثم مجلس الشعب فمجلس الكومون . وفي كل مرحلة لابد لإقرارها من الحصول على أغلبية الثلثين .

ومما هو جدير ذكرُه أن القوانين لم يكن يسمح بمناقشتها بمعنى الكلمة . كان يسمح فقط بالكلام لمحبذيها . أما المعارضون فيعبرون عن رأيهم بالتصويت ضدها . وكان ينبغي أن يتم أخذ الرأي في نهاية اليوم . وإذ رفض مشروع قانون كان لأنصاره الحق في إعادة مناقشته في اليوم التالي وما يليه ، حتى يتعب أنصار القانون ، أو يقتنع معارضوه .

وعندما ارتفع شأن فلورنسا في مجال السياسة الخارجية ، كان من الضروري

Twitter: @ketab_n

أن تنشأ لجنة العشرة للحرب . واختصت بالنظر في مسائل السياسة الخارجية ومسائل السلم والحرب . وعندما ازدادت أعباء السياسة الخارجية أنشئ مجلسان لمساعدة لجنة العشرة . وهما مجلس المائتين ومجلس المائة والواحد والثلاثين . وعدّهما ما كيافلّي فيما بعد لا يقومان بعمل جدي ، وإنما أنشئا لمجرد إرضاء الناس واجتذابهم إلى جانب الحكومة . ثم أنشئت لجنة الثمانية للأمن الداخلي ، ومهمتها حماية الدولة داخلياً .

ويضاف إلى ذلك أنه في أوقات الأزمات والانقلابات كان لمجلس السنيوريا أن يأمر بقرع ناقوس قصر الحكومة ، فيجتمع شعب فلورنسا في ميدان السنيوريا ، على هيئة برلمان عام . وكان من المستطاع أن يكون هذا بمنزلة استفتاء عام للشعب . ولكن عملياً أسيء استخدام هذا المظهر الديموقراطي لخدمة مصلحة حزب أو شخص معين . وكان من السهل على مجلس السنيوريا أن يتدخل في تكوين هذا البرلمان العام . فيقف الجند عند مداخل الميدان ليمنع العناصر غير المرغوب فيها من الوصول إليه . كما كانت تدفع الرشوة لاجتذاب الأنصار . ثم يتقدم أعضاء السنيوريا ، ويسأل هذا الجمع المحتشد ، هل يوجد ثلثا شعب فلورنسا ؟ وهل يرغب الحاضرون في تكوين لجنة خاصة «باليا»[٥٣] لأحداث التغيير المطلوب ؟ وهل يوافقون على اختيار أعضاء هذه اللجنة الواردة أسماؤهم في هذه القائمة ؟ وفي الغالب لم يكن هناك مجال للمناقشة أو للاعتراض . وأصبحت المسألة بمرور الزمن تؤدى كعمل مسرحي ، لخدمة أصحاب السيطرة في فلورنسا ، لا بمنزلة استفتاء حقيقي لشعب فلورنسا .

وعلى الرغم من الاحتياطات الكثيرة التي اتخذها الفلورنسيون لمنع حكم الطغيان والاستبداد ، فإن أسرة مديتشي تمكنت من السيطرة على الحكم . وأدخل لورنتزو العظيم بصفة خاصة ، طائفة من التغييرات على الدستور الفلورنسي باعتبار أنه أمير عظيم وتاجر غني ، له مصالح سياسية واقتصادية جعل تنفيذها أهم أهداف حكمه . وكانت نظم الحكم في البندقية المثل الأعلى في نظر السياسة الإيطاليين ، وقد جمع دستورها بين عناصر الملكية والأرستقراطية والديموقراطية . واقتبس عنها لورنتزو العظيم العنصرين الملكي والأرستقراطي ، وأهمل العنصر الشعبي . ومع ذلك فإنه لم يحطم الدستور الفلورنسي نهائياً ، واجتهد في الاحتفاظ بشكل الحكم الجمهوري حتى لا يثير غضب الشعب .

وجد لورنتزو أن طريقة اختيار أعضاء اللجان والمجالس الحكومية تقلل من سلطته وتعرقل سياسته الخارجية . فأراد أن يوطد سلطته ويقوي الأداة الحكومية . واستطاع بنفوذه القوي ، أن يحدث تغييرات ملائمة ، دون دعوة شعب فلورنسا على هيئة برلمان عام . فأوجد مجلس السبعين ، محاولاً بذلك الاقتباس عن مجلس

Twitter: @ketab_n

الشيوخ في البندقية . وجعل أعضاءه لا يختارون بطريق الاقتراع ، وإنما يعينهم مجلس السنيوريا ، الذي سيطر عليه لورنتزو . وضمن ذلك استمرار نفوذ آل مديتشي على مجلس السبعين ، وقصر عضويته على عدد محدد من الناس . وأصبح من اختصاصات هذا المجلس تعيين أعضاءاللجان الحكومية الأخرى ، دون حاجة إلى تطبيق طريقة الاقتراع ، كما كان الحال من قبل .

وكان لمجلس السبعين أن يضع الشروط الواجب توافرها في المرشحين لعضوية مجلس السنيوريا ، وأن يحدد عدد من توضع أسماؤهم في صناديق الاقتراع . وينبغي أن يتم ذلك قبل إجراء الاقتراع بيومين . وقصد بذلك منع أي إنسان من أن يغير رأيه إذا ما عرف أن اسمه لم يدرج في قائمة المرشحين . وعلى ذلك كان من المستحيل أن يؤمل أي معارض لآل مديتشي الوصول إلى عضوية مجلس السنيوريا . وهكذا فقد الفلورنسيون ما كان لهم من إشراف محدد على اختيار أعضاء الحكومة . وهذا بخلاف الحال في دستور البندقية ، حيث كان انتخاب أعضاء الحكومة من اختصاص المجلس الكبير . ولكي يستميل لورنتزو شعب فلورنسا أدخل عشرة من ممثلي المهن الصغرى في مجلس السبعين . ولكن حتى هؤلاء كان لابد أن يكونوا من الموالين لآل مديتشي .

وكذلك كان من اختصاص مجلس السبعين اختيار لجنة « ثمانية البراتيكا » التي كان عليها إدارة السياسة الخارجية ، وحلت مكان لجنة العشرة للحرب والسلم . ثم لجنة « الاثني عشر للدين والتجارة » ، وهي أشبه بوزارة المالية . وجعلت مدتهما ستة شهور . وكان لابد لمرور مسائل الدولة وفيها القوانين المالية على هاتين اللجنتين ، بعد مرورها على اللجان الأخرى القديمة ، التي احتفظ بها لورنتزو .

ولم يقتصر لورنتزو العظيم على ذلك ، بل مضى على سياسة جمع السلطة في يديه . ففي ١٤٩٠ جعل مجلس السبعين يفوض اختصاصات تعيين موظفي الدولة ، إلى لجنة السبعة عشر ، التي كان لورنتزو نفسه أحد أعضائها . وكان ذلك نوعاً آخر من ملاءمة مجلس العشر في البندقية لأغراض آل مديتشي . وبذلك ازدادت سيطرة لورنتزو على كل أعضاء الحكومة ، في هذه الدائرة المحدودة . وكان لورنتزو يوشك أن يجعل لنفسه وظيفة حامل لواء العدالة مدى الحياة ، كما كان الحال في دوق البندقية . ولكنه مات قبل أن يحقق ذلك .

واضطرت فلورنسا إلى قبول هذا الحكم الأوتوقراطي . وكان لشخصية لورنتزو وبخاصة في السياسة الخارجية أثر في ذلك . ولم يستطع أحد أن يجهر بمعارضة سلطان آل مديتشي . فانصرف الناس إلى الفنون والآداب والحفلات ، وإلى التمتع بملاذ الحياة ، زمناً ما ، منتظرين تغير الظروف في المستقبل . وعندما مات لورنتزو ، اضطربت أحوال فلورنسا في عهد بييرو دي مديتشي ، وحلت بفلورنسا

Twitter: @ketab_n

الأزمات ، وهددها خطر الحرب ، وعندما نهض ساڤونارولا بالدعوة إلى الإصلاح والحرية وتحقيق العدالة ، ظهرت مشاعر الناس الخبيئة ، وخرجوا على حكم آل مديتشي ، وعملوا على إحداث التغيير الديموقراطي في نظام الحكم ، كردّ فعل لاتجاه لورنتزو العظيم الاستبدادي .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن
إصلاحات ساڤونارولا الدستورية

حكومة العشرين -آراء في إصلاح الدستور الفلورنسي - ساڤونارولا يدعو إلى الحكم الديموقراطي -قبول مشروع سوديريني -المجلس الكبير ومجلس الثمانية من دستور البندقية -إبقاء اللجان القديمة -الضرائب -العفو السياسي -استئناف الأحكام في التهم السياسية -إلغاء البرلمانات العامة -بنك الرهونات -دعوة ساڤونارولا إلى اختيار الأكفياء في الوظائف -تقدير ساڤونارولا كسياسي .

دق ناقوس القصر القديم[٥٤] في ديسمبر ١٤٩٤ ، لدعوة شعب فلورنسا لاجتماع برلمان عام . وطلب مجلس السنيوريا تعيين لجنة «باليا» مكونة من عشرين شخصاً ، يكون لها حق اختيار أعضاء الحكومة لمدة عام . وعرفت الحكومة الجديدة باسم حكومة العشرين . وألغت من أول الأمر مجلس السبعين ، الذي أوجده لورنتزو العظيم ، وأبقت اللجان والمجالس القديمة . فتعالت أصوات الناس بالهتاف ، لأنهم اعتقدوا أنهم مقبلون على عصر جديد من الحرية .

ولكن حكومة العشرين لم تستطع أن تقوم بواجبها حق القيام . فكان أعضاؤها مواطنين من بيئات متنوعة ، ولهم آراء مختلفة ، ولم يوجد بينهم الانسجام الضروري ؛ ولم تكن لهم دراية بمسائل الحكم . فعندما أقبلوا على اختيار حامل لواء العدالة ، لم يحصل واحد من مرشحيهم على أكثر من ثلاثة أصوات! وظهر أنه لم يكن من المستطاع إنعاش الجمهورية بالاعتماد على النظم الفلورنسية القديمة

Twitter: @ketab_n

وحدها . وكان مجلس العشرين كأنه قد تسلم جثة هامدة ، لا يمكنه أن يبعث فيها الحياة من جديد .

وجد الفلورنسيون أنه لا بد من إدخال إصلاحات حاسمة . ولكنهم وجدوا أيضاً أنهم محوطون بمصاعب متعددة . فكان عليهم أن يوفروا المال اللازم لتكاليف الحرب ضد بيزا وغيرها من المدن التي خرجت على حكم فلورنسا ، عند قدوم الفرنسيين إلى إيطاليا . وذلك إلى جانب المال الذي تعهدوا بدفعه إلى شارل الثامن . ولسوء الحظ كان يعوز فلورنسا في ذلك الوقت الرجال الأكفياء . فكان استئثار آل مديتشي بحكم فلورنسا عائقاً منع تدريب غيرهم من أفراد الأسر الفلورنسية على شؤون الحكم . وعندما طرد آل مديتشي وجد الناس أنفسهم في ذلك المأزق الحرج . ونقابات المهن التي كانت فيما مضى مركز الحياة الاقتصادية والسياسية ، لم تكن على حالها السابق . وكذلك لم يكن للناس زعماء يدلون بآرائهم السديدة في سبيل الإصلاح .

وكانت هناك مدرسة سياسية ناشئة ، سيخرج منها فيما بعد ، أمثال ماكيافلي وجويتشارديني . وأخذ أمثال هؤلاء الشبان في مناقشة نظم الحكم وعلم سياسة الدولة . ولكنهم لم يكونوا معروفين للجمهور في ذلك الوقت ، ولم تكن لهم سلطة عملية . وقام علم السياسة الحديث على بعض المبادئ التي روعيت فيها رغبات الإنسان . وعدّوا أن الحكومة المثالية هي الحكومة التي لا يوجد فيها حكم الطغيان . وهي الحكومة التي تستطيع أن ترضي نزعات جميع الناس . فترضي الفئة القليلة التي ترغب دائماً في السيطرة ، وترضي طبقة النبلاء التي تحرص على مظاهر التكريم والتشريف ، وترضي الشعب الذي يتطلع إلى الحرية . فالحكومة المثالية هي مزيج من عناصر الملكية والأرستقراطية والديموقراطية .

وعندما انتقل المهتمون بالسياسة في فلورنسا من البحث النظري إلى ناحية التطبيق ، نظروا إلى دستور البندقية على أنه المثال العملي الذي ينبغي السير على منواله ، لإصلاح نظام الحكم في فلورنسا . وفي الحقيقة كانت البندقية هي الحكومة الوحيدة في إيطاليا التي استطاعت أن تخلص من الفوضى الداخلية التي تعرضت لها الولايات الإيطالية الأخرى ، والتي ازدادت قوتها وارتفعت سمعتها ، دون أن تخضع لحكم الطغيان . وإن اقتباس فلورنسا العنصر الديموقراطي في دستور البندقية ، يشبه اقتباس فرنسا عن الدستور الإنجليزي في عهد الثورة الفرنسية الكبرى . وقد واجه الفلورنسيون الصعوبات التي واجهها الفرنسيون في الموقف نفسه . وكان للبندقية منذ زمن بعيد طبقة أرستقراطية قوية ، في حين أن الطبقة الأرستقراطية في فلورنسا لم يعد لها شأن يذكر . ومع ذلك فإن رغبة فلورنسا الاقتباس عن دستور البندقية أخذت تتزايد ، وأصبحت حديث الناس في كل مكان .

Twitter: @ketab_n

وكان لا بد من وجود بعض الأفراد القادرين على الدفاع عن هذا الرأي ، أمام مجلس العشرين ، وإقناعهم به . لأنه لم يكن من المستطاع إحداث أي تغيير دون موافقتهم . وظهر بعض رجال القانون ، الذين كثيراً ما يضع القدر في أيديهم مصائر الشعوب ، عند انتقالها من العبودية إلى الحرية . وأخيراً اقترح أنطونيو سوديريني ، وهو دكتور في القانون ، يميل إلى الشعب ، وكان سفيراً لفلورنسا في البندقية ، اقترح إيجاد المجلس الكبير على غرار ما هو موجود في البندقية ، بدلاً من مجلس الشعب والكومون القديمين . ويكون اختصاصه اختيار أعضاء المجالس الحكومية الهامة ، والموافقة على القوانين . ثم يوجد مجلس الثمانين على غرار مجلس الشيوخ في البندقية . واقترح أيضاً إلغاء لجنة العشرين ، وإبقاء مجلس السنيوريا ولجنتي الثمانية والعشرة .

وظهرت معارضة لطريقة تكوين المجلس الكبير من الشعب ، كما اقترح سوديريني . قيل إن المجلس الكبير في البندقية يتكون من عناصر مختارة لا من عامة الشعب . ورد أنصار الفكرة قائلين إنه لا يجوز حرمان الشعب من الاشتراك في الحكم ، الذي يرجع إليه وحده الفضل في طرد آل مديتشي . وطال البحث في مشروع سوديريني وغيره من المشروعات . واستمر النقاش حتى ساعات متأخرة من الليل . ووجد أهل فلورنسا أن الوقت يضيع هباء بين أيدي رجال القانون ، الذين كانوا في العادة ، لا يرون الأشياء إلا من وجهة نظر واحدة ، ويحرصون على المناقشات النظرية ، ويهتمون بالنصوص والمواد ، وأعوزهم الإدراك الصحيح ، والحرص على مصلحة الشعب ، والإرادة القوية الحازمة . وأزعج أهل فلورنسا انتقاض بعض المدن على حكمهم . كما هددتهم ثورة داخلية عنيفة . وجهل الشعب مصير الحوادث . وساوره القلق والاضطراب .

لم يكن في المدينة شخصية لها احترام وتقدير ، في نظر أغلبية الشعب ، غير ساڤونارولا . فتطلعوا إليه لإنقاذ الموقف ، كما فعلوا ذلك غير مرة من قبل . وازداد التفاف الناس حوله ، ووجدهم يتقاطرون إليه في يأس طالبين المعونة ، ولا ثقة لهم في أحد غيره . وبالرغم من أن ساڤونارولا كان يحرص قدر المستطاع على أن يظل بعيداً عن ميدان السياسة ، وأن يبقى منصرفاً إلى العبادة ومسائل الدين ، آذنت ساعة ظهوره في ميدان السياسة ، ودفعه تيار الحوادث إلى ولوج هذا الميدان الشائك . وأحس بقدرته على أن ينفث روحه وإخلاصه في نفوس الناس . فلم يحجم ولم يتردد . وسار بعزم ثابت في الطريق المحتوم .

أخذ ساڤونارولا يمزج في عظاته بين الدين والسياسة . ودعا الناس إلى بيع الكماليات وأدوات الزينة حتى في الكنائس ، لإطعام الفقراء والمحتاجين . ومن أقواله في ذلك الوقت : « إن إرادة الله هي منح آثار الماضي . وتجديد نظم

Twitter: @ketab_n

فلورنسا ، بحيث لا يبقى شيء من العادات والقوانين ونظم الحكومة القديمة الشريرة . . . أيا فلورنسا إنني لا أستطيع أن أعبر لك عن كل ما أشعر به نحوك . وإذا استطعت أن أذكر كل ما عندي ، فسترون مرجلاً مغلقاً مملوءاً بالبخار المغلي ، الذي يحاول أن يجد مخرجاً . . . إن الملكية المطلقة هي أفضل نظام حكومي تحت الحاكم العادل ، ولكن حكم الطغاة في إيطاليا يؤدي دائماً إلى أسوأ النتائج . وإن أفضل نظام يلائمنا هو الحكومة الوطنية الشعبية . وويل لفلورنسا إذا اختارت طاغية يستبد بالسلطة فيها . وإن الرؤوس مصدر الشرور التي تقضي على الإمارات . وإن كلمة طاغية تعني الرجل الشرير الدنيء ، المغتصب لحقوق شعبه . . . وإذا كنتم سمعتم أن الدول لا يمكن أن يحكمها رجال الدين ، فاذكروا أن هذا قول الطغاة أعداء الله وأعداء المصلحة العامة . وهو قانون لاضطهاد الشعب والاستبداد به » . وكرر دعوة الناس إلى نسيان المنافع الشخصية ، والعمل للمصلحة العامة ، لكي تكسب فلورنسا مجداً يفوق ما كان لها في الماضي . وذكر أن أهل فلورنسا هم الشعب المختار ، الذي عليه أن يبدأ بإصلاح نفسه ثم إصلاح إيطاليا ، ثم يعمل على نشر أجنحته على العالم حاملاً إليه بذور الإصلاح . وينبغي أن يبدأ الإصلاح بالناحية الروحية ، بتنقية قلوب الناس ، والقضاء على الملاذ ، والقيام بوضع نظام حكم جديد ، يحقق الحرية ويضمن العدالة وقال : « اجعلوا هذا المبدأ أساساً لحكومتكم الجديدة . لا يكسب أي شخص أيَّ فائدة بغير إرادة الشعب كله ، الذي له الحق وحده في اختيار الحكام وإصدار القوانين . وأحسن نظام تحتذيه فلورنسا هو إيجاد المجلس الكبير على مثال ما هو موجود في البندقية » .

دعا ساڤونارولا اللجان الحكومية إلى أن تقدم مشروعات الدستور الجديد . وقال إن على حامل لواء العدالة أن يختار أربعة منها لعرضها على مجلس السنيوريا ، لاختيار أفضلها . ثم جمع كل أعضاء الحكومة والشعب -فيما عدا النساء والأولاد- في كاتدرائية فلورنسا ، ولخص المسائل التي ينبغي اتباعها ، والتي سبق أن ذكرها للناس ، لكي يؤكدها في نفوسهم ، ويحثهم على العمل بها . فقال يجب أن يخشى الناس الله ، وأن يتحمسوا للحكم الشعبي ويجعلوا المصلحة العامة فوق كل اعتبار ، وأن يعلنوا العفو العام عن أنصار الحكم السابق ، ويوجدوا حكومة تضمن اشتراك مواطني فلورنسا في الحكم ، وأن يجعلوا ما يأخذونه عن دستور البندقية ملائماً لطبيعة الشعب الفلورنسي .

وهكذا وجد ساڤونارولا نفسه على رأس فلورنسا كلها . وكان عليه أن يبدي النصح والمشورة للحكومة والشعب ، لإيجاد نظام حكم ديموقراطي جديد . ورأى ضرورة التعجيل بتنظيم الحكومة الجديدة حتى لا يعطي آل مديتشي الفرصة لمحاولة استرجاع سلطانهم الضائع . وعمل ساڤونارولا كرجل أخلاق ودين ، ليست له

Twitter: @ketab_n

مصالح خاصة ولم يكن يسعى إلا لتحقيق مصلحة الشعب . واستطاع ساڤونارولا أن ينقذ الموقف في ذلك الوقت ، بمتانة أخلاقه الصارمة ، وبحبه للحق ، وبتصميمه الثابت على تحقيق العدل ونشر الفضيلة . وأي قوى غير هذه يمكنها إحراز النجاح في ساعات التاريخ العصيبة ؟

تظهر أهمية ساڤونارولا في وضع الدستور الفلورنسي الجديد ، إذا ما عرفنا أن كل قانون جديد صدر في ذلك الوقت ، سبقه عظة أو أكثر لساڤونارولا تناول فيها الموضوع ، كما أن مناقشات أعضاء مجلس السنيوريا ، وأحاديث الناس في الأماكن العامة ، اتفقت مع عظاته . وكثيراً ما صدرت القوانين بكلماته وعباراته نفسها .

استقر الرأي أخيراً على قبول مشروع لجنة العشرة للحرب والسلم ، التي كان أحد أعضائها سوديريني السالف الذكر . وتقرر إنشاء المجلس الكبير ، على أن يكون اختصاصه اختيار أعضاء اللجان الحكومية التي أبقيت ، والموافقة على مشروعات القوانين . وبذلك أصبح المجلس الكبير صاحب السلطة العليا في الدولة . وجعل من حق كل فلورنسي أن يكون عضواً فيه ، مع توافر بعض الشروط . فينبغي ألا تقل سن العضو عن ٢٩عاماً ، وأن يكون قد أدى ما عليه من الضرائب ، وأن يكونَ واحداً من أسلاف المعضو لثلاثة أجيال ، قد شغل عضوية إحدى اللجان الحكومية العليا ، أو كان يصلح لشغلها . وبلغ عدد الأعضاء الذين توافرت فيهم هذه الشروط أكثر من ٣٠٠٠عضو ، من سكان فلورنسا البالغ عددهم نحو ٩٠,٠٠٠نسمة . وتقرر أن يقسم هذا العدد الكبير إلى ثلاثة أقسام ، يكون كل منها المجلس الكبير لمدة ستة شهور على التوالي ، إلى أن يوجد المكان الذي يسع جميع الأعضاء دفعة واحدة . ويضاف في كل سنة إلى المجلس الكبير ٦٠ عضواً ، ممن لا يتوافر فيهم شرط شغل أحد الأسلاف إحدى الوظائف الرئيسية في الدولة ، و٢٤ عضواً من الشبان الذين وصلوا إلى سن الرابعة والعشرين ، وذلك للاستفادة من أصحاب الكفاية والتجربة ، وتشجيعاً للشباب على القيام بأعباء الحكم .

وبعد قليل أعطى المجلس الكبير سلطة اختيار ٨٠ من المواطنين في سن الأربعين وما فوقها ، لتكوين مجلس الثمانين ، ويتغير كل ستة شهور . وكان مجلس الثمانين وثيق الارتباط بمجلس السنيوريا ، الذي كان عليه أن يبحث معه مسائل الدولة ، مرة في الأسبوع على الأقل . كما كان من اختصاصه ، بالاشتراك مع مجلس الرفقاء ، أن يعين السفراء والقواد ، وأن يجمع الجنود المرتزقة ، وينظر مسائل الدولة الهامة ، التي لا يمكن أن يصدر فيها قرار أمام العموم .

وعلى ذلك أصبح أساس الدستور الجديد قائماً على المجلس الكبير الذي يمثل الشعب ، ومجلس الثمانين الذي كان بمنزلة مجلس الشيوخ . وظلت السلطة التنفيذية في يد مجلس السنيوريا ، الذي بقي له حق اقتراح القوانين ، كما كانت

Twitter: @ketab_n

الحال من قبل ، ثم تعرض على مجلس الرفقاء (أي لجنتي الاثني عشر والستة عشر) ، ثم على لجنة البراتيكا ، التي كان قد أوجدها لورنتزو العظيم ، ورأى رجال الدستور الجديد إعادة تأليفها . ثم تعرض على مجلس الثمانين فالمجلس الكبير . ولم يكن للمجلسين الأخيرين حق مناقشة القوانين ، بل كان عليهما التصويت فقط ، ولم يكن يسمح بالكلام إلا للمؤيدين ، كما كان الحال في الدستور القديم . ولكن مناقشة القوانين ومسائل الدولة مناقشة حرة أبيحت أمام لجنة البراتيكا وحدها ، التي كان يختار أعضاؤها من مجلس الثمانين ، ويمكن أن يضم إليهم بعض رجال القانون وبعض المواطنين الممتازين .

ويلاحظ أن التعديلات الأساسية التي اقتبست عن دستور البندقية ، لم تنشأ وتتطور في فلورنسا ذاتها . ونظراً لطبيعة اختلاف الظروف في كل من البندقية وفلورنسا ، فإن العناصر المقتبسة لن تطبق بالنجاح المرجو منها في فلورنسا . ووجد مثلاً فارق مهم بين المجلس الكبير في كل منهما . ففي فلورنسا أصبحت مسائل الدولة تعرض على المجلس الكبير لكي تنفذ نهائياً ، وكانت السلطة الأساسية في دستور البندقية من هذه الناحية ، قائمة في مجلس الشيوخ . وأصبحت للجنة البراتيكا أهمية كبيرة في إدارة شؤون فلورنسا ، ولم يكن لمجلس الثمانين بها ما كان لمجلس شيوخ البندقية من السلطان . وكانت السلطة التنفيذية في البندقية أكثر تقدماً عنها في فلورنسا . ففي فلورنسا لم يكن هناك تحديد واضح دائماً في مباشرة سلطة الحكم بين مجلس السنيوريا ومجلس الرفقاء ، مما أدى إلى حدوث التنازع على الاختصاص والسلطة . وكما رأينا من قبل ، كان عنصر التغيير السريع في مجالس فلورنسا وموظفيها ، منعاً للطغيان ، والذي لم يعطله الدستور الجديد ، عاملاً لإيجاد الاضطراب في أداة الحكم ، بعكس دستور البندقية الأرستقراطي الجمهوري ، الذي امتاز بالثبات والاستقرار ، حتى أن الدوق كان ينتخب لمدى الحياة . واضطر واضعوا الدستور الجديد إلى التقيد ببعض قواعد الدستور القديم ، حتى لا يؤدي التعديل الديموقراطي الجديد إلى حالة من الفوضى والاضطراب . وتقرر أن تجمع في مجلد واحد القوانين والنظم القديمة والجديدة ، كافة حتى تكون واضحة سهلة التناول .

ثم بحثت مسألة الضرائب . وفي الماضي كانت رسوم الجمارك تكفي حاجة الحكومة الفلورنسية . وعندما اتسعت حروب فلورنسا ، كان يقدم بعض الأغنياء قروضاً اختيارية للحكومة ، وانتهى الأمر بأن أصبحت الحكومة تفرض القروض الإجبارية لتغطية نفقاتها . وأخيراً أصبح مجلس السنيوريا يقرر عند الضرورة ، ضرائب إجبارية على كل فرد بناء على تقدير إيراده . وكان الرجال أصحاب الثروة والنفوذ يستطيعون أن يتخلصوا من هذه الضرائب الإجبارية ، فوقع معظمها على

Twitter: @ketab_n

كاهل الشعب ، فأوجد ذلك روح استياء عام . وحاول آل مديتشي في النصف الأول من القرن الخامس عشر أن يسترضوا الشعب ، فحددوا الضرائب على كل فرد بناء على تقدير دقيق للملكية والإيرادات ، وتضمَّن ذلك تحديد قدر ثابت من الضريبة على الصناعة و التجارة ، دون مراعاة تعرضها للارتفاع أو الهبوط ، وأدى ذلك إلى استياء الناس . فانسحب الكثيرون من ميدان التجارة . أضف إلى ذلك أن آل مديتشي قد حابوا أصدقاءهم وقسوا على مناوئيهم . ووجد رجال الدستور الجديد أن لا بد من تعديل نظام الضرائب .

عينت لجنة خاصة لبحث هذه المسألة . وستطبق آراء ساڤونارولا ، الذي دعا الناس إلى ضرورة معاونة الحكومة بالإخلاص في دفع الضرائب لأن للأب على الابن حقوقاً لابد من الوفاء بها . وحكومة فلورنسا هي بمنزلة الأب بالنسبة للشعب . وهي تحمي الممتلكات وتسهر على الأرواح . وفي الوقت نفسه دعا رجال الحكومة إلى فرض الضرائب على الممتلكات الحقيقية ، وإلغاء القروض والضرائب الاستبدادية . ولأول مرة في تاريخ إيطاليا تقرر فرض ضريبة عامة واحدة على الملكية قدرها ١٠٪ في السنة ، وأعفيت التجارة من الضرائب . ولعل ساڤونارولا ورجال الحكومة الجديدة أرادوا بذلك أن يعفوا أثر الطغيان السابق في جمع الضرائب ، فترة من الزمن . وبطبيعة الحال لم يستمر هذا النظام . وأعيد قبل سقوط ساڤونارولا ، أنواع من الضرائب القديمة الملغاة على التجارة وعلى المهن ونحو ذلك . ويلاحظ أن النهب وابتزاز الأموال في عهد آل مديتشي كان مقصوراً على طبقة واحدة ولكن في عهد الديموقراطية الجديد ، لما لم تفلح سلطة بعينها في السيطرة على الحكم زمناً كافياً ، اتسع نطاق النهب والعسف في جمع الضرائب والأموال . وهذا يبين أن إصلاح الأحوال لم يكن من الأمورالسهلة التحقيق ، كما ظن رجال العصر .

وكذلك أخذ رجال الحكومة الجديدة بما دعا إليه ساڤونارولا من التسامح نحو الخصوم ، فصدر عفو عام عن أنصارالحكم السابق ، ولم يتعرض أحد لهم بسوء . وأظهرت الحكومة الجديدة شيئاً كثيراً من رحابة الصدر والتسامح ، لكي تؤلف حولها قلوب الفلورنسيين ، وتزيل الفوارق وعوامل الخلاف القديمة المتأصلة في نفوسهم منذ بعيد . إلا أن هذا التسامح لن يكون له الأثر المطلوب ، وهو سيُخفي مدة قصيرة عوامل الخلاف والفرقة بين عناصر الشعب الفلورنسي ، دون القضاء عليها نهائياً . وسرعان ما ستظهر العناصر المعارضة ، وتسعى من جديد لاستعادة سلطانها القديم الضائع .

ثم بحثت مسألة استئناف الأحكام في التهم السياسية ، التي كانت تُنظر في الظروف الاستثنائية ، أمام مجلس السنيوريا أو أمام محكمة ثمانية خاصة . ولما كان أعضاء مجلس السنيوريا والقضاة يتغيرون بسرعة طبقاً لأحكام الدستور

Twitter: @ketab_n

الفلورنسي ، وتبعاً للتقلبات السياسية والحزبية ، فإن أحكامهم لم تراع تطبيق العدالة في أحوال كثيرة . وأصبح من الضروري إيجاد مبدأ استئناف الأحكام منعاً للظلم . ووجد اتجاه شعبي لعرض الأحكام المستأنفة على المجلس الكبير ، باعتباره ممثل سلطة الشعب . ولكن ساڤونارولا لم يوافق على هذا الرأي . واقترح إيجاد مجلس محدود العدد للنظر في استئناف الأحكام . ووجد خلاف في الرأي وحدثت مناقشات طويلة . وانتهز أنصار الحكم القديم الفرصة لتحقيق مصلحتهم . وعندما وجدوا أن الرأي متجهاً حتماً إلى إيجاد الاستئناف انحازوا إليه ، ونادوا بجعله من حق المجلس الكبير ، لا أن يعرض على مجلس محدود العدد . وقصدوا بذلك ، بينهم وبين أنفسهم ، أنه لا يمكن ضبط الأمور في مثل هذه الأحوال ، أمام مجلس كبير العدد إلى ذلك الحد ، حيث يسود جهل الأكثرية أمام حكمة الأقلية . ويمكن خلق اضطرابات تتيح لهم الفرصة في المستقبل ، للصيد في الماء العكر . وضربوا على نغمة حق الشعب وحرية الشعب ، وقالوا إن المجلس الكبير ينبغي أن يكون المرجع الأعلى لشؤون الدولة كافة ، ولم يكونوا في دعوتهم صادقين . وأخيراً نفذت فكرة عرض الأحكام المستأنفة على المجلس الكبير ، على عكس ما دعا إليه ساڤونارولا ، ويعدّ صدور القانون على ذلك النحو أول نجاح للعناصر المعارضة ، التي ستعمل بعد قليل ، للقضاء على ساڤونارولا وعلى الحكومة الديموقراطية الجديدة .

وجاء بعد ذلك بحث مسألة اجتماع شعب فلورنسا على هيئة برلمان عام . عارض ساڤونارولا وجود هذه البرلمانات العامة . فخاطب الناس قائلاً : « أيا شعبي! ألست الآن سيد نفسك ؟ فاحرص أيها الشعب إذاً على ألا يدعى برلمان عام ، إلا إذا كنت تريد أن تفقد حكومتك . اعلم أن الغرض الوحيد -لدعوة اجتماع برلمان عام بعد الآن- لن يكون إلا لنزع السلطة من يد الشعب . احفظوا هذا في أذهانكم وعلموه لأولادكم . . . ألا يستطيع المجلس الكبير أن يحقق ما تريدون ؟ أليست له القوة لأن ينفذ أي قانون تريدونه ؟ أرى أن تأخذوا حيطتكم فتجعلوا كل أعضاء جدد يشغلون مجلس السنيوريا ، يقسمون ألا يدعوا برلماناً عاماً . . . وإذا دعا أحد أعضاء مجلس السنيوريا إلى مثل هذا الاجتماع فليقطع رأسه . وإذا دعا إلى ذلك واحد من غير أعضاء السنيوريا فليعلن أنه ثائر على فلورنسا ، ولتصادر جميع أملاكه . وإذا دعا إلى ذلك مجلس السنيوريا بأكمله ، فينبغي أن تسقط عنهم عضويتهم في الحال ، ولتقطع أجسامهم جميعاً ، دون خشية الاثم والخطيئة » .

ويعدّ مثل هذا الكلام من جانب ساڤونارولا حماسة واندفاعاً في سبيل الدفاع عن الحكم الشعبي الجديد . ودعا إلى استخدام الوسائل نفسها التي استخدمها أنصار الحكم القديم ، إزاء خصومهم السياسيين ، مما لا يلائم رجل الدين الذي يدعو إلى السلام والرحمة . وفي الواقع كان الموقف دقيقاً يبعث على الاضطراب . ومن

Twitter: @ketab_n

غير شك استخدمت البرلمانات العامة في الماضي وسيلة في يد الطغيان لإحداث التغييرات السياسية ، ولم تعد تؤدي ما كانت تؤديه ، عندما كانت فلورنسا مدينة صغيرة . وفي هذا الوقت كان بييرو دي مديتشي وأنصاره يتآمرون على جمهورية فلورنسا ، محاولين استخدام فرنسا وبعض أمراء إيطاليا لتحقيق مصالحهم . وأدرك الشعب محاولات أنصار الرجعية عند بحث مسألة استئناف الأحكام في التهم السياسية . وعرف الناس أن أي اجتماع برلمان عام في المستقبل ، سيكون القصد منه محاولة قلب نظام الحكم والعودة إلى الدستور القديم . فتقرر إلغاء هذه البرلمانات العامة . وبذلك نجح ساڤونارولا مؤقتاً في تحديد سلطة الغوغاء ، التي تخضع بسهولة للمؤثرات السياسية والحزبية . ولم تعد هذه البرلمانات العامة مرة أخرى في المستقبل .

ثم اتجه ساڤونارولا لعلاج مسألة الربا الفاحش ، التي ضج الناس بها بالشكوى . وكان يهود فلورنسا يقرضون الأموال بربح مركب قدره ٣٢,٥٪ في السنة . حتى أن مبلغ ١٠٠فلورن كان يصبح في ٥٠سنة ٤٩,٧٩٢,٥٥٦فلورن! ووجد من قبل اتجاه نحو إنشاء بنوك للرهون لإقراض الناس بربح معتدل ، في برودجا وفلورنسا ، ولكنها لم تتحقق . وعاد ساڤونارولا إلى تجديد الدعوة إلى تلك الفكرة ، ونجح في حمل حكومة فلورنسا على إنشاء بنك الرهون[٥٥] ، لإقراض الناس بربح يتراوح بين ٥ و٧,٥٪ في السنة ، على أن يتعهد المقترض بعدم بذل المال في المقامرة . وألغيت كل المعاملات المالية مع المرابين اليهود ، وأمهلوا عاماً لمغادرة فلورنسا . وقال ساڤونارولا إنه لا يميل إلى اضطهاد اليهود ، ولكنه يعمل على اجتذابهم إلى مبادئ البر والرحمة .

وكذلك نادى ساڤونارولا بأن إصلاح الأداة الحكومية ، لا يتم بناء على تعديل نظم الحكم فقط ، بل لا بد إلى جانب ذلك من الاعتماد على الأشخاص الصالحين . وقال إنه لا يصح اختيار الأشخاص للوظائف بناء على التحيز والمحسوبية ، ولا على سبيل الإحسان والمساعدة ، ولا بد أن يكون الاختيار من كافة عناصر الشعب الفلورنسي ، دون أيّ تفرقة ، وعلى أساس الكفاية والجدارة وتحقيق مصلحة الدولة .

هذا مجمل التعديلات التي أدخلت على نظام الحكم في فلورنسا ، وهي التي يمكن أن تسمى دستور ساڤونارولا ، وقد يؤخذ على الدستور الجديد أنه لم يستطع التخلص من قواعد النظام القديم ، وأنه احتوى بذور العمل على هدمه في المستقبل . وقد يقال إن ساڤونارولا لم يبتكر نظام المجلس الكبير أو مجلس الثمانين أو حتى نظام بنك الرهون . ولكن هذا ما استطاع رجال العصر أن يصلوا إليه . ولا يمكن أن يطالب الإنسان بما ليس في قدرته . وقد امتاز ساڤونارولا بحسن البصيرة والإحساس الصادق والرغبة في خير المجتمع ، كما فهم ذلك الخير ، وببعده عن روح

Twitter: @ketab_n

الحزبية السياسية . فاستطاع أن يدرك قيمة ما أشار على حكومة فلورنسا باقتباسه . وقد عرف قدره بعض المفكرين السياسيين المعاصرين مثل ماكيافلي[٥٦] وجويتشارديني[٥٧] .

وهكذا نجد أنه في مدة لا تتجاوز العام ذهبت آثار حكم الطغيان ، ولو فترة من الزمن ، وبدت فلورنسا أنها ستنعم بالحكم الديموقراطي الحر . وقد تمت التعديلات الدستورية الجديدة دون أن تسفك قطرة دم في فلورنسا مدينة الاضطرابات السياسية العنيفة ، بفضل ذلك الراهب البسيط ، الذي لم تكن له قوة عسكرية ، ولا مقعد رسمي في الحكومة . ولكنه استطاع أن يكون روح الشعب ، وواضع القوانين . واستطاع أن يمتلك قلوب الناس من أعلى منبره ، بشكل لا مثيل له في تاريخ الإرادة البشرية . ويعدّ ساڤونارولا أحد عظماء الرجال الذين ساهموا في وضع أسس الجمهوريات الحرة في التاريخ الحديث .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع
التنبؤ عند ساڤونارولا

حالته النفسية -يتنبأ بمصيره -بعض العوامل التي أثرت فيه - كتاباته وأقواله عن التنبوء -صدقه وإخلاصه -روح العصر .

هناك ناحية في حياة ساڤونارولا توضح جانباً هاماً من شخصيته ، ألا وهي ناحية التنبوء والكشف عن المستقبل ، وما خالج نفسه بإزائها ، وما ترتب عليها من الآثار .

وجدت عوامل دفعته إلى هذا الميدان ، يرجع بعضها إلى طبيعته وحالته النفسية ، ويرجع بعضها الآخر إلى ملابسات البيئة التي عاش فيها . وقد تجاذبت نفسه عوامل متعارضة ، جعلته حيناً يعتقد بمقدرته على الرؤيا والكشف عن المستقبل ، وأحياناً أخرى كان يتردد في الاعتقاد بقدرته على التنبؤ ويعدّ نفسه مجرد مفسر يستخلص من الحياة الواقعة ، النتائج التي توافق سياق المؤثرات والحوادث .

ماذا كانت حال ساڤونارولا النفسية عقب الحوادث التي مرت بنا ؟ كان المتوقع أن يكون هادئ النفس سعيداً ، لما أحرزه من النجاح في السيطرة على شعب فلورنسا ، وفي إجراء التعديلات الديموقراطية التي أدخلت على الدستور الفلورنسي . ولكنا نجده على عكس ذلك . وما أكثر ما ينتاب عظماء الرجال من شعور خفي بالألم وتوقع الشر المجهول ، وهم في أعلى ساعات النجاح . فلم يشعر ساڤونارولا بسعادة واطمئنان في ذلك الوقت ، وبدا المستقبل مظلماً أمام عينيه ، وحاول دون جدوى أن يطرح عن نفسه ذلك الشعور الخفي الحزين .

Twitter: @ketab_n

وعظ ساڤونارولا الناس قائلاً : « إني متعب يا فلورنسا بعد هذه السنوات الأربع ، التي وعظت فيها بلا انقطاع ، والتي استنفدت خلالها كل قواي من أجلك . وإني أطأطئ الرأس للتفكير المستمر في العقاب القاسي الذي أراه يقترب ، وأخشى أن يجرفك . . . » وقال : « إني خرجت من وطني إلى بحر الدين باحثاً عن الحرية وهدوء النفس . . . ولكني وجدت العواطف والزوابع تتجمع أمام ناظري ، وأنا في سفين قد فقد الشاطئ ، وتدفعني الرياح دائماً إلى الأمام . . . »

ودوى صوته في الكنيسة قائلاً : « امنحني يا رب هذا الاستشهاد ودعني أموت سريعاً من أجلك . وإن هناك نيراناً داخلية تأكل عظامي » . وكأنه بذلك تنبأ بالموت الذي سيلاقيه عما قريب . وكان ساڤونارولا إذا أحس بذلك الشعور المحرق وهو على منبر الخطابة يتكلم بروحه وأعصابه ودمه ، وتخرج منه الكلمات حامية متلاحقة ، كالسيل الجارف العنيف ، لا يقف أمامه شيء ، ويكتسح الناس حيث يريد . وكان الرجال والنساء من كل الأسنان والبيئات من العمال والشعراء والفلاسفة يبكون بكاء حاراً لوقع كلماته الملتهبة . ولا غرو فإن من عرف كيف يبكي عرف كيف يستدر الدموع من المآقي . وكان عندما ينتهي من وعظ حماسي من هذا النوع ، يشعر بالجهد الشديد فيلزم فراشه أياماً لا يتحرك .

كان ساڤونارولا يخرج من عظاته في تلك الفترة بنتيجة واحدة : وهي أن الكنيسة تنتصر ، وأن الناس سيصبحون ذوي عقيدة واحدة وشعباً واحداً ، ولكن لابد أن ينزل الله غضبه وعقابه على الآثمين ، لكي يطهر الأرض من الخطايا والآثام . وأخذ يكرر تنبوءاته عما سيصيب بلاده من الويلات ، وبدا أنه يشعر في قرارة نفسه مقدماً بالويلات التي توشك أن تصيب شعبه ، الذي أخذ يتألم من أجل مصيره المحتوم . وأخذت تقوى في نفسه ناحية التنبوء والكشف عن المستقبل ، التي ظهرت عنده من قبل .

ومن العوامل التي دفعته إلى السير في تيار التنبؤ تأثره منذ حداثته بتعاليم توماس أكويناس ، ودراسته رؤى القديسين وأحلامهم ، مما أثار نفسه الحساسة وخياله الخصب إلى درجة لا توصف[٥٨] . كما أنه تأثر بآراء المدرسة الأفلاطونية المحدثة في فلورنسا ، بما تحتويه من عناصر الرؤيا وأثر الأرواح في حياة الناس[٥٩] . وكما رأينا وُجد إلى جانبه في دير سان ماركو الراهب سلفستروماروفي ، الذي كانت تعتريه نوبات يرى في أثنائها رؤى وأحلاماً ، ويجمجم بكلام غير مفهوم . ونشأت بين الرجلين صلة وثيقة . فأخذت تلاحق ساڤونارولا رؤى كثيرة ، كان يحاول أن يجد لكل منها التفسير الملائم . وكثيراً ما قضى ليالي طويلة راكعاً في صومعته ، مُركزاً ذهنه في تلك الرؤى التي أخذت بلبه .

أصبح ساڤونارولا متأثراً وخاضعاً لهذه الرؤى والأحلام ، وتكلم عنها كثيراً

Twitter: @ketab_n

على اعتبار أنها أهم جزء في واجبه المقدس ، الذي كان عليه أن يؤديه . وجعلها موضوعاً لتفكيره العميق ، ودراساته المستمرة ، وخصص وقتاً طويلاً للكلام عن قدرة الملائكة على إظهار الرؤى للبشر ، وجعلهم يسمعون أصواتاً في الهواء وما إلى ذلك .

وآراؤه في هذا المعنى متناثرة في عظاته وكتاباته وفي كتب خاصة . ومما كتبه في ذلك « محاورات عن الحقيقة المستمدة من التنبؤ » التي أعطاها أسلوب البحث العلمي ، على حسب ما وصل إليه أهل العصر . ويدل ما أورده في هذا البحث على إخلاصه ثم على اضطراب الأفكار في ذهنه من هذه الناحية في بعض الأحيان . وليس من المستطاع أن نعرف رأيه على وجه الدقة في تنبؤاته وفي رسالته كنبي . فأحياناً تبدو تنبؤاته عن المستقبل أنها دراسة عقلية للظروف المحيطة به . ومثال ذلك أن دراسته للكتاب المقدس ولفساد أحوال الكنيسة ، جعلته يقول إن جميع الرجال العقلاء ينبغي أن يستنتجوا من سياق الأحوال أن عقاب الله قريب . ولكن في مواضع أخرى يتضح اعتقاده أن معرفته بالمستقبل آتية من الرؤى السماوية التي أظهرها الله له لمنفعة شعب إيطاليا . وأن صفة النبوة التي منحها الله له جعلته كآلة في يد الله . وبالرغم من ذلك قد يكون مثله غير قادر حتى على خلاص نفسه . وهو متأثر في ذلك بتعاليم توماس أكويناس .

وفي محاوراته عن التنبؤ السالفة الذكر ، يسرد ساڤونارولا طائفة من المحاورات التي جرت بينه وبين سبعة أشخاص يرمزون لفضائل الروح القدس السبع . فيسأله الأول هل يتظاهر بأنه نبي لكي يقنع الناس بحقائق الدين ؟ فيجيبه ساڤونارولا بأنه ليس هناك سوى حقيقة واحدة ، وأن أي كذب ما هو إلا خطيئة . وأن أكبر الخطايا خداع شعب بأسره باسم الرب . ويسأله آخر أيكون كل هذا نوع من الغرور وراء ستار من التواضع الكاذب ؟ فأجاب كما قال توماس أكويناس بأن ليس للإنسان حق ادعاء هذا النور لنفسه . وقال : على أي أساس أستطيع أن أقيم كبرياني وغروري ؟ وسأله ثالث ألا تظن أنك تخدع نفسك ، ولو بحسن نية ؟ فيقول : كلا ، هذا غير ممكن . إنني أعرف طهارة مقاصدي . وقد عبدت الرب بإخلاص . وإنني أحاول أن أترسم خطاه . وقد قضيت الليالي الطويلة في العبادة والتأمل ، وبذلت صحتي وقواي في سبيل منفعة جاري ، وليس من الممكن أن يكون الله قد خدعني . وسأله غيره : إلى أي حد تثق في صحة نبوءاتك ؟ فحاول أن يثبت بالعقل أنه فوق العقل . ولكنه بذلك كان يقترب من نقطة حساسة ؛ لأن قواه الخارقة لا يمكن إثباتها إلا بمعجزة . وتعرَّض لأن يطالبه الناس في أي وقت بالقيام بالمعجزة ، لإثبات صحة نبوءاته . وإذا لم يستطع فمعنى ذلك أن يجد أعداؤه الفرصة سانحة لكي يوجهوا إليه ضربة قاضية .

Twitter: @ketab_n

وكذلك كتب ساڤونارولا عن نبوءاته في «ملخص في النبوءات»[٦٠] ، يحتوي على أهم الرؤى التي رآها . وهي تعطي تفصيلات مهمة عن حياته في فترات مختلفة ، وتوضح كيف أنه قاوم في أول الأمر رغبته في أن يقص على الناس رؤاه ، ولكنه عجز في النهاية عن مقاومة نفسه . وقد تداول العامة أخبار هذه الرؤى بسرعة ، وضُرب بعض الأنواط تسجيلاً لها . ومن هذه الرؤى التي سجلها في ملخصه ، ما سبق أن رآه في وقت متقدم ، مثل سيف الله الذي هدد الأرض بالويل والعقاب لآثام البشر وخطاياهم . ومنها أيضاً ما رآه في وقت متأخر مثل رحلته إلى الفردوس ومخاطبته ماريا العذراء ، ووصفه الدقيق لعرشها وما احتواه من أحجار كريمة . وانتهت تلك الرؤيا بأن حمله المسيح رسالة إلى شعب فلورنسا ، توصي بالمحافظة على تعاليمه التي طالما دعا الناس إليها ، بحرارة وإيمان .

وفي مواضع أخرى من عظاته وكتاباته ، يعود ساڤونارولا إلى معارضة هذا الاتجاه نحو الرؤيا عن طريق الاتصال بالله والملائكة . فيقول : «إنني لست نبياً ، ولا ابن نبي . إنني لا أستطع أن أدعو لنفسي صفة كهذه . ولكنني واثق من أن كل ما أعلنته للناس سوف يتحقق ، لأنه مستمد من تعاليم المسيحية . وإن خطاياكم وخطايا إيطاليا جديرة بأن تجعلني نبياً على الرغم مني . وهي قمينة بأن تجعلكم جميعاً أنبياء . والسماء والأرض تنذرانكم . وأنتم لا ترون ولا تسمعون . أنتم عُميَ القلوب ، تصمون آذانكم عن سماع صوت الرب الذي يناديكم . ولو كان لكم روح الرحمة لرأيتم جميعاً ، كما أرى أنا ، العقاب الذي يقترب منكم» .

ومهما يكن من أمر هذه الرؤى ، فإن ساڤونارولا لم يحاول أن يعلنها للناس لمجرد زيادة التأثير فيهم ، وتقوية نفوذه بينهم . ولو أنه قصد إلى خداع الناس ، فهل كان يغفل عنه أن الخداع لا بد أن يكشف أمره ، وبذلك يضع سلاحاً قوياً في يد أعدائه ؟ وإذا لم يكن صادقاً مخلصاً فكيف يجرؤ على نشر رؤاه في عدة طبعات معززة بأقواس توماس أكويناس وغيره من القديسين ؟ والرجل الذي استطاع أن يسيطر على شعب فلورنسا ، ويملأ المنابر بفصاحته ، والذي أعطى فلورنسا أفضل نظام ديموقراطي عرفته ، لا يعقل أن يعلن للناس أنه يرى سيف الله وأنه رسول المسيح إلى فلورنسا ، دون أن يكون مخلصاً في اعتقاد صحة ما رآه .

ومن ناحية أخرى كان ساڤونارولا يمثل في ذلك الاتجاه أحد تيارات العصر . ففي عصر النهضة الذي كان يمر فيه البشر في دور تجديد للشباب ، كانت ملكات الإنسان قد ثقلت عليها وطأة التغيير العنيف ، فبدت الحياة شديدة الحرارة ، حتى ارتجف لها الناس ، ولم يخل إنسان من آثارها ، وقاموا بتصرفات قد تكون صعبة التفسير في الوقت الحاضر ، ولكنها كانت طبيعية مألوفة في ذلك العصر . ومن الأمثلة على ذلك أن مارسيليو فيتشينو رئيس أكاديمية فلورنسا ، اعتاد أن يغير

Twitter: @ketab_n

جواهره من وقت لآخر ، تبعاً لما يعتقد أنه يلائم الأحوال المتغيرة . وكان يستخدم تعاويذ من أسنان الحيوانات ومخالبها . وكان يحاضر الناس عما تحتويه هذه الأشياء من قوى سحرية . وأعلن فرنتشسكو جويتشارديني السياسي المؤرخ أنه شعر بحركات الأرواح في الهواء .

على أنه كان هناك فارق بين ساڤونارولا وهؤلاء المعاصرين في تفسير هذه الظواهر . فكان ساڤونارولا يرجعها إلى قوى إلهية ، وأرجعها هؤلاء إلى قوى سحرية . على أن هذا الاتجاه العام نحو الرؤى والقوى الإلهية والقوى السحرية ، حفز الناس إلى البحث في مجالات غير مألوفة من قبل . فكان ذلك من العوامل التي ساعدت على ظهور أمثال جاليليو وغيره من علماء عصر النهضة ، الذين عاشوا في حالة من اليقظة الذهنية ، وجالوا بفكرهم وخيالهم في محيط لم يجرؤ غيرهم من قبل على اقتحامه .

وعلى ذلك لا يمكن أن نفهم ساڤونارولا دون أن نضعه في موضعه الطبيعي ، من هذه الناحية ، في طليعة رجال هذا العصر الجديد . وكأنه بإعلانه نبوءاته من فوق منبر الكنيسة قد رأى المستقبل واضحاً أمامه ، وبدا له أنه على أبواب قرن جديد يوشك أن يبدأ . ولكنه -كما رأينا- كان يتردد في تفسير ملكاته في بعض الأوقات ، بين الاعتماد على قوة نفسه وبعد نظره ودقة بصيرته ، وبين نظريات المدرسيين في الرؤيا وأثر الملائكة . وكثيراً ما كان يقف مضطرباً عاجزاً عن الوصول إلى تفسير مقنع . فكان يضطرم في نفسه ، ككل رجال عصر النهضة ، صراع عنيف بين الماضي والحاضر والمستقبل .

وعلى أيّ حال ، كان لتنبؤات ساڤونارولا أثر فعال في أذهان الجمهور ، الذي ظهر له في الماضي صدق ما تنبأ به ، كما حدث مثلاً عند وفاة البابا سستوالرابع ولورنتزو العظيم ، وعند قدوم الفرنسيين إلى إيطاليا ، وكما سيحدث عند وفاة ولي عهد شارل الثامن ، وهكذا . كما أنه سيكون لتنبؤاته أثر سيئ فيه ، عندما يستغلها أعداؤه لإثارة كنيسة روما في سبيل القضاء عليه .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر
إصلاحات ساڤونارولا الخلقية والاجتماعية

عمله على تغيير أخلاق العصر -يعلن المسيح ملكاً على فلورنسا -نجاحه في تغيير كثير من أهل فلورنسا -إقبال الناس على دخول نظام الرهبنة -مثال تحول بتوتشو إلى الراهب بندتو -نجاحه في تغيير سلوك أولاد فلورنسا - استعانته بهم في تغيير أخلاق العصر -إحراق الكتب والصور وملابس الكرنڤال -تعليق على هذا العمل - محاولته تغيير الفن الفلورنسي ومدى نجاحه -أثره في رجال الفن وفي ميكيل أنجلو خاصة .

أخذ ساڤونارولا يعمل على أداء رسالته في الحياة . وطالما دعا الناس إلى أن إصلاح المجتمع ينبغي أن يبدأ بإصلاح النفس ، وبتغيير أخلاق الناس وسلوكهم في الحياة العملية ، على أساس تعاليم الدين ، وفضائل روح المسيحية . واستمد العون من المسيح ذاته . فأعلن في إحدى عظاته أن الرب سيمنح مدينة فلورنسا رئيساً جديداً . وسكت بعض الوقت . وتطلع الناس إلى معرفة هذا الرئيس المرتقب . وصاح ساڤونارولا في الجمع المحتشد قائلاً : «رئيسنا الجديد هو يسوع المسيح ذاته . هو ملكنا . وليس لنا حاكم غيره . أيا فلورنسا سيكون لك بذلك ثروة روحية وزمنية عظيمة . إنك ستقومين بإصلاح إيطاليا والأقطار كافة ، وستنشر أجنحة عظمتك على العالم أجمع» .

حاول ساڤونارولا أن يتجنب السياسة حتى لا يثير عليه أعداءه المتربصين في

Twitter: @ketab_n

فلورنسا وفي إيطاليا . ومضى في إصلاحه الخلقي والاجتماعي . قال لشعب فلورنسا إن الحياة التي تقوم على أوامر الله وتعاليمه هي الحياة المثلى ،وإن الصداقة الجديرة بالاسم هي التي تقوم على أساس الأمانة والطيبة والفضيلة ، وإن الله حر ، والإنسان العادل حر كالله ،وإن الحرية الصحيحة تقوم على الرغبة في السير على قواعد الأخلاق القويمة . قال : « يا أهل فلورنسا إذا أردتم أن تكونوا أحراراً فلتحبوا الله أولاً ، ثم ليحب بعضكم بعضاً ، ولتحبوا المصلحة العامة . وإذا تم لكم هذا الحب ، فستكون لكم الحرية الصحيحة . . . والحب يؤدي إلى الاتحاد . . . فكونوا متحدين . إذا أردتم أن يكون لكم القوة والفضيلة ، فتهيّؤوا لقبولهما ، ولا يكون ذلك بغير الاتحاد . . . وحيث يكون الاتحاد يكون الله . حيث يكون الله فهناك كل قوة وكل فضيلة » .

قصّ ساڤونارولا على أهل فلورنسا طرفاً مما جرى بين المسيح وبينه في الرؤيا التي رآها من قبل . قال له المسيح : « كل حركة للمادة خاضعة لحركة السموات . وكل حركة تتحركها أجسامنا خاضعة لحركة القلب . وكل حركة للنفس خاضعة للعقل . وكل القوانين والحكومات خاضعة لله ، حاكم الكون الأول . انظر إذ يقال إنه إذا تفرقت عناصر شيء واحد ، فلا يصبح له وجود ، وإنه إذا أمكن تكوين وحدة من هذه العناصر المتفرقة ، عاد الشيء إلى الوجود . ولو كان من المستطاع أن أضع كل قوتي وعناصري الطيبة في مخلوق واحد ، لفعلت ذلك . ولكن ما من مخلوق واحد يستطيع أن يحتويها جميعاً ، وبذلك خلقت عدداً كبيراً من الناس ، يمثلون جميعاً وحدة عظيمة . لاحظ الطبيعة في مجموعها ، فستجد أن كل ما فيها يسعى إلى الوحدة ، سوى شعب فلورنسا الذي يؤثر أن يعيش متفرقاً منقسماً بعضه على بعض . . . وإن كل ما هو صالح في البشر هو جزء من عنصري الطيب ، وإذا عمل إنسان على نشر محاسنه بين الناس فإنه يشاركني في صفاتي الطيبة . أما الذي يفعل العكس فإنه لا يشاركني في محاسني . والحياة المسيحية لا تقوم على المظاهر والحفلات ، ولكن على ممارسة العمل الصالح ، على الرحمة والعطف على الآخرين . وعلى ذلك أعلن على الملأ أن صلاح الفرد لا يكون بغير العطف ومشاركة الإنسان الناس فيما يملك ، وبخاصة الفقراء . وعلى هذا الأساس من الحب والبر تقوم ، الديانة المسيحية » .

وكلما مرت الأيام ازداد تصميم ساڤونارولا على متابعة جهاده . وشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه لتقرير مصير شعب فلورنسا ، بعد ما وصل إليه من النجاح . واستمر يشعر بحمى الإصلاح في عروقه . ونجح بفضل حماسته وتصميمه على إصلاح شعبه في أن يحدث تغييراً ملحوظاً في نفوس كثير من أهل فلورنسا . وبعد زمن قصير بدا أن وجه المدينة يوشك أن يتغير . فألقى كثير من النساء

Twitter: @ketab_n

بحليهن وملابسهن الفاخرة ، وظهرن في أبسط الأردية . وتحول كثير من شبان فلورنسا ، الذين عكفوا على الملاذ والتمتع بالحياة ، أشخاصاً جادين ، حريصين على اتباع تعاليم الدين . وحلّت الأغاني الدينية مكان أغاني لورنتزو العظيم . وأخذ كثير من الناس يقضون أوقات فراغهم في قراءة الكتاب المقدس أو كتابات ساڤونارولا . وأقبل الناس على الصلاة ، وعطفوا على الفقراء . وحتى رجال البنوك والتجار استيقظت ضمائر كثير منهم ، وأرجعوا الأرباح التي أخذوها بغير حق إلى أصحابها . وهرع النبلاء والفلاحون من ريف فلورنسا ، وساروا على أقدامهم ليلاً ، لكي يستمعوا إلى عظات ساڤونارولا في الصباح . وجاء بعض الناس من المدن البعيدة لكي يقضوا في فلورنسا موسم الصوم الكبير لسماع ساڤونارولا .

ومن وجوه التغيير التي بدت في فلورنسا في ذلك الوقت ، ازدياد إقبال الناس على الدخول في الرهبنة . وزاد عدد رهبان دير سان ماركو من ٥٠ إلى ٢٥٠راهباً . وكان الرهبان الجدد من ذوي الحيثية ، بعضهم من الأسر الشهيرة ومن رجال الأدب والعلم والسياسة[٦١] . ولم يكن ساڤونارولا يشجع الناس اعتباطاً على الدخول في الرهبنة . بل كان يدقق ويتريث في قبولهم . ومن الأمثلة على ذلك تحول بتّوتشو الفلورنسي إلى الراهب بندتو . كان بتّوتشو ابناً لحداد فلورنسي ، فتى في شرخ الشباب ، يميل إلى التمتع بالحياة ، مشغوفاً باللهو ، له طبيعة مرحة ، شجاعاً جريئاً مشاكساً ، كما كان شاعراً موسيقياً مغنياً ، ومصوراً يقوم بعمل الرسوم الصغيرة ، التي أكسبته ربحاً كثيراً في ذلك الوقت . هكذا كان بتّوتشو عندما أخذ نجم ساڤونارولا في البزوغ . ولم يعبأ بتّوتشو بساڤونارولا في أول الأمر ، ورفض أن يشارك الناس في حماستهم له . بل انضم إلى أعدائه الساخرين منه ومن تعاليمه . ذهب بتّوتشو يوماً إلى دار سيدة جميلة من نبيلات فلورنسا ، فتكلمت بحرارة عن إعجابها بعظات ساڤونارولا . فضحك بتّوتشو سخريةً . ولكن تلك السيدة دفعته للذهاب معها لسماع ساڤونارولا في كاتدرائية فلورنسا . وعندما دخل الكاتدرائية ووجدها مكتظة بالناس ، ورأى الأعين متجهة إليه ، اضطربت نفسه ، وفكر في التراجع والانسحاب . ولكنه بقي . ولما اعتلى ساڤونارولا المنبر تغير كل شيء . وعندما قصر بتّوتشو بصره على ساڤونارولا لم يستطع أن يحيد عنه لحظة واحدة . وعندما انتهى ساڤونارولا من عظته ، خرج يضرب في الطرقات وحيداً . وأخذ يفكر في نفسه وحياته ، ويبكي . وبعد تفكير طويل عاد إلى منزله وقد أصبح رجلاً جديداً . وألقى أغانيه وأدواته الموسيقية وتجنّب أصحابه . وتابع الاستماع إلى عظات ساڤونارولا . وكان أصدقاؤه يسخرون منه . ولكنه قاومهم بصرامة . ثم جمع قواه وذهب إلى دير سان ماركو ، وارتمى تحت أقدام ساڤونارولا ، وطلب إليه بصوت متهدج أن يدخله الدير . فناقشه ساڤونارولا في الأمر ، وشرح له متاعب حياة

Twitter: @ketab_n

الرهبنة ، ونصح له بأن يراجع نفسه ويتروّى فيما هو مقبل عليه . وكان للنصيحة فائدتها . فواجهت بتّوتشو صعوبات نفسية . ولكنه نجح في التغلب على نزعات النفس ورغبات الجسد . ثم رجع إلى ساڤونارولا ، فلم يقبله أول الأمر ، وكلفه القيام ببعض الأعمال لكي يختبر مقاومته ، مثل العناية بالمرضى ودفن الموتى . وأخيراً دخل بتّوتشو الدير واتخذ اسم الراهب بندتو .

وبهذه الطريقة نجح ساڤونارولا في اجتذاب واحد من أشد الناس إخلاصاً له . وكذلك فعل ساڤونارولا مع غيره . ولم يكن يهمه أن يزيد عدد الرهبان بقدر ما كان يهمه تغيير أخلاق الناس ، وبعث تعاليم المسيحية الصحيحة . ومضى ينفث من روحه في الناس ما ملك عليهم أنفسهم ، وجذب كثيرين إليه ، وهم معجبون بدعوته الصادقة ، مأخوذون بإحساسه المخلص العميق .

كان ميعاد حفلات الكرنڤال في ١٤٩٦ آخذاً في الاقتراب . وحرص كثير من أهل فلورنسا على إقامة المباهج في ذلك الموسم ، بما شملته من العكوف على الخمر والتمتع بملاذ الجسد . وصحيح أن ساڤونارولا أحدث أثراً واضحاً في أخلاق كثير من أهل فلورنسا ، إلا أنه لم يتمكن من التغلب على العادات القديمة المتأصلة في نفوس الفلورنسيين . وحاول رجال الحكومة أن يمنعوا استمرار بعض العادات القديمة الضارة . فأصدروا لمقاومتها طائفة من القوانين والعقوبات . ولكن بدون جدوى . وذلك لأنه كان لأولاد فلورنسا ، وخاصة من أبناء الأسر النبيلة والثرية ، دور كبير في حفلات الكرنڤال ، حتى أنه يمكن تسميتها أعياد الأولاد . ومن ذا الذي كان يجرؤ على تطبيق القوانين والعقوبات على الأولاد ؟ اتخذوا من شعور العطف والأبوة سلاحاً في وجه من أراد القسوة عليهم من رجال الحكومة . فأصبح الصغار الضعفاء طغاة مستبدين ، يفعلون ما يحلو لهم . واعتادوا في مثل ذلك الوقت ، أن يقيموا بعض الحواجز في الطرقات ويقفوا الناس لكي يجمعوا منهم قهراً مبالغ من المال ، تكفي للإنفاق على مسراتهم في تلك الأعياد . وكانوا يشعلون النيران في ميدان فلورنسا ، ويدورون حولها وهم يرقصون وينشدون الأغاني الوثنية . ثم تبدأ الحجارة تطير في الهواء . ويحدث بين الأولاد تراشق وحشي بالحجارة ، يستمر بضع ساعات ، حتى يسقط منهم عدد من القتلى والجرحى . وحاول رجال الحكومة منع هذه الألعاب الوحشية ، ولكن بغير جدوى . وكان أولاد فلورنسا بذلك يتدربون على الصراع الحزبي العنيف منذ حداثتهم . وكان بعض الكبار ينظرون إليهم بعين التقدير ، لأنهم رأوا فيهم خير ذرية تشبّ الطريق الذي سلكوه من قبل .

أخذ ساڤونارولا الأمر بين يديه . ووجد أنه من المستحيل إلغاء العادات القديمة إلغاء تاماً . ورأى أن من المناسب تحويلها وجهة أخرى واستخدامها لأغراضه . وحادث ساڤونارولا أولاد فلورنسا بحب وعطف ، ونجح في التأثير فيهم ، فأقبلوا

Twitter: @ketab_n

عليه متحمسين . أبدل ساڤونارولا الأغاني الوثنية بأناشيد دينية ، كانت تلقى بالألحان القديمة نفسها ، الحبيبة إلى قلوب أهل فلورنسا جميعاً . ووضع لهم نظاماً شبه عسكري . فكل فرقة منهم تمثل أحد أحياء المدينة ، ولها رئيس من بينهم . واستقبل أعضاء السنيوريا هؤلاء الرؤساء ، وبذلك أدرك الأولاد أن لهم أهمية في نظر الحكومة ، فامتلأت نفوسهم حماسة وفخراً . وأخذوا يقفون في أماكنهم السابقة في شوارع فلورنسا ، ليجمعوا الأموال للفقراء ، لا لكي ينفقوها في مسراتهم كما كانت الحال من قبل . وأوقف التراشق بالحجارة . وفي آخر أيام الكرنڤال في تلك السنة ، قام نحو عشرة آلاف من الأولاد ، تتراوح سنهم بين السادسة والسادسة عشرة ، بعرض عظيم في شوارع فلورنسا ، وهم يصيحون «ليحيَ المسيح» ، وتتقدمهم أبواق الحكومة وطبولها . ومرت جموع الأولاد بدير سان ماركو وبميدان السنيوريا ، ثم تجمّعوا أمام الكاتدرائية . ووقف لمشاهدتهم ألوف من أهل فلورنسا على جوانب الطرقات . وكان المشهد رائعاً جداً حتى بكى كثير من الناس .

جعل ساڤونارولا من أولاد فلورنسا نوعاً من «بوليس الآداب» ، وكلفهم اتباع بعض التعليمات . فأصبحوا يذهبون بانتظام إلى الكنائس ، وامتنعوا عن حفلات السباق وعن المراقص والمساخر ، وتجنبوا صحبة الأشقياء ، وارتدوا أبسط الملابس ، وقصّوا شعورهم حتى مستوى الآذان . وقسمهم ساڤونارولا أقساماً ، لكل منها عمل خاص . فقسم للإصلاح بين المتشاحنين ، وفريق لتوقيع الجزاء ، وآخر لتقبل الهدايا والمنح ، وقسم لاكتشاف المساوئ ، وغيره لمراقبة نظافة الشوارع . وتحمس الأولاد لهذه الأعمال كلها ، ووجدوا فيها متصرّفاً نافعاً لنشاطهم المضيّع من قبل . ومضوا في عملهم فساعدوا على تغيير أخلاق الكبار . هاجموا بعض السيدات المبتذلات ، وتعقبوا الحانات وأماكن القمار .

ولم يفد احتجاج المعترضين عليهم ، لأنهم كان يعاضدهم ساڤونارولا والحكومة .

وهكذا وجد ساڤونارولا في هؤلاء الأولاد المتحمسين أعواناً مخلصين له . ونجح نجاحاً طيباً في تغيير ميولهم . وعندما أدخل في قلوبهم شعور القداسة ، ووضع في أيديهم الأناشيد الدينية ، حقق ما لم يستطع تحقيقه في حداثته . وغيّر أخلاق الأولاد الذين كانوا في سن أقرانه من قبل . وحمل بذلك على الإنسانية في صميمها . وجعل إصلاح الأطفال أساساً لإصلاح الشعب الفلورنسي كله . ووضع فيهم آماله ، لأنهم كانوا مادة لينة قابلة للإصلاح والتغيير . وفعل ساڤونارولا في ذلك ما يفعله رجال العصر الحاضر في الاعتماد على النشء الصغار لإصلاح المجتمع الإنساني .

وفي العام التالي اتجه ساڤونارولا إلى محاربة سائر مظاهر أعياد الكرنڤال .

Twitter: @ketab_n

واستخدم أولاد فلورنسا في ذلك الغرض . فأخذوا يقرعون الأبواب ويجمعون الكتب والصور البذيئة والأقنعة والملابس التي اعتاد الناس ارتداءها في تلك الأعياد . ووضع ما جمعه الأولاد في ميدان السنيوريا على شكل هرم مرتفع ، ثم أشعلت فيه النيران ، وقرعت الطبول ، وأنشد الناس الأناشيد الدينية . وتكرر الشيء نفسه في عام ١٤٩٨ ، وجمع الأولاد في هذه السنة أكثر مما جمعوه في العام السابق ، بالرغم من تقوي مركز أعداء ساڤونارولا ، وسعيهم الجدي لمقاومته والقضاء عليه .

أثار إحراق هذه الأشياء نقداً مراً من جانب أعداء ساڤونارولا ، واتهموه بالتعصب والوحشية ، وبأنه أتلف آثاراً ذات قيمة فنية عظيمة . وكان إذا اختفى تمثال فني أو مخطوط نادر اتهموا ساڤونارولا بإتلافه . ولكن أعداءه كانوا في ذلك متعسفين مبالغين . ولو فرض أنه أمر فعلاً بإتلاف أشياء ذات قيمة حقيقية فكيف سكت على ذلك مشاهير رجال العصر ، مثل مارسيليو فيتشينو وأنجلو بوليتزيانو ، وكانا من المعجبين بساڤونارولا ؟ وكيف امتدح جويتشارديني المؤرخ المعاصر طريقة ساڤونارولا في تدعيم الأخلاق ؟ وكيف اقتصر على سرد هذه الأشياء التي جمعها الأولاد ، دون التأسف على إتلاف ما له قيمة فنية ، مع أنه كان من المقدرين لتراث القدماء وللآثار الفنية العظيمة ؟

في الواقع إن المادة التي أتلفت فعلاً لم تكن لها قيمة حقيقية . لم تخرج عن كونها ملابس وأقنعة خاصة بحفلات الكرنڤال ، وبعض الصور البذيئة التي لم تكن لها قيمة فنية ، وبعض نسخ من كتاب « الديكاميرون » لبوكاتش ، الذي تهكم فيه برجال الدين ، وكان منتشراً بين أهل فلورنسا . وقد يتهم ساڤونارولا بأنه حارب التعصب بالتعصب ، على هذا النحو من إحراق هذه الأشياء ، مهما كانت قيمتها الحقيقية . وعلى كل حال فإنه لم يتعقب كل النسخ الموجودة من كتاب « الديكاميرون » ، وإنما اقتصر على نسخ قليلة ، وجعل المسألة كرمز لمحاربة فوضى الأخلاق وتدعيم تعاليم الدين الصحيح . ودفعه إلى ذلك من غير شك حماسته الدينية . وهو أقل بكثير من غيره في هذه الناحية . فهو لم يرتكب مثلاً ما ارتكبه كالڤن المصلح الديني البروتستنتي في سويسرا في منتصف القرن السادس عشر .

على أن هناك دليلاً قاطعاً يوضح لنا حقيقة ساڤونارولا في هذا الصدد . وذلك أنه اشترى مكتبة آل مديتشي وحفظها من الضياع في دير سان ماركو . كانت مكتبة آل مديتشي من بين أملاكهم التي صادرتها حكومة فلورنسا . وعندما احتاجت الحكومة إلى أموال استدانت على هذه المكتبة . وعُرضت للبيع لوفاء ما عليها . وأوشكت أن تخرج إلى فرنسا . لم ينقذ المكتبة العظيمة في ذلك الوقت غير ساڤونارولا . وبالرغم من قلة موارد الدير فإنه باع ما تبقى من أملاكه ، ونقل

Twitter: @ketab_n

المكتبة إلى حوزته . وبذلك أنقذها من الضياع ، ومن انتقالها إلى الخارج ، ثم جعلها مكتبة عامة في متناول شعب فلورنسا ، إذ أن مكتبة دير سان ماركو كانت المكتبة الوحيدة المفتوحة للجمهور في ذلك الوقت . وتم ذلك كله في الوقت نفسه الذي كانت تحرق فيه الصور والملابس الخليعة وأقنعة الكرنفال في عامي ١٤٩٧ و١٤٩٨! ولم تكن مكتبة آل مديتشي تحتوي على كتب دينية خاصة ، ولكن أغلب مجلداتها كانت خاصة بالتراث اليوناني واللاتيني عدا مجموعة كبيرة من التحف والآثار القديمة .

رأى ساڤونارولا بعد ذلك أن يستعين برجال الفن الذين تجمّعوا حوله ، في تغيير أخلاق العصر . وعرف أن رجال الفن هم حلقة الاتصال بين الصغار والكبار ، وبين الرجال والنساء ، وأن لهم أكبر الأثر في تكوين الذوق العام . وكانت لساڤونارولا نزعة فنية ، ولكنه الفن المسيحي لا الفن الحديث . وكانت إرادته القوية وروحه الديني يحدان من قوة الخلْق الفني عنده . حاول ساڤونارولا أن يؤثر في رجال الفن ، وأراد أن يكون الفن مسيحياً ينطق بالطهر ، ويسوده الأفكار الدينية . وانتقد الرسوم العارية وحاول أن يصرف رجال الفن عن دراسة الجسم البشري ، كما حارب الاتجاه الوثني في الفن .

قال لرجال الفن إنهم مسؤولون عن إفساد الذوق العام ، بتشجيع آل مديتشي ، لأنهم رسموا العذراء في ملابس العصر الفاخرة ، وإن العذراء في الحقيقة ما كانت ترتدي سوى ملابس الفقراء والشحاذين . وعاب بشدة اتخاذهم نماذج بشرية من النساء العاهرات لتصوير العذراء والقديسات . وقال إن من العار عليهم أن يمضوا في ذلك السبيل . وأخذ يشرح لهم وجهة نظره في الجمال . قال : « إنه لا يقوم على الألوان ولا على الخطوط ولا على الشكل ، ولكن على أساس التناسب والانسجام بين أعضاء الجسم كلها . والجمال الحقيقي هو جمال النفس . وجمال الشمس والكواكب في الضوء الذي يشع منها . والله نور . وهو الجمال في ذاته . وعلى ذلك فإن جمال الرجل والمرأة يزداد كلما شابه الجمال الأول . وإذا نظرتم إلى امرأتين واحدة نقية طاهرة والأخرى عاهرة مستهترة ، فستجدون الأولى تشع عليها طهارتها جمالاً قدسياً ، ولا يمكن أن توازن بها الأخرى مهما كانت مليحة . وحتى الرجال العاكفون على التمتع بملاذ الحياة ، يفضلون الأولى » . وقال للنساء اللاتي يفخرن بشعورهن وأيديهن إنهن جميعاً شنيعات ، وإن المرأة النقية الصالحة يشع منها جمال إلهي يخطف الأبطار .

ولقد بالغ الأستاذ ريو أحد مؤرخي الفن في كتابه عن الفن المسيحي في الدفاع عن موقف ساڤونارولا من الفن . قال إنه يعدّ في حكم زعيم مدرسة فنية مهمة ، هي مدرسة الفن المسيحي ، كفن متميز عن الفن الكلاسيكي أو الفن الوثني في عصر

Twitter: @ketab_n

النهضة . صحيح أن ساڤونارولا دعا إلى إحياء الفن المسيحي ، وصحيح أنه كان له اتجاه معارض لتيارات الفن المعاصر ، ولكنه لم ينجح في بث تعاليم الروح المسيحي في فناني العصر ، على النحو الذي أراده . ولو طبقت القواعد التي دعا إليها ساڤونارولا ، لكان ذلك ضربة قاضية على تقدم الفن في عصر النهضة . وصحيح أن كثيراً من فناني العصر التفوا حول ساڤونارولا واستمعوا إلى عظاته ، وتألموا للموت الذي لقيه ، حتى إن بعضهم امتنع بعد موته عن الرسم عدة سنوات . وصحيح أن كثيراً منهم حاولوا أن يصوروا أحلام ساڤونارولا ورؤاه ، وظهرت في صورهم نزعة دينية تصوفية ، ولكنهم بالرغم من ذلك لم يتبعوا أغلب ما دعا إليه ساڤونارولا . خذ مثلاً الراهب بارتولوميو[٦٢] الذي كان من تلاميذه المخلصين ، يعدّ من الأوائل الذين افتتحوا مدرسة جديدة في التصوير على أساس كلاسيكي ، تسمى بمدرسةالقرن السادس عشر . وكان كروناكر[٦٣] من أوائل من بدؤوا المدرسة الكلاسيكية في فن العمارة . وكذلك لورنتزو دي كريدي[٦٤] أصبح من تلاميذ لوياردو دا فنتشي[٦٥] في التصوير . وكانت صور ساندرو بوتيتشلي[٦٦] ملأى بالروح الشاعري والوثني . وعندما خضع لتأثير ساڤونارولا الديني أصابه قصور فني ، وأصبحت صوره جافة معقدة ووجوهه قلقة جامدة .

وسيكون تأثير ساڤونارولا أقوى وأوضح على حياة مايكل أنجلو[٦٧] وموقفه المعادي ، في بعض فترات من حياته ، لآل مديتشي ، وعلى إنتاجه الفني . ففي الناحية الأولى نجد أن ميكيل أنجلو ارتاح كل الارتياح إلى حملة ساڤونارولا على حكم الطغيان ، لأنه كان يكره الطغيان أشد الكره . وبالرغم من أنه ربيب لورنتزو العظيم ، وبالرغم من خدمته آل مديتشي في فلورنسا وفي روما ، فإنه كره استبدادهم . وعندما طرد بييرو دي مديتشي من فلورنسا في أثناء الغزو الفرنسي لإيطاليا ، اضطر ميكيل أنجلو إلى مغادرة فلورنسا ، مع من تركها من أنصار آل مديتشي أو من كان على اتصال بهم . وفيما بعد في ١٥١٢ ، عندما هاجم آل مديتشي فلورنسا ، اشترك ميكيل أنجلو في تحصين المدينة ضد آل مديتشي ، وأصبح عضواً في لجنة ثمانية الحرب . وانتهى الأمر بانتصار آل مديتشي ، ودافع عن مسلكه نحوهم ، وهم أصحاب فضل عليه ، فقال إنه لم يتكلم ضد آل مديتشي بأكثر مما فعل غيره ؛ وإنه لو كانت الحجارة تستطيع أن تتكلم ، لما تكلمت بغير ما تكلم به . وإن كان قد سوّى فيما بعد علاقته بآل مديتشي ، وقام لهم بأعمال فنية خالدة .

أما تأثير ساڤونارولا في إنتاج ميكيل أنجلو الفني ، فإنه لن يكون ذلك التأثير الذي أراده ساڤونارولا بطبيعة الحال . كان ميكيل أنجلو من أكثر الناس مواظبة على

Twitter: @ketab_n

حضور عظات ساڤونارولا ، التي لمست نفسه ، وظل يقرؤها حتى شيخوخته ، فأضفت عليه سلام النفس . ولقد أحدث تهديد العالم بالعقاب وإحساس الموت الذي أعلنه ساڤونارولا في عظاته دائماً ، أحدث أثراً عنيفاً في نفس ميكيل أنجلو ، الذي عاش حياة ملأى بالألم العنيف . فحفظ ذلك الإحساس نفسه من أن تضيع بين الأهل والأصدقاء والمطامع والرغبات . وخلق لنفسه عالماً خاصاً به ، وفناً مستقلاً مليئاً بأحلام الأنبياء الذين ينسوا من إصلاح العالم . ولكنه لم يقتصر على اتباع ما دعا إليه ساڤونارولا في الفن ، بل استمد عناصر فنه من نواح متعددة .

ومن الأمثلة على ذلك صورة «الحكم الأخير» في قبة سستو في الفاتيكان . وهي تعج بالأشكال والأوضاع المختلفة للرجال والنساء الذين يخرجون من القبر ، وقد سادهم الاضطراب والرعب لما ينتظرهم من القصاص ، جزاء ما اقترفوا من آثام ، والمسيح قائم من على عرشه وهو غاضب ثائر لما ارتكبه شعبه من الخطايا . ولما أزيح عن الصورة الستار وُجد أنه تسودها عناصر مختلفة . سادتها روح ساڤونارولا بطابعه الديني العميق ، وتهديده العالم بالعقاب . كما سادتها عناصر تخالف الروح المسيحي . فمثلاً وجدت أجسام الرجال والنساء كلها عارية . فهاجم رجال البابا مايكل أنجلو . ولكنه لم يعبأ بهم ، ورفض أن يضع ملابس على تلك الأجسام العارية . وذلك لأنه كان ممن كشفوا لغة الجسد . وأصبح لكل عضو من أعضاء الإنسان عنده ولكل شكل ووضع ، لغة ومعان لا يدركها إلا من يفهم . فالرأس والشعر والعين والكتف والصدر واليد . . . وخطوط جسد مسترخ أو نائم . . . تنطق كلها عنده بمعان متنوعة ، ثمينة ، علوية ، تقرب الإنسان من الله . ووجدوا شكل المسيح وثنياً لا مسيحياً . ولكن ذلك كان المسيح عند ميكيل أنجلو ، الذي شغف بتراث اليونان منذ حداثته ، في قصر لورنتزو العظيم . ولم يكن ذلك مما دعا إليه ساڤونارولا .

والخلاصة أن ميكيل أنجلو استمد فنه-في التصوير وفي النحت -وليس هنا مجال التفصيل - من عناصر متنوعة : من روح ساڤونارولا الديني ، ومن تراث اليونان القديم ، ومن وطنيته وحبه لإيطاليا ، ومن حرارة قلبه المحترق بين جوانحه ، ولم يكد يشعر بخفقاته إنسان .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر
ظروف فلورنسا ومحاولة آل مديتشي استرجاع سلطانهم

أحزاب فلورنسا -دعوة ساڤونارولا أمام مجلس ديني - شارل الثامن في جنوبي إيطاليا -سخط الإيطاليين عليه - الحلف المقدس ضد شارل -تراجعه -ساڤونارولا يقابل شارل - موقعة فورتوڤو -محاولة بييرودي مديتشي مهاجمة فلورنسا -إخفاقه -مهاجمة ساڤونارولا الطغاة - الامبراطور ماكسميليان في إيطاليا -حصار ليفورنو -نجاة فلورنسا من الخطر -توسيع حق عضوية المجلس الكبير - مشروع الضريبة التصاعدية -عدم مبالاة أهل فلورنسا بالدين -محاولة بييرو دي مديتشي الثانية ضد فلورنسا -إخفاقه -محاكمة المتآمرين على سلامة الجمهورية - الدفاع عنهم - موقف ڤالوري وإعدامهم .

بالرغم من الجهود التي بذلها ساڤونارولا لإصلاح أخلاق أهل العصر ، وتغيير نظام الحكم في فلورنسا ، لم يتمكن من القضاء على عوامل الخلاف المتأصلة في نفوس أهل فلورنسا . وجدت بينهم وجهات نظر ومصالح متعددة أذكت عوامل الخلاف وأعادت الروح الحزبي العنيف . فوجد أولاً فريق أطلق عليه اسم البيض ، عاضد حكم الشعب ، ولكنه لم يكن يميل إلى حكم رجال الدين عامة ، وإلى حكم ساڤونارولا خاصة . وكانوا قليلي العدد وغير متماسكين فيما بينهم . وعاضدوا ساڤونارولا لأنهم وجدوه أفضل من يعمل على توطيد حكم الشعب . ووجد فريق

Twitter: @ketab_n

الرماديين ، وهم من أنصار آل مديتشي . ولما كان العفو السياسي الذي نالوه يرجع إلى تأثير ساڤونارولا ، انضموا إليه وأعلنوا تأييدهم لحكومة الشعب ، وأخفوا في الحقيقة دسائسهم واتصالهم ببييرو دي مديتشي ، وسعيهم لرجوعه إلى فلورنسا ، وكانوا أكبر عدداً وأكثر وحدة وأشد خطراً على حكم الشعب ، لأنهم نجحوا في أول الأمر في إخفاء حقيقتهم عن الناس ، بالرغم من تحذير ساڤونارولا ويقظته . ثم وجد حزب قوي يعرف باسم الأرّابياتي (أي الغاضبين وهم رجال المال الذين اعتمد عليهم آل مديتشي في مسائل الدولة . وكان لهم نفوذ قوى في روما وفي ميلانو . وكان غرضهم أن يستولوا على سلطة الحكم في الوقت المناسب . وعملوا لحسابهم الخاص ، وكرهوا آل مديتشي الذين استأثروا بالسلطة دونهم من قبل . كما كرهوا حكم الشعب وساڤونارولا بصفة خاصة . وتميزوا بالشعور الحزبي القديم ، الذي حاول ساڤونارولا استئصاله من قلوب أهل فلورنسا . واضطر هذا الفريق إلى إظهار ولائهم لحكم الشعب ، ولكنهم سخروا من رؤى ساڤونارولا وتنبئه ، وقال إن رجال الدين لا يصلحون للسياسة . وقصدوا مهاجمة شخص ساڤونارولا ، وحاولوا أن يفضّوا الناس من حوله تمهيداً للقضاء عليه . ثم نجد حزب الشعب ويعرفون باسم البيانيوني (أي الباكين) وهم أنصار ساڤونارولا ، وكانوا حراصاً على اتباع تعاليم ساڤونارولا ، وعلى الدفاع عن فلورنسا في أوقات الخطر .

اختير كوربتزي في وظيفة رئيس الدولة -حامل لواء العدالة- في أوائل ١٤٩٥ . ولم تكن له مقدرة إدارية ، ولم يكن يهتم بالشعب ، كما كان يكره ساڤونارولا . فانتهز أعداء ساڤونارولا الفرصة ، وخاصة فريق الأرّابياتي ، وتجمعوا حول كوربتزي ووجدوا فيه أداة صالحة لتحقيق خططهم . عقد كوربتزي مجلساً دينياً على غير العادة ، ودعا إليه ساڤونارولا للنظر في أمر تدخله في شؤون الدولة . ذهب ساڤونارولا إلى قصر الحكومة وهو لا يعلم الغرض من استدعائه . وهناك حمل عليه أعضاء ذلك المجلس الديني بشدة وعلى غير انتظار ، لتدخله في شؤون الدولة . فقال لهم ساڤونارولا إن غيره من رجال الدين قد اشتغلوا قبله بالسياسة . ولا جريمة في ذلك إلا إذا لم يكن هناك غرض سام أو سعي لإعلاء شأن الدين . وتحدى الجميع أن يذكروا له جملة واحدة في الكتاب المقدس ، تمنع رجال الدين من معاضدة حكومة حرة ، لتطبيق قواعد الأخلاق والدين . وقال إن الأحرى أن تُمنع مناقشة المسائل الدينية في القصور الحكومية . وبذلك أسكت أعداءه .

نعود إلى أخبار شارل الثامن ، وأثره في ظروف فلورنسا . بعد أن غادر شارل فلورنسا مضى نحو جنوبي إيطاليا ، ماراً بروما ، ووصل حتى نابلي دون أن يعترضه عائق ، ووجد أن آل أرجون قد غادروها هاربين . وبذلك سيطر الفرنسيون بسهولة على إيطاليا . ولكن هذا النصر الفرنسي السريع سيتبعه انسحاب الفرنسيين العاجل

Twitter: @ketab_n

من إيطاليا ، وسيفقدون بسرعة ما كسبوه بسهولة . ولقد أثار الفرنسيون أنفسهم سخط الإيطاليين عليهم . وعندما اقتربوا منهم عرفوهم على حقيقتهم ، وزالت من رؤوسهم تلك الأماني في أن ينالوا الحرية ، وأن تصلح الكنيسة على أيدي الفرنسيين . فالحرية لا تُنال والإصلاح لا يتم على أيدي الأجانب . ولم يحقق شارل وعوده لأمراء إيطاليا ولشعبها . وحرص على طلب الأموال . وأظهر الجند الفرنسي عنفاً وغطرسة لا مبرر لهما في إيطاليا . ولودوفيكو سفورتزا الذي كان أول من دعا شارل إلى إيطاليا سيكون أول من يعمل على طرده من الأراضي الإيطالية . لأنه آوى بعض منافسيه ولم يعطه منطقة تارانتو التي وعده إياها . فوضع لودوفيكو نفسه على رأس الحلف المقدس الذي تكوّن في مارس ١٤٩٥ من ميلانو والبابا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والبندقية وملك اسبانيا . وأعلن أن غرض الحلف حماية العالم المسيحي من اعتداء الأتراك العثمانيين ، وسلامة الأراضي الإيطالية واستقلال الإمارات المتحالفة . ولكن السلطان بايزيد الثاني أعلن معاضدته لهذا التحالف ووعد بإرسال المال والرجال ليساعد على تنفيذ غرض الحلف الحقيقي : طرد الفرنسيين من إيطاليا . ووضعت شروط سرية لذلك الحلف : ترسل اسبانيا أسطولاً لمساعدة فردناند على استرجاع نابلي ، وتهاجم البندقية ساحل الأدرياتيك ، ويسد لودوفيكو الطريق في وجه الإمدادات الآتية من فرنسا ، ويهاجم الإمبراطور واسبانيا الحدود الفرنسية عن طريق البر . وهكذا نجح لودوفيكو بسرعة في خلق أعداء كثيرين لفرنسا . وكانت تسكانا هي الدولة الوحيدة التي ظلت موالية لفرنسا ، على الرغم من مسلك شارل إزاءها وتهديد الحلف الإيطالي إياها .

علم شارل بالخطر الذي يهدده ، وأحسّ بصعوبة موقفه إذا ما نجح الإيطاليون في قطع مواصلاته مع فرنسا . فعمد إلى الانسحاب بسرعة من إيطاليا ، تاركاً بعض الحاميات في الأماكن . ووصل إلى روما ثم إلى سيينا . وقد أثار اقتراب شارل من فلورنسا شعور أهلها . حنقوا عليه لأنه لم يف بوعوده ، على حين حرصوا هم على تنفيذ ماأخذوه على أنفسهم . وطالبهم شارل بأموال جديدة ، في الوقت الذي لم يسلم فيه القلاع التي استولى عليها . كما شجع أهل بيزا في ثورتهم على فلورنسا ، فأرسل لهم رجالاً ، إلى جانب ما وصلهم من جنوا وسيينا وميلانو . وبالإضافة إلى ذلك كله كان بييرو دي مديتشي يقترب من فلورنسا في معية شارل الثامن .

وماذا كان يزعج جمهور أهل فلورنسا وأنصار الحكم الشعبي خاصة ، أكثر من ذلك كله ؟ هبّ أهل فلورنسا وعلى رأسهم أتباع ساڤونارولا للدفاع عن كيانهم المهدّد . فحملوا السلاح وأقاموا المتاريس وجهزوا الأبراج وجمعوا ألوفاً من الجند ، من منطقة فلورنسا وما حولها ، وانتظروا سير الحوادث . خرج ساڤونارولا في ذلك الوقت إلى الناس وقال : « حافظوا على صلواتكم ، ولكن لا تهملوا شؤون الدنيا .

Twitter: @ketab_n

ساعدوا أنفسكم بكل الطرق وبكافة الوسائل . وسيكون الرب معكم . كونوا شجعاناً واحتفظوا فوق كل شيء بوحدتكم . وإذا كنتم متحدين متفقين في غرضكم ، فسيكون النصر حليفكم ، ولو كان العالم كله إلباً عليكم . وستمر بكم أوقات عصيبة ، وسترون الأعداء يحيطون بكم من جميع الجهات . . . كونوا متحدين في أنفسكم ومع الله ، وسيكون النصر لكم » .

أرسلت فلورنسا رسلها إلى شارل حيث كان في سيينا . ولكنه قابلهم بجفاف . ورجوا منه أن يعين الطريق الذي سيسلكه لكي يتأهبوا لاستقباله . فطلب إليهم أن يعدّوا كل أراضيهم لاستقباله . ورد رسل فلورنسا بإجابات شديدة اللهجة . وأخذ الموقف يزداد حرجاً . فاتجه أهل فلورنسا مرة أخرى إلى ساڤونارولا لإنقاذ الموقف . وكانت المراسلات متبادلة بين ساڤونارولا وشارل عندما كان الأخير بعيداً عن الأراضي التسكانية . ومما كتبه إليه ساڤونارولا أن حكومة فلورنسا الشعبية هي من صنع الله ، وأن من يسيء إلى فلورنسا يسيء إلى الله . وإذا لم يحافظ على تعهداته للفلورنسيين ، وإذا لم يرجع قلاعهم ، فإنه ستحل به مصائب كثيرة وتنهض الأمم لكفاحه . وكان ساڤونارولا الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يواجه شارل بقوة ويؤثر فيه ، دون أن يخشى شيئاً . فذهب إليه . وخاطبه قائلاً : « إنك قد أثرت غضب الله لأنك حنثت في وعودك لأهل فلورنسا ، ولأنك لم تُصلح الكنيسة . إنك ستنجو من الأخطار الحالية ، ولكنك إذا لم تقم بالواجب الذي تخليت عنه ، فإنه ستصيبك ويلات عظيمة ، وسيختار الله غيرك للقيام بما لم تقم به » .

وكان لهذه الكلمات أثرها في شارل ، فانصرف عن فلورنسا ، ورحل إلى بيزا ، ودخلها دخول الظافرين . وأحسن أهلها استقباله ، وأظهروا له الحب والولاء ، وأقاموا له الحفلات . وعرضوا أمامه جماعة من أجمل نساء بيزا ، وقد اتشحن بالسواد ، وأطلقن شعورهن ، ومشين عاريات الأقدام ، وأحيطت أعناقهن بحبال ، وجعلن ذلك رمز عبوديتهن البغيضة لفلورنسا ، وصحن به أن يعيد إليهن الحرية . وقد تأثر الملك لذلك ، وفكر في مساعدة أهل بيزا على فلورنسا . ولكنه لم يستطع أن ينفذ شيئاً ، ولم يتسع له الوقت للقيام بعمل جدي . وتابع شارل سيره ، حتى التقى بقوات الحلفاء عند فورنوفو . وهناك حدث قتال عنيف . ولم يعلم على وجه التحقيق في أي جانب كان النصر . ولكن الثابت أن الحلفاء لم يتمكنوا من الإطباق على القوات الفرنسية . ونجح الفرنسيون في الخروج من المأزق . وخرج شارل الثامن إلى فرنسا . وبذلك انتهى الغزو الفرنسي الأول لإيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر ، دون أن تتحقق الأطماع الفرنسية .

أدى رحيل القوات الفرنسية من إيطاليا إلى تعرض فلورنسا للخطر . فالحلفاء الذين زال عنهم خطر الفرنسيين في إيطاليا أصبحوا قادرين على توجيه ضرباتهم

Twitter: @ketab_n

إلى فلورنسا . سخطوا على فلورنسا لصداقتها لفرنسا ، ولعدم انضمامها إلى جانبهم للاشتراك في طرد البرابرة من الأراضي الإيطالية ، كما كانوا يكرهون الحكومة الحرة التي أنشأها ساڤونارولا . وأصبحت فلورنسا في موقف دقيق . ولم يكن لها من القوة ما يجعلها تستطيع مواجهة هؤلاء الأعداء المجتمعين عليها . ولم يبق لها أمل في الخلاص سوى نشوب الخلاف بينهم . وحدث ذلك الخلاف المنتظر . فبينما كان البابا والبندقية ترغبان في رجوع بييرو دي مديتشي إلى حكم فلورنسا ، كان لودوفيكو سفورتزا ، بالرغم من كراهيته لحكومة ساڤونارولا يكره أيضاً بييرو دي مديتشي . وكان على اتصال بالأرابياتي في فلورنسا ، وعمل على معاضدتهم للوصول إلى الحكم ، لأنه كان يأمل يوماً أن تصبح فلورنسا تحت سيطرته بهذه الوسيلة . ومع ذلك فإن الحلفاء أخذوا يساعدون بييرو بالمال والرجال مؤقتاً . ووضعت الخطة الحربية لمهاجمة فلورنسا من عدة نواح .

كان ساڤونارولا قد لزم الصمت حيناً ما ، نظراً للشعور العدائي الذي ازداد نحوه في روما ، كما سنرى بعد . ولكن عندما أحدق الخطر بفلورنسا من جديد . خرج ساڤونارولا عن صمته غير عابئ بما قد يناله من أذى . وخطب الناس قائلاً : « إن حياة الإنسان كفاح دائم . وعلى الأخص حياة المسيحي المخلص ، لأن عليه أن يناضل كل العقبات في سبيل الروح . فيقاتل ضد العالم ، ضد الجسد وضد الشيطان ، ويفعل ذلك على الدوام . . . . وعلينا أن نقاتل حتى الموت ، وأن ننتصر ، لأن قضية المسيح يكون النصر حليفها دائماً . لا تخشوا شيئاً ، فسيكون النصر حليفنا في النهاية . . . » ثم تكلم بجرأة وشدة وقال إنه لا يقبل أنصاف الحلول إذا تعرضت البلاد للخطر . وهاجم الطغيان مكرراً ما سبق الدعوة إليه ، فقال : «اقطعوا رأس من يحاول أن يعيد حكم الطغيان . واذكروا القانون الذي منع دعوة البرلمانات العامة ، وعلموه لأولادكم واكتبوه في كل مكان . وينبغي أن تضعوا ثقتكم في مجالسكم الحكومية التي هي من عمل الله لا من عمل الإنسان » .

أحدث كلام ساڤونارولا أثره الفعال . فبعد أيام قلائل قررت حكومة فلورنسا أنه نظراً لأن بييرو دي مديتشي يحاول الاعتداء على حرية فلورنسا ، ويعمل على إثارة أمراء إيطاليا والبابا عليها ، ويسعى لاغتصاب أموالها والاعتداء على نسائها ، ويحاول الاستبداد بحكم المدينة كما فعل أجداده من قبل ، فإنه يعدّ عاصياً ،وقررت الحكومة مكافأة مالية لمن يحمل إليها رأسه . وكذلك أحدثت كلمات ساڤونارولا أثرها الفعال في أنصاره وفي فريق الأرابياتي جميعاً . وأوجدت بينهم الرغبة في التعاون ، على الرغم من عوامل الخلاف القائمة بينهم . وأوقف القتال لمحاولة استرجاع بيزا . وجيء بالجند للدفاع عن فلورنسا ، ووضعوا في المنافذ والطرق المؤدية إليها . وسرعان ما وجد بييرو دي مديتشي نفسه محوطاً بقوات فلورنسا

Twitter: @ketab_n

من جميع الجهات . ودون طائل حاول انتظار الإمدادات التي وعده إياها حلفاؤه ، فقد تخلفوا عنه في وقت الحاجة . ولم يقو على شيء . وتفرقت قواته . واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى بلاط روما يطلب الأمان . وهكذا ذهبت محاولته الأولى هباء . وزال عن فلورنسا الخطر الذي هددها في ذلك الوقت .

بالرغم من زوال الخطر عن فلورنسا حيناً فإن ساڤونارولا أدرك ما يمكن أن تتعرض له المدينة من جديد . وعلم المحاولات التي تبذل في داخل فلورنسا وفي خارجها لقلب نظام الحكم الجديد . وشعر بما يضمره له أعداؤه من الشر للقضاء عليه لكونه روح النظام الجديد . فحرص على أن يبين للناس أخطار الطغيان والطغاة ، لكي يعملوا على تفادي ما يمكن أن يتعرضوا له من شرور . ومن كلماته المشهورة في تلك الفترة قوله : « إن كلمة طاغية معناها رجل من أكثر الناس شراً ، يعمل على ابتزاز كل شيء لنفسه ، ولا يعطي شيئاً للآخرين . وهو عدو الله وعدو الناس . والطاغية متكبر جشع محب لشهواته . ولما كانت هذه أسس الرذائل كلها ، فإن فيه كل الرذائل التي يمكن أن توجد عند إنسان . وعلى ذلك النحو تصبح كل حواسه ملتوية : تفسد عيناه بالتطلع إلى الفسوق ، وتفسد أذناه بسماع التملق . . . وهكذا . وهو يرشي القضاة ويسرق الأرامل والأيتام ويظلم الشعب ، ويحابي أولئك الذين يزينون له الاحتيال على الجماعة . ويقتله الشك ، وله جواسيس في كل مكان . ويرغب أن يبدو الجميع أمامه وعلى وجوههم الخجل وأن يكونوا عبيداً له . وعلى ذلك فحيث يوجد طاغية لا يستطع أي إنسان أن يعمل أو يتكلم بحرية . . . » . « الطاغية يريد أن يحكم غيره بالقوة . . . ويريد دائماً أن يرتفع فوق أقرانه ، وحتى فوق من هم أفضل منه . ونظراً لأنه لا يستطيع أن يستمر في مثل تلك الحالة ، ولا يستطيع أن يحصل على رغباته بغير أموال كثيرة ، فإن كل طاغية جشع ولص . وهو لا يسرق الإمارة فقط ، التي هي للشعب كله ، ولكنه يغتصب ما هو للشعب في مجموعه ، فضلاً عما يأخذه من الأفراد بحذق وبطرق خفية وعلنية في بعض الأحيان . ولما كان غرض الطاغية سيئاً فإن كل ما يصدر عنه لابد أن يكون سيئاً . وعلى ذلك فإن الطاغية لا يستطيع أن يفكر مطلقاً ، ولا أن يتذكر ولا أن يفعل شيئاً إلا إذا كان سيئاً . وحتى إذا فعل شيئاً حسناً لا يفعله لعمل الخير ، ولكن لكي ينال الشهرة ويكتسب الأصدقاء ، بقصد الاحتفاظ بالحالة الشاذة التي هو عليها . والشيطان ملك المتكبرين ، ولا يفكر مطلقاً في شيء سوى الشر . وحتى إذا قال بعض الصدق أو إذا عمل شيئاً له مظهر الخير ، فإنه يفعل ذلك كله بقصد سيئ . . . وكذلك يحاول أن يظهر أنه متدين ومخلص في عبادة الله . ولكنه لا يفعل سوى أشياء ظاهرية ، مثل الذهاب إلى الكنيسة وعمل بعض الإحسان وإنشاء بعض الكنائس والقباب ، والنقوش والزخارف الكنسية ، لمجرد

Twitter: @ketab_n

التظاهر . ولكنه من ناحية أخرى يفسد الدين باغتصابه الخيرات وإعطائها لأتباعه ومداهنيه . . . » . « فاحذري يا فلورنسا أن يظهر فيك طاغية . إنه سبب كل الآثام التي يرتكبها الشعب . وسيحاسبه الله . وسيحمل جريرة ما ارتكب . وأنت أيها المواطن الذي تتبع الطاغية . إنك لست أقل منه بؤساً . فإن لسانك يُعقل إذا ما خاطبته ، وكذلك لا تقوى عيناك على التحرك إذا ما نظرت إليه ، وإن شخصك خاضع له ، وما تمتلكه تحت تصرفه . إنك تضرب بالسياط ومع ذلك يجب أن تشكره! »

هكذا حمل ساڤونارولا على الطغاة والطغيان بحماسة وشدة . ويدلنا ذلك على مدى إحساسه بالخطر الذي يهدد فلورنسا ، وعلى كراهيته للطغاة ، وعلى محاولته بذل الجهد المستطاع للحيلولة دون رجوع حكمهم إلى فلورنسا .

ولقد اتهمه أعداؤه كما اتهمه بعض الكتاب بأنه اتصف بالتحيز وبالروح الحزبي الذي عمل على محاربته . وبأنه سعى إلى إعلاء شأن أنصاره على حساب خصومه . وأنه حاول أن يبدل طغيان آل مديتشي بطغيان جديد . ولكن ذلك غير صحيح . كيف يمكن أن يعدّ ساڤونارولا طاغية إذا لاحظنا سعيه لإصدار العفو العام عن أنصار آل مديتشي ، ودعوته عناصر فلورنسا المختلفة ، وفيهم أعداؤه ، إلى الاتحاد وإلى نسيان المصالح الشخصية ، وإلى الحرص على تحقيق المصلحة العامة ؟ ألم يدعُ ساڤونارولا إلى اختيار الأشخاص في وظائف الدولة بناء على الكفاية والجدارة ومصلحة الشعب دون الاعتبارات الحزبية والشخصية ؟ وهل طالب أحداً باختيار أعضاء الحكومة من أنصاره وحدهم ؟ ألم يصل إلى مركز رئيس الدولة (حامل لواء العدالة) أشخاص لا يرضون عن ساڤونارولا ، بالرغم من أن مداد الدستور الجديد لم يكن قد جف بعد ؟ وعندما نجحت العناصر المعارضة له في الخفاء في رفض مشروع إيجاد هيئة محدودة العدد للنظر في استئناف القضايا السياسية ، ألم يخضع ساڤونارولا ويسلم بالأمر الواقع ، بالرغم من اقتناعه بما يمكن أن تتعرض له فلورنسا في المستقبل من عوامل الاضطراب ؟ وهل أنصت إليه رجال الفن المعاصرون واتبعوا ما دعا إليه ؟ وماذا فعل عندما قصر أغلبهم عن تنفيذ ما أراد ، وتابعوا تيار العصر الفني ؟ ألم يتركهم وشأنهم ، وهل من الطغيان أن يدعو الناس إلى اتباع تعاليم الدين والأخلاق ، بالرغم من مخالفة ذلك لروح العصر ؟ وهل من الطغيان في شيء أن يحارب الطغيان السياسي في فلورنسا ، والطغيان السياسي البابوي ، مع توقعه المصير المحتوم الذي ينتظره ؟

لم تكن فلورنسا ذات التاريخ العاصف المضطرب ، تخرج من مشكلة حتى تواجهها مشكلات أخرى . فاهتمام الناس بالسياسة ونظام الحكم ، سبب هبوط التجارة والصناعة الفلورنسية . والأموال التي دفعت إلى ملك فرنسا ، وتكاليف الحرب ضد بيزا ، التي خرجت على فلورنسا منذ قدوم شارل الثامن إلى إيطاليا ،

Twitter: @ketab_n

قد أرهقت ميزانية فلورنسا . فضلاً عن أن فلورنسا لم تستطع التغلب ، حتى ذلك الوقت ، على مقاومة أهل بيزا العنيفة . واضطرت الحكومة إلى العودة إلى طلب الأموال وفرض الضرائب على الشعب . كما أن محصول القمح لم يف بالحاجة ، وهددت الناس المجاعة . أضف إلى ذلك ظهور إصابات بالطاعون زادت اضطراب أهل فلورنسا .

ثم أخذ يتجدد الخطر الخارجي على فلورنسا . شاع أن ملك فرنسا يفكر في غزو إيطاليا مرة أخرى . وخشى لودوفيكو سفورتزا أن يتجدد ذلك الغزو . وبحث عن حلفاء جدد . فاتجه هذه المرة إلى الامبراطور ماكسميليان ، وحرضه على أن يعيد سلطة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في إيطاليا ، وأن يعيد الأمن الداخلي إلى إيطاليا . وظن أن وجود الامبراطور في إيطاليا يمنع قدوم الفرنسيين إليها ، الذين عرف حقيقتهم منذ أمد قريب . وأدرك أن الامبراطور يعوزه المال والجند ، وبذلك سيصبح لودوفيكو صاحب السلطة الحقيقية في إيطاليا ، عندما يمده بما يحتاج إليه .

وبينما كان ماكسيمليان يسير نحو إيطاليا ، انتهز البابا الفرصة للسيطرة على فلورنسا . وأرسل قواته لمهاجمة أراضي الجمهورية ، بمساعدة جند سيينا . ولكن الفلورنسيين صمدوا لأعدائهم ، وصدوا هجماتهم ، واضطروهم إلى الفرار مهزومين . وانتصر الفلورنسيون بعد أن سحبوا أغلب قواتهم من جبهة القتال في بيزا ، التي تعرضت لخطر مهاجمة جند لودوفيكو وماكسميليان . تجنب الامبراطور المرور بميلانو ووصل حتى جنوا ، ثم إلى سبتزيا بطريق البحر ، ومنها اتجه نحو بيزا ، الذي قابله أهلها بحماسة وطلبوا مساعدته على فلورنسا . واتجهت قوات ميلانو والبندقية والامبراطور إلى محاصرة ليفورنو براً وبحراً ، لكي يمنعوا اتصال فلورنسا بالخارج من تلك الناحية .

وبالرغم من تلك الأحوال العصيبة التي مرت بفلورنسا ، لم يفقد الفلورنسيون شجاعتهم . وأعدوا الجند والسلاح ، وجاؤوا بالإمداد ، وأبدوا شجاعة فائقة وتصميماً في الدفاع عن كيانهم . ودعت الحكومة ساڤونارولا أن يخطب في الناس لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية . قال ساڤونارولا : « إن الخير الذي وعدت به فلورنسا سوف يأتي . وإن الآثمين الأشرار سينالهم عذاب الجحيم في الدنيا والآخرة . وثقوا أنكم إذا لم تغيروا ما بأنفسكم ، فإنكم ستلاقون شر المصائب والويلات . . . » ودعاهم إلى تقديم جهودهم إلى الحكومة ، وأن يتركوا جانباً كل عوامل الخلاف الداخلي ، حرصاً على المصلحة العامة .

وحدث أن وصل بعض السفن المحملة قمحاً من مارسيليا ، وأمكنها التسلل إلى ليفورنو . فكان لذلك رنة فرح في نفوس أهل فلورنسا ، واعتقدوا أن ذلك

Twitter: @ketab_n

حدث بكرامة ساڤونارولا . وخدمت الأحوال فلورنسا فلم يساعد جنود البندقية وميلانو جند الامبراطور مساعدة جدية في قتال فلورنسا ، لأنهم خشوا استفحال نفوذه . وكل من البندقية وميلانو لم ترغب في أن تستولي الأخرى على ليفورنو . وأبدى الجند الفلورنسي شجاعة أمام الأعداء ، وشتتوا شمل جند الامبراطور . ثم عصفت الرياح بسفن البندقية أمام ليفورنو ، وكان ماكسميليان قد ضجر من القتال الذي لا طائل تحته ، فقرر الانسحاب بقواته إلى لمبارديا . ونجت فلورنسا بأعجوبة من تلك المخاطر التي أحاطت بها .

ومما هو جدير بالملاحظة بعض العوامل التي ساعدت على اضطراب أحوال فلورنسا الداخلية ، وكان من شأنها تقوية العناصر المعارضة للحكم الشعبي الجديد . فمن ذلك أن مجلس السنيوريا الذي انتخب وعلى رأسه فرنتشسكو فالوري لشهري يناير وفبراير ١٤٩٧ كان من أنصار النظام الجديد . وكان من المنتظر أن تعمل الحكومة على مقاومة العناصر المعارضة مقاومة جدية . وأشار ساڤونارولا بضرورة تنقية المجلس الكبير من أعداء جمهورية فلورنسا . ولكن حدث العكس . رأى فالوري أن يزيد أعضاء المجلس الكبير ويوسع حق العضوية ، بتخفيض سن العضو إلى ٢٤ سنة . اعتقد فالوري أن اشتراك العناصر المعارضة من حزب الأرّابياتي في الحكم -تبعاً للقانون الجديد- سيحملهم على الكف عن مناهضة النظام الجديد ، وأنه سيقوي الجمهورية بإدخال أكبر عدد ممكن من شعب فلورنسا في المجلس الكبير . ولكن لم يحدث ما كان يأمله فالوري . وعندما أصبح لهذه العناصر المعارضة مركز في الحكومة ، لم تتردد في استخدام نفوذها ضد نظام الحكم الجديد . ولم يتبين أعضاء مجلس السنيوريا ذلك الخطر إلا بعد فوات الوقت .

وبعد قليل اقترح مجلس السنيوريا مشروع الضريبة التصاعدية على الدخل . وبطبيعة الحال لقي المشروع معارضة قوية من أصحاب الثروة في فلورنسا . وحدث نقاش بين أنصار المشروح ومعارضيه ، يشبه ما يحدث في وقتنا الحاضر . قال أنصار المشروع إن المساواة بين الناس في الضرائب تقتضي وضع أحمال متساوية ومناسبة عليهم . والفقير الذي يدفع عشر إيراده يكون مظلوماً بالنسبة للغني الذي يدفع عشر إيراده فقط . وإن فلورنسا قائمة على ما يشبه قطعة قماش كبيرة ، تكفي كل سكانها . ولكنها موزعة بغير عدالة على الناس . فهناك من يأخذ قطعة تغطيه أكثر من ثلاث مرات ، على حين لا يكفي نصيب بعض الناس لتغطية أجسامهم . وإن عدم العدل يفتح أبواب فلورنسا أمام بييرو دي مديتشي . ولكن وجد رجال السنيوريا أن الوقت لم يحن بعد لتنفيذ مثل ذلك المشروع . وكان ذلك كسباً للعناصر المعارضة .

ثم إن شعب فلورنسا في مجموعه كان شعباً يميل إلى الحرية ويمتاز بالذكاء

Twitter: @ketab_n

والتغيّر ، والتردد بين الشك والتعصب . أنصت شعب فلورنسا إلى ترديد ساڤونارولا الدعوة إلى الحرية وإلى مدافعة الطغيان . ومزج ساڤونارولا في كلامه بين الدين والحرية ، لكي يزيد من التفاف الناس حوله . وحاول أن يجعل الحرية السياسية تخدم الدين . ولكن الفلورنسيين في مجموعهم كانوا يؤثرون الحرية على الدين . ولم يهتموا بالدين إلا على أنه وسيلة إلى تحقيق الحرية والعدالة . وكان عدم مبالاة كثير من أهل فلورنسا بالدين لذاته ، عقبة كؤوداً ، لم يستطع ساڤونارولا أن يتغلب عليها . ولم ينجح في أن يجعل أغلب شعب فورنسا متديناً بإخلاص . أصبح ساڤونارولا معبود الجماهير لأنه أنشأ الجمهورية الجديدة ، ودافع أغلبهم عنه لأنه رفع لواء الحرية أمام طغيان البابا وآل مديتشي ، لا لمجرد كونه رجل دين . وكان ذلك من العوامل الفعّالة التي ستغير مجرى الحوادث ضد ساڤونارولا ، بعد قليل .

عاد طيف آل مديتشي يهدد فلورنسا من جديد . فبعد أن أخفق بييرو دي مديتشي في الرجوع إلى فلورنسا في ١٤٩٥ ، عاود الكرة في العام التالي . ووجد في روما وفي كراهية البابا لساڤونارولا ولحكومة فلورنسا الجديدة ، الفرصة للقيام بمحاولة جديدة . وما فتئ يفكر في الانتقام من أعدائه ، أعد قائمة بالأشخاص والأسر التي ينوي الانتقام منها إذا ما رجع إلى فلورنسا . واتصل ببعض أمراء إيطاليا لمساعدته في تحقيق مشروعه . كما حاول أن يجمع ما يستطيع من الجند المرتزقة . واعتمد في نجاح مشروعه على المنافسة والصراع الداخلي بين أحزاب فلورنسا . وفي ذلك الوقت كان الكفاح قد بلغ حداً قوياً بين الأرّابياتي وأنصار ساڤونارولا . وحدثت مشاكسات ومصادمات بين الفريقين . ووازن بينهما حزب الرماديين من أصحاب الثروة في فلورنسا . وحدث أن وصل إلى مركز رئيس الدولة برناردو دل نيرو ، وهو من أشياع آل مديتشي . وكان يؤيد رجوعهم إلى الحكم ، أو إقامة حكومة أميل إلى النظام الأوتوقراطي . فاتصل أنصار آل مديتشي ببييرو وحرضوه على القدوم إليهم ، ووعدوه بالخروج إليه إذا ما أقبل على المدينة . وإن يكن برناردو دل نيرو عارض في ذلك لأنه أدرك أن الفرصة لم تحن بعد .

اغتر بييرو بدعوة أنصاره ، وقرر المسير إلى فلورنسا قبل أن يستكمل أهبته للقتال . ووصلت أخباره إلى فلورنسا وهو في طريقه إليها . حاول برناردو دل نيرو أن يخفي شعوره الحقيقي . وانطلق جمهور أهل فلورنسا لإعداد وسائل الدفاع عن المدينة . ولم يجزع ساڤونارولا وقال إن بييرو سيأتي حتى أبواب فلورنسا ، ثم يرجع عنها دون إحراز أي نجاح . وهذا هو ما حدث . فعندما وصل بييرو إلى أبواب المدينة لم يخرج إليه أحد من أنصاره . وانتظر يوماً كاملاً دون جدوى . وخشي أن يقطع عليه الجند الفلورنسي الذي يحارب بيزا خط الرجعة . فاضطر إلى الانسحاب

Twitter: @ketab_n

في الحال قبل أن يقع في الفخ .

ولقد أدت محاولة بييرو دي مديتشي الثانية للرجوع إلى فلورنسا وإخفاقه فيها ، إلى اضطراب خواطر أهل فلورنسا . وقرر رجال الحكومة إجراء تحقيق دقيق لمعرفة المشتركين في هذه المؤامرة ، لمحاولة منع مثيلاتها في المستقبل . وتغير أعضاء الحكومة بمن فيهم برناردو دل نيرو في الوقت المقرر ، طبقاً لأحكام الدستور الفلورنسي . وكشف التحقيق عن مؤامرة محكمة لقلب نظام الحكم في فلورنسا وإرجاع آل مديتشي . وقبض على لامبرتو دل أنتِلاّ من أتباع آل مديتشي . وثبتت محاولات بييرو الجديدة في سبيل استعادة سلطانه الضائع . رأى بييرو أن ينتظر قدوم منتصف أغسطس ١٤٩٧ ، عندما يخرج كثير من أهل فلورنسا إلى الريف ، للتمتع بفصل الصيف ، وهرباً من الطاعون الذي عاد إلى الظهور مرة أخرى ، ويعمل على الاتصال بهؤلاء الفلورنسيين ، والتأثير فيهم بتوزيع الخبز والمال ، وكان ينوي أن يسمح لهم بمهاجمة منازل بعض الأغنياء من أعدائه ، وظن أنه بذلك يستطيع أن يحمل قسماً كبيراً من أهل فلورنسا على القيام بثورة في مصلحته . وأدرك رجال الجمهورية الخطر الذي يتهددهم .

عينت لجنة من عشرين عضواً للنظر في هذه القضية الهامة ، التي اتهم فيها بعض مواطني فلورنسا من أصحاب الحيثية ، ومن بينهم برناردو دل نيرو رئيس الدولة السابق ، بتهمة الخيانة العظمى والتآمر على سلامة الدولة . وثبتت إدانتهم . واقترح رئيس الدولة دومنيكو بارتولي أن تعرض القضية على المجلس الكبير لإصدار حكمه النهائي فيها ، باعتباره هيئة الاستئناف العليا ، التي تنظر أمامها القضايا السياسية ، على حسب نصوص الدستور الجديد . ولكن هيئة الدفاع عن المتهمين لم يرقها ذلك الاقتراح ، لأنهم خشوا غضب ممثلي الشعب في المجلس الكبير . وأمل المتهمون النجاة من الخطر ، باقتراب موعد تغيير أعضاء مجلس السنيوريا ، واحتمال مجيء أعضاء مناصرين لقضيتهم . وفي الوقت نفسه كان بييرو دي مدتيشي يحاول أن يجمع قوات جديدة في منطقة رومانيا لمهاجمة فلورنسا مرة ثالثة . ولكن لم تسر الأمور كما يريد .

عقد مجلس السنيوريا محكمة كبيرة العدد لإصدار حكمها ، مكونة من المجلس ذاته ومن مجلس الرفقاء ومن لجنة العشرة للحرب ومن ثمانية الأمن والحفظ ومن ضباط القانون . . . ومن مجلس الثمانين كله . ووصل مجموع الأعضاء إلى ٦٣١ . وأباحت السنيوريا حق إبداء الرأي ولو كان معارضاً لرأي الحكومة ، مغضية بذلك عن التقاليد القديمة . وقررت هذه المحكمة الكبيرة بأغلبية ساحقة إعدام المتهمين ومصادرة أملاكهم .

ولكن لم يفقد المتهمون ولا هيئة الدفاع عنهم الأمل في إنقاذ حياتهم .

Twitter: @ketab_n

واعتمدوا على أنه من الأصوات القليلة التي صوّتت في مصلحتهم أربعة من أعضاء مجلس السنيوريا ذاته . ففكروا مرة أخرى في طلب استئناف القضية أمام المجلس الكبير . وأدى هذا التسويف إلى اضطراب خواطر أهل فلورنسا . وقال أنصار الحكم الشعبي إن أنصار آل مديتشي لا يلجؤون إلى حكم الشعب وإلى المجلس الكبير إلا إذا وقعوا في الخطر ، وإنهم في الحقيقة لا يعبؤون بحكم الشعب ، وإنما يريدون جمع السلطة في أيديهم بكافة الوسائل . وإنه لا حق لهم في استئناف قضيتهم أمام المجلس الكبير ، لأن مسألتهم نظرت أمام محكمة كبيرة ، ضمت رجال الحكومة والقضاة وأصحاب المنزلة في فلورنسا وأعضاء مجلس الثمانين ، ولم تنظر أمام محكمة ثُمانية العدد فقط ، حتى يطلب استئنافها أمام المجلس الكبير . وإن المقصود بذلك التسويف والتأخير وكسب الوقت ، مما يعرض فلورنسا لخطر الحرب الأهلية وللخطر الخارجي . وكانت الأنباء قد وصلت بجهود بييرو ولودوفيكو والبابا ضد فلورنسا . وفي الواقع لم يكن هناك ما يمنع من استئناف حكم الإعدام أمام المجلس الكبير ، بالرغم من مقاصد ونيات آل مدتشي ، إلا أن الأحوال الداخلية والخارجية التي كانت تهدد بالخطر ،لم تسمح بذلك .

وطال النقاش إلى ساعة متأخرة من الليل ، دون الوصول إلى رأي قاطع . وهنا نهض فرنتشسكو فالوري أحد رؤساء الدولة السابقين ومن أنصار الحكم الشعبي ، وقرر مصير ذلك الموقف المضطرب . تكلم بصوت كالرعد وبعينين يتطاير منهما الشرر . قال : «لتأخذ العدالة مجراها ، وإلا قامت الثورة . لماذا دعوتم يا أصحاب السعادة كل هؤلاء المواطنين الذين صوّتوا ضد هؤلاء المجرمين ، الخائنين للوطن والعاملين على هدم الحرية ؟ . . . ألا تسمعون الصيحة العامة التي نادى بها كل من يحرص على سلامة بلادنا ؟ ألا تشعرون بالخطر العاجل الذي يهددنا ؟ ينبغي أن تذكروا يا أصحاب السعادة أنكم وُضعتم في مراكزكم بإرادة الشعب للدفاع عن حرية فلورنسا . وإذا أهملتم القيام بواجبكم لمصلحة المواطنين الخونة ، فثقوا أن هناك كثيرين مستعدين للدفاع عن غرض عادل مقدس مثل هذا ، مما يعرّض للخطر كل من يعارضه . ونظراً لأن اللجان الحكومية والقضاة ومجلس الشيوخ وغيرهم من وجوه القوم قد قرروا إعدام الخونة ، ونظراً لأن التأخير من شأنه أن يعرّض البلاد للخطر والاضطراب ، فينبغي بغير إبطاء ، وفي هذه الليلة ذاتها ، أن ينفذ مجلس الثمانية حكم الإعدام في المواطنين الخمسة ، الذي نطق به الحاضرون في هذا الاجتماع » . وكان لهذه الكلمات تأثيرها الفعّال . فصوّت باقي أعضاء مجلس السنيوريا ضد أولئك المواطنين . وأُعدموا في الساعة الثانية صباحاً وسط لعنات الجمهور .

وفي أثناء ذلك كله لم يتدخل ساڤونارولا ولم ينطق بكلمة . وكان قد أصدر

Twitter: @ketab_n

البابا ضده قرار الحرمان منذ قليل ، وكانت هناك محاولات لرفعه عنه . ومن الثابت أنه لم يتصل بأحد في تلك الفترة للتأثير في محاكمة أولئك المواطنين . ولا نعرف على وجه التحقيق رأيه في تلك القضية . ولكنا نعرف أنه في أثناء محاكمة ساڤونارولا فيما بعد قال إن موت برناردو دل نيرو لم يرضه وإنه كان يفضل نفيه من فلورنسا .

ونستخلص من ذلك كله طبيعة الصراع بين أنصارالحكم القديم وأنصار الحكم الجديد ، وما حاوله كل فريق لتحقيق أغراضه ، وما ترتب على ذلك من تعريض فلورنسا للاضطراب الداخلي . كما تعرضت فلورنسا للخطر الخارجي ، وأصبحت هدفاً لمطامع السياسة البابوية وميلانو وآل مديتشي . وكان لا بد من حماية فلورنسا من الأخطار التي تهددها في الداخل والخارج ، بضرب المثل في القضاء على المؤامرات والمتآمرين على جمهورية فلورنسا . وفعلت فلورنسا في ذلك ما قام به غيرها من الحكومات والشعوب في أحوال مشابهة .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر
ساڤونارولا والبابا

أعداء ساڤونارولا يثيرون البابا عليه -اسكندر يكتب إلى ساڤونارولا -اعتذاره عن الذهاب إلى روما -قرار ضم المجمع التسكاني إلى المجمع اللمباردي -معارضة ساڤونارولا ودفاعه -البابا يطلب امتناعه عن الوعظ - حكومة فلورنسا تتوسط لمصلحة ساڤونارولا -تساهل البابا -البابا يعرض قبعة الكردينالية على ساڤونارولا - رفضه -يعلن خضوعه لكنيسة روما ولكنه لا يطيع الأوامر المخالفة للدين -مهاجمة سلوك رجال الدين -أعداؤه يؤلبون البابا عليه -دفاع أنصاره -حنق البابا -ساڤونارولا يعظ أمام الحكومة -قرار البابا -ضم المجمع التسكاني إلى المجمع الروماني -عدم خضوع ساڤونارولا -مهاجمة كنيسة روما .

لم يكن هناك في أول الأمر من الأسباب ما يدعو إلى وقوع الصدام بين البابا وساڤونارولا . ولم يفكرساڤونارولا مطلقاً في الخروج على كنيسة روما أو في عصيان البابا . وأعلن وسيعلن في أكثر من مناسبة خضوعه وطاعته لكنيسة روما . ولكن السياسة ستلعب دورها ، وستثير غضب البابا على ساڤونارولا ، وسيعمل أعداؤه على إذكاء عوامل الخلاف بينه وبين اسكندر بورجيا .

Twitter: @ketab_n

كتب أعداء ساڤونارولا من الأرَابياتي إلى اسكندر بورجيا ، وبالغوا في نقل أخباره وفسروها تفسيرات خاطئة ، وقالوا إنه يتحدى البابا ورجال الدين ، وإنه مسبب الفتنة ، ومثير الشعب على آل مديتشي ، وإنه يعارض انضمام فلورنسا إلى الحلف المكون لطرد الفرنسيين من إيطاليا . وفي ذلك الوقت كان الراهب ماريانو دا جناتزانو في روما ، لايزال يذكر إخفاقه أمام ساڤونارولا ، فأخذ يؤلب البابا عليه ، ويتآمر لمصلحة آل مديتشي على ساڤونارولا وجمهورية فلورنسا . وكان لهذه المحاولات أثرها في نفس البابا . وازداد حنق البابا عندما هاجم ساڤونارولا حياة رجال الدين ، في الوقت الذي ولد له الابن السادس أو السابع من أبنائه غير الشرعيين ، وهو رأس الكنيسة الكاثوليكية . فانزعج البابا وشعر نحو ساڤونارولا بشعور الخوف والكراهية .

أرسل البابا إلى ساڤونارولا كتاباً رقيقاً في يوليو ١٤٩٥ ، قال فيه إنه يسره أن يسمع عن حماسته للدين ، وإنه سمع بدعوته أن تنبؤاته مستمدة من الله . وطلب إليه الحضور إلى روما لمقابلته ومباحثته في ذلك ، وإنه سيلقاه بالترحاب . ولكن ساڤونارولا لم ينخدع بذلك . وكانت أخلاق اسكندر بورجيا معروفة للناس جميعاً . عرف أنه يريد اغتياله . وطلب إليه أنصاره البقاء في فلورنسا ، لأنها محتاجة إليه ، وخاصة أن رحيل الفرنسيين من إيطاليا قد عرّض فلورنسا للمخاطر . ووجد ساڤونارولا نفسه في مركز حرج . فإما أن يطيع البابا ويعرض نفسه للاغتيال ، وإما أن يعصيه ويعرض نفسه لغضبه ولمؤامرات الأرَابياتي . وفي الوقت ذاته عانى ساڤونارولا اضطرابات في أمعائه . وبدا أثر ذلك على وجهه عندما كان يحاول اعتلاء منبر الوعظ . واجتهد ساڤونارولا في التحامل على نفسه ، وعاوده بريق عينيه عندما كانت تأخذه حمية الخطابة ، ولكن كان ذلك على حساب صحته . فأشار عليه الأطباء بتجنب المجهود والتزام الراحة التامة .

رد ساڤونارولا على كتاب البابا إليه فقال إن رغبته الحارة أن يزور آثار روما المقدسة وأن يطيع أمره . ولكنه يشكو من مرض خطير لا يزال يهدد حياته . ثم إنه يخشى السفر لاحتمال تعرضه لغدر أعدائه داخل فلورنسا وخارجها . والحكومة الجديدة التي أوجدها في فلورنسا لم تثبت أصولها بعد ، وهي معرضة للخطر إذا لم تنل المساعدة المستمرة . وقال إن رحيله سيلحق ضرراً كبيراً بالمدينة ، على حين أنه لن يفيد روما في شيء يذكر ، ولا يستطيع أن يتصور أن رئيسه الأعلى يرغب في هدم مدينة بأكملها . ورجا منه أن يقبل اعتذاره . فأرسل إليه البابا أنه يقبل الاعتذار .

وبعد قليل أرسل البابا فجأة إلى رهبان سانتا كروتشي في فلورنسا يقول إن ساڤونارولا يُحدث البدع وينشر بين الناس العقائد الباطلة ، ويحمل الناس على

Twitter: @ketab_n

الاعتقاد بأنه مرسل من الله ، دون إثبات ذلك بالمعجزات . وقرر البابا إعادة المجمع الديني التسكاني وديرسان ماركو إلى تبعيته للمجمع اللمباردي . وطلب إلى ساڤونارولا أن ينتظر أوامر رئيسه الجديد لمعرفة المكان الذي سينقل إليه . وحرم عليه الوعظ العام أو الخاص ، وهدده بالحرمان إذا خالف هذه الأوامر .

لماذا تغير موقف البابا ، بعد قبول اعتذار ساڤونارولا ؟ ولماذا أصدر أوامره عن طريق رهبان سانتا كروتشي منافسي رهبان سان ماركو ؟ قصد بذلك التشهير به وإعلان الأمر على الملأ . ثم إنه كان يريد أن يوجه ضربة قاضية إلى جمهورية فلورنسا ، وكان لابد لذلك أولاً من وضع ساڤونارولا عند حده . وأراد البابا أن يخفي غرضه السياسي الحقيقي ، فحاول أن يجعل المسألة مجرد خلاف يتعلق بضم أو فصل بعض الأديرة أو المجامع الدينية بعضها عن بعض .

أدرك ساڤونارولا المسألة على حقيقتها . وعرف أن عصيانه أمر البابا معناه تعريض فلورنسا للخطر . وكتب إلى أحد رهبان الدومنيكان في روما يقول إن كل التهم الموجهة إليه غير صحيحة . وإن أعداءه يحملون عليه لأفعاله الطيبة . وإنه لا يخشاهم ولا يخاف قوتهم . وإنه يعلم أن هذا من عمل الأشرار الذين يسعون لإرجاع حكم الطغيان إلى فلورنسا . كما كتب إلى البابا معلناً أسفه لأن أعداءه نجحوا في خداعه . ويقول : «أما من حيث مبادئي فإنني كنت دائماً خاضعاً للكنيسة . ولم أعلن أنني نبي بصفة مطلقة ، مع أن هذا لا يعدّ هرطقة . ولكنني تنبأت بأشياء تحقق بعضها ، وسيتحقق بعضها الآخر في المستقبل . وإن فصل المجمع الديني التسكاني عن المجمع اللمباردي تم بناء على طلب كل الرهبان التسكان ، وأن هناك خلافاً بين المجمعين . وأن ضمهما الآن يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه» . وأحس اسكندر بدقة الموقف وبتصميم ساڤونارولا على المقاومة . وكان بييرو دي مديتشي يستعد لأن يهجم على فلورنسا فكتب البابا إلى ساڤونارولا متلطفاً ، وطلب إليه أن يمتنع عن الوعظ العام والخاص ، حتى يمكنه الحضور إلى روما في وقت مناسب . وأخفقت حملة بييرو دي مديتشي الأولى . ولم تعد هناك حاجة إلى ساڤونارولا بالوعظ في الناس ، ولقد ساء ساڤونارولا أن أعداءه اتخذوا من الدين ستاراً لإخفاء صراعهم السياسي ضد فلورنسا في شخصه . ولم يكن بينه وبين روما أي خلاف ديني . وأحزنه أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه . ولكنه ظل مؤمناً بعدالة قضيته ، ولزم الصمت حتى تتحسن الظروف .

أثار الرعب في قلوب الناس ذيوع أخبار البابا وأولاده ، وما قاموا به من المؤامرات ، وما اقترفوه من أعمال الغدر والقتل . وكان كثير من الكاثوليك المخلصين يعلمون أن اختيار البابا اسكندر ، قد تم بطريق الرشوة . وتزعّم الداعين إلى عقد مجمع ديني لخلعه ، الكردينال سان بيترو فنكولي . وقابل شارل الثامن الكرادلة

Twitter: @ketab_n

أثناء وجوده في روما ، وطلبوا إليه تنفيذ الفكرة . وأوشك يقوم بتحقيقها . ولكنه تردد . ونجح البابا في رشوة من استطاع أن يؤثر في شارل لمصلحته .

وجالت الفكرة نفسها في خاطر ساڤونارولا . ولكنه خشي إعلان رأيه في ذلك الوقت ، حتى لا يوسع شقة الخلاف بين فلورنسا وروما . وإن يكن قد أعلن رأيه كتابة إلى شارل ودعاه إلى عقد مجمع ديني لإصلاح الكنيسة . وقال له إن الله عاقبه لأنه تخلى عن واجبه ، وإذا لم يعد إلى الطريق القويم ، فإن الله سيوقع به ويلات أعظم . ولم يحقق شارل ما دعاه إليه ساڤونارولا .

تدخلت حكومة فلورنسا لتخفيف حدة البابا على ساڤونارولا . ووسطت في ذلك كردينال نابلي ، الذي كان لايزال يعطف على ساڤونارولا ويقدره . فحاول أن يحمل البابا على أن يسحب قرار منع ساڤونارولا من الوعظ في الناس . وكتبت حكومة فلورنسا إلى سفيرها في روما يكاردو بكي بأنه إذا نجح في تغيير موقف البابا من ساڤونارولا ، فإنه سيؤدي خدمة جليلة إلى شعب فلورنسا . ومال اسكندر إلى اللين وسمح لساڤونارولا بالوعظ ، على أن يخفف من أسلوبه نحو روما . واستعد ساڤونارولا للوعظ في موسم الصوم الكبير في ١٤٩٦ . وترقبه الناس بفارغ الصبر .

أدرك البابا صلابة ساڤونارولا وتصميمه على المضي في سبيله . فحاول استمالته إليه ، وضم إلى اختصاصه الإشراف على دير للدومنيكان في براتو لكي يعيد تنظيمه ، بعد الفوضى التي سادته . ثم أرسل إليه أحد الرهبان الدومنيكان يعرض عليه قبعة الكردينالية ، بشرط أن يغير أسلوبه العنيف نحو روما والبابا . فدهش ساڤونارولا لهذا العرض غير المنتظر . واستاء أشد الاستياء بعد أن ثبت لديه أن البابا يبيع الأشياء المقدسة لكي يستميل إليه المعارضين . رفض ساڤونارولا قبعة الكردينالية في غضب . وقال للرسول إن روما ستسمع رده في عظته المقبلة .

شعر ساڤونارولا أن صراعه مع البابا يزداد عنفاً يوماً فيوماً . وعرف أن شخصه معرض للخطر ، وأن حرية فلورنسا والحكم الصالح الذي أوجده معرض للزوال . ووجد أن دفاعه عن نفسه مرتبط بالدفاع عن الدين والحرية . فلم يرهب الصراع . وخرج للوعظ في الناس بعد احتجابه بعض شهور . واحتشد ألوف من الناس لسماعه في كاتدرائية فلورنسا . واحتاطت الحكومة فعينت حرساً مسلحاً لحماية ساڤونارولا من غدر أعدائه . واستقبله الجمهور بحماسة هائلة . وكانت لحظة رهيبة في حياته ، اهتزت لها نفسه . ولم يز من قبل جمهوراً متعطشاً لسماع كلماته كما رأى في تلك اللحظة . وقف ساڤونارولا مشدود القامة ، وألقى بنظرة ثابتة على ذلك الجمع المحتشد ، وتطاير من عينيه الشرر . وعم الناس سكون رهيب حتى سمعوا أنفاسه وهو يكبح جماح نفسه الثائرة . قال : « يا أولادي ، لم

Twitter: @ketab_n

أمتنع عنكم لأنني كنت كسلاً . . . ولكني كنت أدافع عن حصن لو سقط لقضى عليكم . . . ولم أخش القتل . ولو كنت أخشاه لما حضرت بينكم ، وأنا الآن أكثر تعرضاً له . . . إنني آمنت وأؤمن بكل ما تؤمن به الكنيسة الرومانية المقدسة ، وأعلن خضوعي لها . . . وكتبت إلى روما أنني إذا كنت قد وعظت أو كتبت شيئاً ضد الدين ، فإنني مستعد لتغييره وتصحيح أخطائي أمام الناس . وكنت دائماً مستعداً لطاعة الكنيسة الرومانية ، وأعلن أن من يطيعها فلن تصيبه اللعنة . . . وإنني أعلن وأعترف أن الكنيسة الكاثوليكية ستبقى إلى يوم الدين . . . وأننا لسنا مكلفين بطاعة كل أوامر رؤسائنا . . . وينبغي ألا يصدر البابا أوامر مخالفة للرحمة ولتعاليم الكتاب المقدس . وإنني لا أعتقد أن البابا يحاول أن يفعل ذلك بأي حال . ولكنه إذا فعل ذلك فإنني أقول له إنك لم تعد راعياً للشعب ، ولم تعد تمثل كنيسة روما ، وإنك لمخطئ . وأقول أيضاً إنه إذا رؤي بوضوح أن أوامر الرؤساء مخالفة لأوامر الله ، فإنه في هذه الحالة لا يُجبر إنسان على الطاعة . . . » . وقال إنه لن يطيع الأوامر التي تقضي بإبعاده عن فلورنسا ، لأن الشعب يعلم جيداً أن إبعاده أمر مرغوب فيه لأسباب سياسية فقط ، وسيجلب الضرر لحرية فلورنسا وتعاليم الدين على السواء . « وإذا رأيت بوضوح أن رحيلي عن هذه المدينة سيكون سبباً في انهيار شعبها الروحي والزمني فإنني لن أطيع أي مخلوق يأمرني بالرحيل . لأنني بطاعته سأعصي أوامر الرب » . وقال إنه لا يعتقد أن البابا قصد الإساءة وإنما خدعه الوشاة من أعدائه . وإنه آثر الصمت والسكون حتى لا يزيد المسألة تعقيداً . ولكنه عندما وجد الأدنياء يشتد ساعدهم ، وأن الدين أصبح في خطر ، قرر الرجوع إلى منبر الوعظ . وقال ما قاله المسيح بأنه كان ينعم بالسلام والسكينة ، حتى احترقت أجنحته كما تحترق الفراشة ، ثم سقط على فيضان عاصف عنيف . « وإن كلمة الله نار في قلبي ، وإذا لم أجد لها منفذاً ، فستحرق عظامي » .

ثم قال : « . . . أليس هناك داعرون في إيطاليا وروما ؟ إن ألفاً ، عشرة آلاف ، أربعة عشر ألفاً ، قليلون بالنسبة لروما . وهناك أصبح الرجال والنساء داعرين على السواء . . . إنكم فاسدون في كل شيء . في كلامكم وفي صمتكم . فيما تفعلونه وفيما لا تفعلونه . فيما تؤمنون به وفيما لا تؤمنون . إنكم تهاجمون التنبؤ ، وفي الوقت نفسه تصدقون من يقص عليكم حلماً غريباً . . . إن الله لا يرغب في أن تصوموا يوماً أو ساعة معينة ، بل يرغب في أن تتجنبوا الآثام في كل أيام حياتكم . . . إنكم ترفضون معاونة فقير ، ولكنكم تدفعون المال لإقامة تذكار في الكنيسة . . . وليس هذا هو الدين الصحيح . . . ستحيق بك الويلات يا إيطاليا . . . ويلات الحرب والمجاعة والطاعون . . . وسيجتاح أرضك البرابرة من كل الجوانب . . . وسيحمل القتلى والموتى أكواماً فوق العربات . . . »

Twitter: @ketab_n

هكذا تكلم ساڤونارولا بشجاعة هائلة . ولم يخش أحداً . واجه أعداءه في فلورنسا ، كما واجه البابا وأمراء إيطاليا . وسكت عن ذكر البابا وانتخابه بطريق الرشوة ، ولم يتكلم عن الرغبة في عقد مجلس ديني لخلعه . ولو أنه تكلم عن ذلك لخدم القضية التي يدافع عنها . ولكنه كان كريم النفس . فلم يشأ أن يحمل على البابا في ذلك الوقت من تلك الناحية . ولم تكن في أقواله هرطقة أو خروج على الدين . ولم يختلف فيما قاله عن آراء توماس أكويناس . ولكن حرارة كلماته وشجاعته الفائقة هيأت الفرصة أمام أعدائه لتغيير ألفاظه ، وإبرازها في صورة الهرطقة والعصيان .

قال أعداؤه إنه يهزأ بقرارات البابا ، وإنه يتكلم عنه بأسوأ مما يتكلم عن الأتراك . ويتكلم عن أمراء إيطاليا بأسوأ مما يتكلم عن الهراطقة . وإنه ينوي أن يعلن على الملأ جرائم أعدائه ، وإنه يوشك أن يتنبأ بأشياء عجيبة . وإنه يثير الفتن ، ويعصي أوامر روما ويدعي النبوة . وحاول الأرّابياتي اغتيال ساڤونارولا . ولكن حكومة فلورنسا اتخذت حيطتها لحمايته . فاتجهوا إلى نشر الرسائل ومحاربته عن طريق الكتابة . كتبوا عنه أنه أعمى متكبر ، يعتقد أن له سلطة دكتاتورية على الحكومة ، ويريد أن يقوم بدور الطاغية ، وأنه أصبح صديقاً لبييرو دي مديتشي ، وأن رغباتهما أصبحت واحدة!

هذا على حين أخذ أنصار ساڤونارولا في نشر رسائل دينية وسياسية تشرح تعاليمه ، وتعارض ما ذهب إليه أعداؤه من تحريف معانيه وتشويه أغراضه الحقيقية . ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه دومنيكو تشكّي عن إصلاح فلورنسا[٦٨] . ويتكلم بحماسة وإخلاص وبساطة للدفاع عن الدين وعن حرية فلورنسا . وتدل كتابته على حسن إدراكه وخبرته بشؤون فلورنسا . اقترح مثلاً على المجلس الكبير أن يقصر بحوثه على المسائل الهامة ، دون أن يشغل بالمسائل الصغيرة . وامتدح ضريبة العشر التي أوجدها النظام الجديد ، وأشاد بالتخلص من الضرائب القهرية ، واقترح فرض ضريبة على أملاك الكنيسة . وكان أول من أشار إلى إيجاد الجند النظامي ، بتدريب كل الرجال القادرين على حمل السلاح ، تلك الفكرة التي نادى بها ماكيافلي وعمل على تنفيذها فيما بعد .

ولقد أثارت أخبار ساڤونارولا اهتمام الحكام والأمراء في كل الجهات . فطلب السلطان العثماني أن تترجم بعض عظاته إلى اللغة التركية . ووصلت إليه رسائل المعجبين به من فرنسا وألمانيا وإنجلترا . كما كتب له أمراء إيطاليا في الغالب لمداهنته ومحاولة اجتذابه إليهم . وبادله لودوفيكو سفورتزا المراسلات الودية ، وحاول أن يجتذب فلورنسا إلى الحلف الذي كوّنه لطرد الفرنسيين من إيطاليا .

أما البابا فإنه استاء من استمرار ساڤونارولا في لهجته العنيفة . وهدد

Twitter: @ketab_n

ريكاردو بكّي سفير فلورنسا في روما ، بما لا تحمد عقباه ، بسبب أسلوب ساڤونارولا وتأثيره في منع فلورنسا من الانضمام للحلف المشار إليه . وتشاورت حكومة فلورنسا في الأمر . ولم توافق على التخلي عن صداقة فرنسا ، وأحست بعدم الثقة نحو لودوفيكو واسكندر . وحاولت حكومة فلورنسا أن تعمل مرة أخرى على تهدئة شعور البابا ، حتى لا يقدم على عمل يضر بمصلحة الشعب الفلورنسي . وأرسلت إلى سفيرها في روما لذلك الغرض . كما أرسلت سفيراً فوق العادة لشرح الموقف . ولكن البابا لم يقبل دفاعه .

عقد البابا مجلساً دينياً من أربعة عشر كردينالاً من الدومنيكان ، للنظر في مسلك ساڤونارولا وتعاليمه . ولم يجد هؤلاء الكرادلة ما يستحق أن يؤخذ عليه . ولم يتهموه بشيء غير أنه كان السبب في فشل بييرو دي مديتشي! وفي الوقت نفسه حاول السفير بكّي أن يستميل الكرادلة إلى جانبه ، وكان بعضهم في صف ساڤونارولا .

اتبع ساڤونارولا طريقة خاصة قصد بها أن يخفف من غضب البابا عليه ، ويحفظ صلته بشعب فلورنسا في الوقت نفسه . وذلك بامتناعه بضعة أسابيع عن الوعظ ، وظهوره بذلك بمظهر المقل من اتصاله بالجمهور . وإذا اعتلى منبر الوعظ أعطى عظة طويلة تستغرق عدة ساعات ، تعويضاً عما فاته . قال في تلك الفترة : « إننا لا نزال هنا ، بدلاً من أن نهرب ، كما أعلن البعض . . . وإنني أعترف لكم بأنني لا أستطيع أن أعيش بغير وعظ الناس . وإنني هنا في طاعة الرب الذي هو بابا البابوات » . وشرح ساڤونارولا كيف أن روح الرب تصل إلى رجال الدين عن طريق القديسين ، ثم تنتشر بين الناس . وقال : « ولكن الآن فإن فساد رجال الدين وفساد الكنيسة يمنع انتشار روح الرب بين المؤمنين . . . » .

ودعا مجلس السنيوريا ساڤونارولا للوعظ في قاعة المجلس الكبير ، أمام أعضاء حكومة فلورنسا ووجوه المدينة ، في أغسطس ١٤٩٦ . قال : « إن رجال الدين يخطئون في شكواهم مني . وإذا كنت قد حاربت الرذيلة ، فإنني لم أحارب شخصاً معيناً . ويرتكب خطأ أعظم في حقي ، المواطنون الذين يزعمون أنني أتدخل في كل شؤون الدولة . إنني لم أتدخل مطلقاً في أعمالكم . . . وماذا جرى إذا كنت اقترحت سن قوانين صالحة لرفاهية الشعب وحريته ؟ وماذا حدث إذا كنت قد وضعت حداً للخلاف الداخلي ، وأضفيت السلام على عقول الناس ؟ فعلت كل ذلك لتمجيد الله . ويرميني أولئك الرجال بالحجارة لأنني قمت بعمل طيب . . . » ثم قدم بعض مقترحات لضمان سلامة الحكومة الجديدة . أشار بإعطاء حق مناقشة مشروعات القوانين بمنتهى الحرية ، لأعضاء المجلس الكبير . كما اقترح في الوقت نفسه إصدار قانون لمعاقبة كل من يعمل على نشر الأكاذيب في فلورنسا . قال :

Twitter: @ketab_n

«دعوا الجميع يقولون كل ما في نفوسهم . . . ووقعوا عقوبات شديدة على أولئك الذين ينتقدون خارج المجلس ما قيل في داخله . . . وإذا كنت -أيها الفلورنسي- غير مقتنع بما يقوله جارك ، فلا تتكلم بشر عنه ، بل اذهب إليه وأفصح عما في نفسك ، وقل له إنك غير راض عن براهينه ، واعطه بدلاً منها أدلة أفضل . . .» .

وكان كلام ساڤونارولا ذلك ، أشبه بعظاته منذ سنتين ، في وقت وضع الدستور الفلورنسي الجديد . وكانت دعوة السنيوريا ساڤونارولا للكلام أمامها في ذلك الوقت لا تخلو من التحدي للبابا وأوامره . ولعل السنيوريا أرادت بذلك أن تظهر للبابا أنها لا تغفل عن سماع عظاته وخطبه ، وأنها لا ترى في أقواله ما يمس البابا ولا كنيسة روما . وعلى كل حال فإن ما أحاط بفلورنسا من المؤثرات الداخلية والخارجية ، حتى ذلك الوقت ، جعل الكثيرين من الفلورنسيين حكومة وشعباً ، يلجؤون إلى ساڤونارولا ، لتلمّس الأمان عنده ، وللاستماع إلى آرائه ، والاسترشاد بنصائحه . وإن كان ساڤونارولا لن يلقى جزاءً على ذلك سوى نكران الجميل .

وعندما هدد الفرنسيون إيطاليا بالغزو مرة أخرى ، واستدعى لودوفيكو سفورتزا الامبراطور ماكسميليان لمنع قدوم الفرنسيين إلى إيطاليا ، ولتوطيد الأمن والسلام فيها ، كان البابا أشد أعداء فلورنسا . وبينما كان لودوفيكو يكتفي بوصول الأرَابياتي إلى السلطة في فلورنسا ، وتكتفي البندقية بالحصول على بعض النفوذ في منطقة بيزا ، كان البابا شديد الرغبة في القضاء على الجمهورية التي أنشأها ساڤونارولا ، لكي يمهد الطريق أمام سيطرة أبنائه . وكان يكره عودة ساڤونارولا إلى الوعظ في الناس والتأثير فيهم للدفاع ببسالة عن الجمهورية . وحاولت قوات البابا المبادرة بمهاجمة الأراضي التسكانية ، ولكن الفلورنسيين نجحوا في ردها على أعقابها ، كما عرفنا ذلك في موضع سابق . واضطر ساڤونارولا للوعظ في الناس ، بناء على طلب حكومة فلورنسا ذاتها ، لبث الحماسة في قلوب الفلورنسيين . وخرج بذلك عن صمته الذي التزمه خشية إثارة غضب البابا .

وكان لودوفيكو سفورتزا يتظاهر بالمودة نحو ساڤونارولا ، مخفياً نياته الحقيقية . وأخذ يدس له الدسائس عند البابا . وزور رسائل ادعى أنها مرسلة من ساڤونارولا إلى ملك فرنسا ضد مصلحة إيطاليا . وعلم بذلك دوق فرارا صديق ساڤونارولا ، فنبهه إلى الخطر الذي يهدده . واحتج السفير الفرنسي في فلورنسا على ذلك المسلك .

وعندما أيقن البابا بتفرق كلمة المتحالفين ، وتعارض المصالح بينهم إزاء فلورنسا ، رأى أن يسير منفرداً في الخطة التي تلائمه ضد فلورنسا . فأصدر أمراً في نوفمبر ١٤٩٦ بضم المجمع الديني التسكاني إلى المجمع الروماني ، وعهد برياستهما إلى كردينال نابلي ، الذي كان صديقاً لساڤونارولا إلى ذلك الوقت ، ثم

Twitter: @ketab_n

انقلب عليه وأصبح من ألد أعدائه . وقصد البابا بذلك أن يجعل ساڤونارولا خاضعاً لسلطته مباشرة ، ويمكنه عندئذ أن ينقله بسهولة إلى أي مكان آخر .

لم يخضع ساڤونارولا لقرار البابا . وكتب رسالة في الدفاع عن دير سان ماركو ، نشرها بين الناس ولم يرسلها إلى البابا . قال : « . . . أكتب بسبب الأمر الذي يراد فرضه عليّ للانضمام إلى المجمع الجديد . فأولاً لا أستطيع أن أفعل ذلك بناء على سلطتي فقط ، ولابد من موافقة ٢٥ من الرهبان الذي كتبوا جميعاً للبابا ، ضد مثل هذاالانضمام . وإنني لا أستطيع ولا أنوي أن أعارض قرارهم ، مادمت أعتقد أنه قرار مخلص عادل » . ثم شرح الأسباب التي تحمله على الاعتقاد بأن مثل هذا الانضمام سيضر بدير سان ماركو الذي يمتاز بدقة نظامه . ورأى أنه إذا كانت جماعات الرهبان الأخرى غير محتاجة إلى الإصلاح فلماذا تريد الانضمام إليه ؟ وإذا رغبوا الانضمام إليه لكي يتولى إصلاحهم وتنظيمهم ، فإن لديه عدداً كبيراً من الرهبان يحتاجون إلى التدريب والعناية . وأمامه عمل صعب مستمر . ولا يجوز أن يصدر الرؤساء أوامر وقرارات تضر بدير سان ماركو وقال : « ينبغي أن نفهم أن رؤساءنا فعلوا ذلك لأنهم خُدعوا بالأخبار الكاذبة ضدنا . وعلينا أن نقاوم أمراً يخالف الخير . وينبغي ألا نخضع للتهديدات ، ولا لقرارالحرمان ، وعلينا أن نكون مستعدين لمواجهة الموت ، لا أن نخضع لما يحتمل أن يكون سبباً في تسميم نفوسنا وضياعها » . وهكذا نجد أن ساڤونارولا بعد فترة سكون قصيرة ، أصبح في حرب علنية مع البابا ، من جديد .

في موسم الصوم الكبير في ١٤٩٧ ، وصل الصراع بين ساڤونارولا والبابا إلى درجة بالغة من العنف والحدة . تكلم ساڤونارولا عن أملاك الكنيسة فقال : « إنه قد أصبحت للكنيسة ثروة دنيوية . وإن امتلاكها كان ضرورياً ونافعاً في بعض الأوقات ، ولكنها انحطت الآن إلى عبء خبيث . لقد أفسدت الثروة الكنيسة . . . إننا نرى جميعاً أنه بسبب الثروة انقادت الكنيسة إلى عمل الشر . . . إنني أقول لأخواني ابحثوا عن الفقر . لأنه إذا انتشر الغنى بينكم ، جاءكم الموت أيضاً . . . وكل من اغتصب مالاً للكنيسة فليرجعه إليها ، إذا وجَدَ رجال دين صالحين . وإلا فليوزعها على الفقراء ، دون تقيد بالقانون الكنسي . . . ولم كل هذه الحرب التي أثيرت عليّ ؟ ما سببها ؟ لا شيء غير أنني كشفت فساد الأدنياء . . . » . ولم يتردد ساڤونارولا في أن يعلن استعداده لقيادة العالم المسيحي لتطهير الكنيسة وإصلاحها وقال « إن رجال الدين ابتعدوا عن الله . وتنحصر تقواهم في قضاء الليل مع العاهرات . . . ويقولون إن الله لا يهتم بالدنيا ، وإن كل شيء يحدث بالمصادفة . . . تعالي هنا أيتها الكنيسة السفيهة . يقول الرب : قد أعطيتك ملابس الكهنوت الجميلة ، فاتخذت منها أصناماً . . . إنك قد أصبحت عاهرة لا تشعرين

Twitter: @ketab_n

بالخجل من شهواتك . إنك أدنى من الوحش . . . كنت تشعرين يوماً ما بالخجل من آثامك . أما الآن فلا خجل عندك . . . ويتكلم رجال الدين الآن ، دائماً وفي كل مكان عن أبنائهم[٦٩] . . . وماذا تفعل العاهرة ؟ إنها تجلس على عرش سليمان ، وتدعو إليها الناس جميعاً . ومن عنده ذهب ، يرحب به ويمكنه أن يفعل ما يريد . ولكن من يحاول أن يعمل صالحاً فإنه يُبعد . أيها الرب! يا ربي ، إنهم لن يتركوا أحداً يعمل عملاً صالحاً . أيتها الكنيسة الداعرة! هكذا نشرت قذارتك في العالم كله . . . انظري ، يقول الرب : سأمد يدي وأبطش بك . وسيهوي سيفي على أبنائك ، وعلى موضع فسوقك ، وعلى عاهراتك ، وعلى قصورك . . . إن ليسوع المسيح خداماً أمناء في ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، وهم يرثون الآن لهذا الشر . . . وهم يرسلون همساً إلى أذني ، وأقول لهم ابقوا مختبئين حتى تسمعوا النداء . أنا هنا لأن الله قد وضعني في هذا المكان ، وإنني أنتظر نداءه ، وعندئذ سأرسل صرخة مدوية في أنحاء العالم المسيحي ، تهتز لها الكنيسة من الرعب . . . يقول كثير منكم إن قرار الحرمان يوشك أن يصدر . ولكني أكرر لكم أنه يُنتظر أكثر من قرار الحرمان . ومن جهتي ، أضرع إليك أيها الرب ، أن يأتي سريعاً . . . إنني لا أخاف شيئاً ، لأنهم يحاولون إصدار قرار الحرمان ضدي ، وإنني لا أقترف شراً . . . سأجيب عن قرار الحرمان . . . وسأجعل وجوهاً كثيرة ترتد مصفرة . . . أعلم أن هناك شخصاً في روما يعمل ضدي بلا انقطاع . ولكن ذلك الرجل لا يدفعه للعمل حماسته الدينية . وهو يكرهني لا لشيء سوى أنه يسير في ركاب العظماء والأمراء[٧٠] . . . أيها الرب لا تدعني أموت في فراشي . ودعني أنزف دمي من أجلك . . . »

هكذا انتهت عظات ساڤونارولا في موسم الصوم الكبير . وقد أثار شعور الناس ، وهرع لسماعه كثير من الناس من خارج فلورنسا ، ومن بينهم إركولي دست ، ابن دوق فرارا . وهكذا وصل الكفاح بين ساڤونارولا وروما إلى هذه المرحلة الدقيقة . وأخذ ساڤونارولا يعدّ نفسه وفلورنسا لمواجهة الأخطار المحدقة . وصمم على تحدي قرار الحرمان الذي كان يترقبه بين لحظة وأخرى . ووضع أمله الوحيد في عقد مجمع ديني عام يعمل على إصلاح الكنيسة .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر
ساڤونارولا والبابا (تابع)

مساعي حكومة فلورنسا -تحرش أعدائه به -يكتب إلى البابا -صدور قرارالحرمان -أثره -مساعي حكومة فلورنسا -موت أحد أبناء البابا -«انتصار الصليب» وخضوع ساڤونارولا لسلطة الكنيسة -ساڤونارولا يعود إلى الوعظ ويهاجم سلوك رجال الدين -احتقاره قرار الحرمان -غضب البابا -منعه من الوعظ خارج سان ماركو -حكومة فلورنسا تدرس الموقف -مناقشات وكلام أنصاره وخصومه -منعه من الوعظ نهائياً -آخر عظاته - تفكيره في عقد مجمع ديني عام -محاولة الاتصال بملوك أوربا -وصول بعض رسائله إلى البابا .

عندما وصلت الأمور إلى تلك المرحلة الدقيقة بين ساڤونارولا والبابا ، لم يشأ الباب أن يسدد إليه ضربة حاسمة في ذلك الوقت . ولجأ إلى السياسة والدهاء . جعل أهل فلورنسا يعلمون أنهم إذا انفصلوا عن صداقتهم لفرنسا ، وانضموا إلى الحلف الإيطالي ، فإنه مستعد لأن يفاوض أهل بيزا ويحملهم على التسليم لفلورنسا . وكانت تلك طريقة بارعة لمحاولة التفرقة بين ساڤونارولا وأهل فلورنسا ، حتى لا يجد ساڤونارولا نصيراً له عند ما يوجه إليه البابا ضربته القاضية .

أرسلت حكومة فلورنسا السيد براتشي كرسول خاص إلى روما ، لمحاولة التوفيق بين البابا وساڤونارولا . قال البابا إنه مستاء من آثار الحملة الفرنسية في

Twitter: @ketab_n

إيطاليا . وأعلن أسفه لضياع بيزا من فلورنسا . وقال إنه يسعى جهده لتوحيد إيطاليا ، وإنه بذل وسعه لحمل الحلف الإيطالي على إرجاع بيزا إلى فلورنسا بشرط الانضمام إلى ذلك الحلف . ولكن الرسول الفلورنسي لم ينخدع بكلام البابا . وكان يعرف جيداً أن بيزا لا تعود إلى فلورنسا إلا بموافقة البندقية ، وأن البابا لا يمكنه التأثير فيها ، وأن الخلاف المستحكم والمصالح المتعارضة بين الحلفاء ، قد يعطي الفرصة لإرجاع بيزا إلى فلورنسا دون أن يكون للبابا فضل في ذلك . وقال الرسول الفلورنسي إن محالفة فلورنسا لفرنسا لا تضر أحداً ، وإن فلورنسا مضطرة إلى الوفاء بتعهداتها لفرنسا . فغضب البابا غضباً شديداً وقال لرسول فلورنسا : « إذا لم يكن عندك غير هذا الكلام فانصرف . وسيُجبر الفلورنسيون بالقوة على تنفيذ ما يرفضون القيام به بالرضا . . . وإنّا نعلم جميعاً أن هذا كله سببه إيمانكم بتنبؤات راهبكم . . . وأنتم تبيحون له أن يسبّنا ويهدّدنا ويدوسنا . . . » . وحاول الرسول براتشي أن يدافع عن سلوك ساڤونارولا وإخلاصه وتواضعه وحبه للخير . كما تدخل ريكاردو بكّي السفير الفلورنسي في روما . ولكن بغير جدوى . فلم يفلحا في التخفيف من غضب البابا وحدته .

ولم يتوان أعداء ساڤونارولا في فلورنسا عن اتخاذ كل الوسائل ، لإضعافه والقضاء عليه . وحدث أن أصبح أغلب أعضاء الحكومة ، بعد هزيمة بييرو دي مديتشي الثانية ، من حزب الأرّابياتي . وعاضدهم لودوفيكو سفورتزا والبابا إسكندر بعد أن نفض يده من بييرو دي مديتشي . وتجمع أعداء ساڤونارولا للإيقاع به . وأخذوا يتحرشون بأنصاره ويحدثون بعض الشغب في أثناء الصلاة في دير سان ماركو . واعتزم ساڤونارولا الوعظ في الناس في عيد صعود المسيح في مايو١٤٩٧ ، برغم تهديدات خصومه . واعتزم فريق الكومبانياتشي (رفقاء السوء) قتله أو إضراره جسمانياً على الأقل . وحاول أنصاره من البيانيوني منعه من الوعظ خشية عليه . ولكنه لم يعبأ بالمخاطر .

وفي يوم ذكرى صعود المسيح اعتلى ساڤونارولا منبر الوعظ في كاتدرائية فلورنسا ، وأحاط به أنصاره وقد تمنطقوا بأسلحتهم للدفاع عنه عند الضرورة . أعلن ساڤونارولا أنه لا توجد قوة في الوجود تستطيع أن تمنعه من أداء واجبه ، وأنه مستعد لأن يلاقي صنوف التعذيب والحرمان ، ومستعد للتضحية بحياته في ذلك السبيل . وقال : « أيها الأدنياء ، أتظنون أنكم تقاتلون الراهب ، وبذلك تحاربون الله ؟ إنني لا أقاتلكم لأني أكرهكم ، ولكن في سبيل حب الله . . . لماذا لا تعودون إلى الفضيلة ، فيكون السلام إلى جانبكم ؟ . . لن أمتنع عن الوعظ في الناس ، إلا إذا خشيت أنه يسبب الفضائح » . عندئذ قاطعه خصومه المتربصون ، وأحدثوا ضجة وشغباً بين الجمهور ، فاضطرب الناس واختل نظامهم ، وتدافعوا

Twitter: @ketab_n

متلمسين الفرار . وأحاط بساڤونارولا أنصاره المسلحون ، وانسحبوا به إلى دير سان ماركو .

لم يرهب ساڤونارولا شيئاً . وصمم على المضي في سبيله حتى النهاية . ولما وجد أن استمراره في الوعظ في ذلك الوقت ، سيتيح الفرصة أمام خصومه لإحداث الاضطراب والشغب في فلورنسا ، عمد إلى الكتابة للتعبير عن آرائه وبث آرائه بين الناس . فكتب رسالة « إلى كل المسيحيين المخلصين الذين اختارهم الله »[٧١] ، شرح فيها نيات خصومه الأدنياء . وأعلن عزمه على نشر نور الله والحق ، بالرغم من محاولات أولئك الأشرار .

وفي الوقت نفسه كان نفوذ الأرّابياتي آخذاً في الازدياد . ، وبحث مجلس السنيوريا فيما يهدد فلورنسا من القلاقل . ولم تعاقب الحكومة مسبّبي الشغب بطبيعة الحال . وأصدرت أمراً بمنع الرهبان من الوعظ في الناس . وفكر أعضاء السنيوريا في نفي ساڤونارولا من فلورنسا . ولكنهم عدلوا عن ذلك نظراً لما توقعوه من اضطرابات خطيرة . ولم يهن عزم الأرّابياتي في كفاح ساڤونارولا إزاء تردد حكومة فلورنسا . وكانوا يتوقعون من وقت لآخر صدور قرارالحرمان البابوي ضده . وكان الراهب ماريانو دا جناتزانو إلى جانب اسكندر ، يوغر صدره على ساڤونارولا .

وبالرغم من ذلك كله ، حاول ساڤونارولا أن يزيل سوء التفاهم القائم بينه وبين البابا . فكتب إليه قائلاً إنه استمع دائماً لأعدائه وصدق التهم الملفقة ضده ، وأعلن خضوعه لسلطة الكنيسة الكاثوليكية . وكتب ساڤونارولا هذا الخطاب إلى البابا بعد أيام من صدور قرار الحرمان ، لكن قبل وصوله إلى فلورنسا .

ولم يوجه قرار الحرمان البابوي (صدر في ٣١مايو ١٤٩٧) إلى المسيحيين كافة كما هي العادة ، ولكنه أرسل إلى بعض الرهبان والأديرة في فلورنسا وتسكانا . وخشي الرهبان نشره على الناس ، لأنه كان خالياً من موافقة اللجنة الرسولية الخاصة بالنظر في مثل هذه الحالات . ثم أن لغة قرار الحرمان كانت غريبة . قال البابا : « معنا من الكثيرين ممن يوثق بهم أن المدعو جيرولامو ساڤونارولا . . . رئيس دير سان ماركو في فلورنسا ، عمل على نشر عقائد فاسدة . . . وأننا قد أمرناه . . . أن يقف عظاته ، وأن يقدم علينا ليطلب الصفح عما ارتكبه من أخطاء . ولكنه رفض الطاعة ، وتعلل بأعذار مختلفة ، قبلناها برحمتنا . . . وأمرناه بضم دير سان ماركو إلى المجمع التسكاني الروماني الذي أنشأناه حديثاً . . . ولكنه أصر على عناده . . . ولذلك نعلن حرمان المدعو جيرولامو ساڤونارولا . . . لرفضه طاعتنا . . . وللشك في هرطقته » .

ونلاحظ أن قرار الحرمان لم يثبت هرطقة ساڤونارولا . قال إنه ينشر بين

Twitter: @ketab_n

الناس عقائد فاسدة . ولكن ما هي ؟ وما إفسادها للناس ؟ وقال إن ساڤونارولا مشكوك في هرطقته . وفي العادة لا يكون الحرمان بسبب الشك في الهرطقة ولكن بسبب التحقق من وجودها . وقال القرار إن البابا سمع من يوثق بهم أن ساڤونارولا ينشر عقائد فاسدة . ولا يكفي السماع في مثل تلك الحالات . ولم يسمع البابا إلا أعداء ساڤونارولا ، ولم يلتفت إلى أنصاره من رجال حكومة فلورنسا ذاتها . وقال القرار إنه لم يطع البابا في الذهاب إلى روما . وفي الواقع أن البابا قبل اعتذار ساڤونارولا . فلا معنى بعد ذلك للتعلل بعدم الطاعة في هذه الناحية . وماذا كان ينتظر أن يفعل ساڤونارولا إذا كان الناس جميعاً يعرفون وسائل اسكندر بورجيا في الغدر بخصومه والإيقاع بهم! ولم يكن ساڤونارولا مسؤولاً وحده عن رفض الانضمام إلى المجمع التسكاني الروماني . كان لابد من موافقة كل رهبان سان ماركو . وهذا لا يعد ذنباً يستحق الحرمان . وفي الواقع أن هذه الأسباب كلها لم تكن تبرر صدور قرار الحرمان ضد ساڤونارولا . وصيغة القرار والأسلوب الذي أرسل به يدل على ضعف الأسباب التي أدت إلى صدوره من الناحية الدينية .

أما الأسباب الحقيقية ، التي لم يشر إليها قرار الحرمان بطبيعة الحال ، فهي مهاجمة ساڤونارولا بشدة فساد سلوك رجال الدين وفساد الكنيسة . وكان البابا يعلم ما ارتكبه في حياته الشخصية من مخالفات لتعاليم الدين بالنسبة للمسيحي العادي ، فضلاً عن كونه رأس الكنيسة الكاثوليكية . فآذته حملة ساڤونارولا العنيفة في هذه الناحية . وكان يجدر بالبابا ألا يحفل بكلام ساڤونارولا ، بقدر عنايته بسلوكه ذاته . ولكن هكذا الطبيعة البشرية في أحوال كثيرة . يبيح الإنسان لنفسه أن يرتكب ما يستطيع ، وفي الوقت نفسه يحاول أن يمنع الناس أن يتكلموا عنه وينقدوا تصرفاته! كذلك غضب البابا على ساڤونارولا لأنه وقف في وجه حكومة الطغيان في فلورنسا ، وناصر الحكم الشعبي ، الذي فهمه الناس في ذلك الوقت . وكان البابا يحاول أن يغير نظام الحكم الجديد في فلورنسا لكي يتيح الفرصة لبسط نفوذه عليها . وكان ساڤونارولا يحبذ سياسة التحالف بين فلورنسا وفرنسا ، وعارض في خروج فلورنسا على تلك السياسة وانضمامها إلى الحلف المقدس . وكان ذلك مما يتيح الفرصة أمام فرنسا للتدخل في شؤون إيطاليا ، ومما يعرقل تحقيق السياسة التي كان يرمي إليها اسكندر بورجيا في إيطاليا . هذا مجمل الأسباب الشخصية والسياسية التي أدت إلى غضب البابا على ساڤونارولا .

أعلن قرار الحرمان في فلورنسا . وأوجد حالة من القلق والاضطراب . وبعد أيام قليلة رفض رهبان سان فرنتشسكو وسان أوغسطين الاشتراك في الاحتفال بعيد القديس جوفاني حامي فلورنسا ، إذا اشترك فيه رهبان سان ماركو . وأخذ أعداء ساڤونارولا يقذفون دير سان ماركو بالأحجار ، ويحدثون الضجيج في أثناء قيام

Twitter: @ketab_n

الرهبان بالصلاة . وأخذوا يعكفون على الملاذ نكاية في ساڤونارولا وتعاليمه . وامتلأت الحانات . وأعيدت الأغاني والأناشيد الفلورنسية القديمة . وأخذ الشبان يوقعون على الآلات الموسيقية تحت نوافذ عشيقاتهم . وتبرجت النساء . وفي أقل من شهر بدت فلورنسا أنها رجعت إلى أيام لورنتزو العظيم . ولم يستطع أنصار ساڤونارولا أن يمنعوا شيئاً من ذلك كله . وبدا الناس كأنهم نسوا قواعد الأخلاق وتعاليم الدين ، وانصرفوا عن الدعوة إلى الوحدة وعن التمسك بالوطنية والدفاع عن الحرية .

لم يعبأ ساڤونارولا بقرار الحرمان . وكتب رسالة ضده قائلاً إن هذاالقرار باطل أمام الله الإنسان ، لأنه قائم على أسباب باطلة واتهامات مختلفة . قال : «ولقد خضعت دائماً ولا أزال أخضع لسلطة الكنيسة . . . ولكن لا يضطر أحد إلى إطاعة أوامر مخالفة للخير ولقانون الله . لأنه في مثل هذه الحالة لا يصبح رؤساؤنا ممثلين لله» . وأعلن في رسالة أخرى «أنه من الواجب مقاومة البابا إذا حاول أن يفرض سلطته ضد تعاليم الكنيسة . . . ولا يرتكب المسيحي خطيئة إذا قبل مساعدة سلطة زمنية لكي يتخلص من قرار ظالم . وأن مثل هذه الأحكام الظالمة ليست إلا عدواناً ، ويحتم قانون الطبيعة أن ندفع القوة بالقوة . ويصبح مسلكنا مسوّغاً بصفة خاصة في الحالات التي نعنى فيها بتجنب المخازي ، وتنوير أذهان من يعتقدون أن البابا يكاد يكون هو الله ، وأن له قوة على الأرض وفي السماء» . ولم يتوان أعداء ساڤونارولا عن إخبار البابا بشأن هذه النشرات التي أذاعها ساڤونارولا على الناس .

ولحسن الحظ أن أعضاء مجلس السنيوريا الجديد لشهري يوليو وأغسطس ١٤٩٧ ، كانوا من أنصار ساڤونارولا فدافعت حكومة فلورنسا عن ساڤونارولا لدى البابا . وكتبوا إليه قائلين إنه رجل تقي صالح مخلص للمسيحية ، وإنه قد عمل عدة سنوات لمصلحة شعب فلورنسا ، وإن أعداءه قد دفعهم الحسد لمناوأته واختلاق التهم ونسبتها إليه . ورجوا من البابا أن يسحب قرار الحرمان الذي أصدره . وكذلك فعلت مجالس السنيوريا التالية ، واستمرت محاولات حكومة فلورنسا لاسترضاء البابا . وعرض أحد الكرادلة من أنصار البابا على ساڤونارولا دفع مبلغ من المال ، لسحب قرار الحرمان . ولكن ساڤونارولا رفض أن يشتري الرحمة والعفو بالمال . وقد دلّ هذا العرض على استعداد البابا للعفو والتفاهم مع ساڤونارولا .

ووقع حادث كان من المحتمل أن يؤدي إلى إعادة التفاهم بين البابا وساڤونارولا . وذلك أن دوق جانديا ، أكبر أبناء البابا ، قتل في ذلك الوقت . وكان أخوه قيصر بورجيا هو قاتله . واهتز البابا وشعر بوطأة الخطايا التي ارتكبها ، وفكر في التوبة وفي إصلاح الكنيسة . وانتهز ساڤونارولا هذه الفرصة ، وكتب إلى البابا . قال : «إن الإيمان الذي يفعل العجائب ، يوحي بكل الأفعال النبيلة . . . وهو يعلو

Twitter: @ketab_n

على الإحساس والعقل ، ويرفعنا فوق هذا العالم . . . ويعطينا القوة لتحمل الشدائد . . . فلتستجب قداستك لنداء النعيم المقيم ، حتى يتحول حزنك إلى ابتهاج . . . إن حب الخير هو الذي يدفعني للكتابة إليك في ذلك . . . والأمل أن تتلقى من الله العزاء الصحيح . . .» ومالت نفس البابا إلى الرفق والتسامح . ولكنها كانت لحظة قصيرة الأمد . فسرعان ما عاد اسكندر إلى حياته الآثمة . وعاود التفكير في أحوال فلورنسا وساڤونارولا .

وبينما كانت حكومة فلورنسا ماضية في إزالة أسباب الخلاف بين البابا وساڤونارولا ، اعتكف ساڤونارولا فترة من الزمن ، وأخذ يدوّن بعض آرائه الدينية . ومما كتبه في ذلك الوقت «انتصار الصليب»[٧٢] . وقصد بكتابته أن يبحث حقائق الدين على ضوء العقل ، ويوضح تقديره وخضوعه لكنيسة روما . ومن أقواله في ذلك -متمشياً مع كتاباته الدينية السابقة -إن العقل سلاح نافع في محاربة غير المؤمنين ، ويفتح طريق الخلاص أمام الناس ويقوّي الإيمان . وينبغي ألا تعتمد على أيّ سلطة ، ولا نعتقد بأي رجل ، دون الاعتماد على العقل الطبيعي . ويقول : « إن إحساس الإنسان الطبيعي لا يمكن أن يكون باطلاً . وإنه لا يوجد شيء في الطبيعة بغير قصد في عوالم الجماد والحيوان والإنسان على السواء . وإذ أن الجنس البشري يؤمن إيماناً طبيعياً بوجود الله ، فنحن مضطرون إلى اعتبار الله موجوداً حقاً ، وإلا كان أحد إحساساتنا الطبيعية غير صحيح ، وذلك مما يخالف تجارب الإنسان العامة » . ثم يتكلم عن العبادة الباطنة والظاهرة . ويشيد بأهمية الأولى . وهي تتحقق بالحياة المستقيمة التي يحياها الإنسان . وهذه هي أصدق عبادة . ويقول « إن المؤمن يتمتع بسلام الروح والعقل وهدوء النفس ، ويبدو وجهه مشرقاً بنور الله . وبهذا الروح استطاع شهداء المسيحية أن يقابلوا العذاب والموت بنفوس مطمئنة » . وينتهي بقول : « إن الكنيسة واحدة ، تحت رئيس واحد ، منذ أنشأها القديس بطرس . وينبغي أن يكون كل المؤمنين متحدين تحت لواء البابا ، رأس الكنيسة الرومانية ، التي هي أم الكنائس الأخرى . وأن من يخرج على وحدة الكنيسة الكاثوليكية وعقائدها فإنه يخرج على المسيح » .

ما كان أحد يستطيع أن يدافع عن الدين المسيحي بخير مما فعل ساڤونارولا . وأوضح في هذه الرسالة ارتباطه بكنيسة روما وخضوعه لها . ولم يعارض ساڤونارولا مطلقاً سلطة البابا في ذاتها ولا تعاليم الكنيسة الرومانية ، وإنما حمل على رجال الدين الذي أفسدوا الكنيسة بسلوكهم المنافي لتعاليم الدين .

أوشكت سنة ١٤٩٧ تنتهي عندما كانت حكومة فلورنسا لاتزال تسعى لدى البابا للدفاع عن ساڤونارولا ، ولمحاولة استرجاع بيزا ، ولفرض ضريبة على أملاك الكنيسة . ولم ينصت البابا لطلبات فلورنسا . وأصر على تسليم ساڤونارولا إليه .

Twitter: @ketab_n

ولم تستطع حكومة فلورنسا في ذلك الوقت أن تجيب طلب البابا . ونهض للدفاع عن ساڤونارولا بعض أنصاره ومريديه ، ومنهم بيكو دلا ميراندولا الصغير . فدافع عنه في رسالة خاصة ، أوضح فيها خضوع ساڤونارولا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وقال إنه إذا أمرنا قرار الحرمان بعمل أمور مخالفة للإيمان أو للأخلاق فإنه لا يجوز الخضوع له . وإن قرار الحرمان يكتسب قوته من الحق ، وبغيره لا تكون له أيّ قوة . وقال إن أعداء ساڤونارولا قد شوّهوا سمعته عند البابا ، فاتهمه بأنه ينشر على الناس مبادئ وتعاليم باطلة ، في حين أنه لا ينشر غير تعاليم المسيح الصحيحة ؛ وأن البابا صدّق ادعاء أعدائه دون أن يتحرى مبلغ صدقها ، فاتهم هذا الراهب المخلص بما هو براء منه .

وأخيراً بعد صمت دام عدة أشهر ، خرج ساڤونارولا من عزلته للوعظ في الناس ، بأذن من حكومة فلورنسا . فقال : « يا رب إنك قد ألقيتني في فيضان ليس لي القوة ولا الإرادة على الخروج منه . وإنني أضرع إليك ألا تجعل على شفتي كلمة تعارض الكنيسة . . . وإذا كانت قوانين البابا وأوامره مخالفة لقواعد الحكمة . . . فليس له على أحد حق الطاعة . . . ويعلم الجميع أن أعدائي حاولوا القضاء على الحياة الطيبة والحكومة الصالحة ، وأن يفتحوا الباب لكل الموبقات . وحالما صدر قرار الحرمان عادوا إلى العربدة وحياة الفسوق . . . ولذلك فإنني أخبركم أنني إذا كنت ملعوناً في الأرض فإنني مبارك في السماء . . . أيها الرب إذا حاولت أن أتحرر من قرار الحرمان هذا ، فأرسلني إلى الجحيم . إنني أتجنب طلب الغفران كما أتجنب خطيئة مميتة . . »

وقال في عظة أخرى : « عندما أفكر في حياة رجال الدين فإنني أضطر إلى البكاء . يا رفاقي ويا أولادي اسفكوا دموعكم لمصائب الكنيسة ، لكي يدعو الرب رجال الدين للندم ، لأنه من الواضح أن عقاباً مرعباً في انتظارهم . . . ويل لإيطاليا وويل لروما! تعالوا يا رجال الدين ، تعالوا يا رفاقي ، لنبذل خير ما في استطاعتنا لكي نحيي قليلاً حب الله . . . إن أعدائي قد يقتلونني كما يشاؤون ، ولكنهم لن يستطيعوا أن ينزعوا المسيح من قلبي . إنني مستعد أن أموت من أجل ربي . إنكم كنتم في روما ، وتعرفون حياة هؤلاء القساوسة . خبّروني هل يمكن أن تعدّوهم دعائم الكنيسة أو حكاماً دنيويين ؟ ألا يلتف حولهم الحشم والخدم ، تحيط بهم الجياد وكلاب الصيد ؟ أليست قصورهم مملوءة بالأبسطة والحرائر والعطور والأتباع ؟ هل يبدو لكم أن هذه هي كنيسة الله ؟ إن مجدهم الباطل يملأ الوجود ، وجشعهم لا حد له . إنهم يفعلون كل شيء من أجل الذهب ، ويدقون النواقيس من أجل شراهتهم ، ولا يطلبون إلا الخبز والشمع والمال . . . وهم يبيعون كل شيء . . . »

وتكلم في عظة أخرى عن البابا وسلطته فقال : « إنني آخذها كقضية مسلم بها

Twitter: @ketab_n

أنه لا يوجد رجل لا يتعرض للخطأ . وإنك لمجنون إذا قلت إن البابا لا يخطئ ، حيث وجد عدد كبير من البابوات الأدنياء الذين أخطؤوا . . . انظروا كم من قرارات أصدرها أحد البابوات أزالها من جاء بعده . وكم من آراء كانت لبعض البابوات عارضها غيرهم من البابوات! » وقال إن أخطاء البابوات قد تسببها الإرادة الخبيثة أو المعلومات الكاذبة التي تصل إليهم . « ولماذا هم ثائرون عليّ في روما ؟ أتظنون ذلك من أجل الدين ؟ كلا . إنهم يحاولون القضاء على حكومتنا ، ويعملون على بسط طغيانهم علينا . وإذا قُضي على الحياة الصالحة ، التي أوجدتها تعاليمنا فلا يهمّهم شيء . . . وعلى ذلك فإن من يحارب هذه التعاليم ، فإنه يحارب الرحمة الإلهية وهو في الحقيقة هرطيق . ولكن في أيامنا هذه أصبح رجال الدين مأجورين للحكام والعظماء ، وهم يرتعدون من قول الصدق ، أو من معارضة من هم أعلى منهم سلطة . . . إنكم تحرفون قوانينكم وتقلبونها طبقاً لأغراضكم . وتجعلون هذا قانونياً وذلك غير قانوني ، كما يروقكم ، إلى درجة المتاجرة في تطهير النفوس . . . » . « وتوضع القوانين لأغراض صالحة ، وعلى ذلك ينبغي أن تكون متفقة مع العقل والخير . تعال أيها الكاهن أو الراهب . . . وسأثبت لك أنك أشبه بصورة ملونة -ولا شيء جيد في داخلك . إذا كان الغرض من القانون هو الحياة الطيبة ، فإن قيمة القانون تكون بناء على ما يجني منه . وحيث تكون الأعمال الصالحة ، يكون القانون الصالح . وحيث تكون الأعمال الشريرة ، فلا يكون للقانون الصالح وجود . . . وإذا سأل إنسان ماذا تفعل إذا جاء العالم كله ضدك ؟ أجيب بأنني سأقف في مكاني ثابتاً ، لأن تعاليمي هي تعاليم الحياة الطيبة ، ولذلك فإنها آتية من الله . وقرار الحرمان هذا معارض للحياة الطيبة ، ولذلك فإنه آت من الشيطان . . . هل تظنون أن القوانين توضع للشر ؟ وإذا نفذت الأحكام غير العادلة . . . فإن بابا دنياً يستطيع أن يحطم الكنيسة كلها . . . إنني أقول لكم إن هذه القرارات رخيصة . . . ولا قيمة لها » .

وعلى هذا النحو أعلن ساڤونارولا احتقاره لقرارات الحرمان من ذلك النوع ، الذي لا يستند إلى العدل ، وينافي حياة الدين الصحيح ، ولا يكون الغرض منها سوى خدمة الأغراض الشخصية ، وتحقيق المطامع السياسية . واستمرار البابا في سياسته العدائية نحو فلورنسا ، وسعيه المتصل لقلب نظام الحكم فيها ، وحياته الخاصة التي خالفت تعاليم الدين المسيحي ، زادت من تصميم ساڤونارولا على تحدي البابا وسلطانه ، وأقنعته بأن المقاومة واجب مقدس ، وأن الله سينصره في جهاده عما قريب .

اشتد حنق البابا من جرّاء استمرار ساڤونارولا في الوعظ بين الناس رغم صدور قرار الحرمان ضده . وغضب على فلورنسا لأن حكومتها أباحت له العودة إلى

Twitter: @ketab_n

الوعظ . وهدد بإصدار قرار التحريم ضدها إذا لم تسكته في الحال . كما طلب إحضار ساڤونارولا في الحفظ والحماية إلى روما ، ووعد بحسن استقباله إذا أبدى الندم على ما كان منه .

حدث أن أصبح أغلب أعضاء مجلس السنيوريا (لشهري مارس وإبريل سنة ١٤٩٨) من أعداء ساڤونارولا . ووجدت الحكومة الجديدة أن علاقة فلورنسا بالبابا أصبحت سيئة . وأن مشكلتها مع بيزا لم تسوَ بعد ، وأن ليفورنو مهددة بأسطول البندقية ، كما أن الأراضي التسكانية كانت تعوزها وسائل الدفاع ضد الأخطار الخارجية . حاولت الحكومة الجديدة أن تتظاهر بالعمل على تحسين الموقف ، واجتهدت ظاهرياً في استرضاء البابا بشأن ساڤونارولا . اكتفت بمنعه من الاستمرار في الوعظ خارج دير سان ماركو .

لم تمنعه الحكومة من الوعظ في فلورنسا نهائياً . وقالت للبابا إنها لو اشتدت في معاملة ساڤونارولا فإنها ستعرض فلورنسا للاضطرابات والفتن الداخلية ، وهو الرجل الذي أخلص في سبيل فلورنسا . وفي الواقع لم تكن نية الحكومة الجديدة خالصة نحو ساڤونارولا ، وأضمرت له السوء ، وحاولت في الخفاء أن تزيد عليه حنق البابا .

لم يسكت ساڤونارولا في عزلته الجزئية . فقال لمستمعيه في دير سان ماركو : « . . . إن البابا لا يخطئ . . . ولكنه إذا أخطأ فإنه لا يكون بابا . وإذا أصدر أمراً خاطئاً ، فلا يمكن اعتباره صادراً عن البابا . . . إذا أمرك البابا أن تفعل شيئاً ضد الخير ، وإذا أطعته فإنك تعطي البابا أكثر مما تعطي الله » . « إن سبب فساد الكنيسة هي السلطة الدنيوية . وعندما كانت الكنيسة فقيرة كانت مقدسة . ولكن عندما أصبحت لها سلطة دنيوية ، فقدت سلطتها الروحية وانغمرت في تراب الثروة وشؤون الدنيا . . . » كما تكلم عن معنى دعوة مجمع ديني سام لإصلاح الكنيسة ورجال الدين . وكان يأمل أن يتحقق ذلك لكي يتمكن من مهاجمة اسكندر مباشرة مبيناً بصراحة ما ارتكبه من الآثام .

أعلن البابا استياءه الشديد إلى سفير فلورنسا في روما ، لاستمرار ساڤونارولا في عظاته بعد كل ما سبق . ودونما طائل حاول السفير بونسي الدفاع عن ساڤونارولا . قال له البابا إنه لم ينخدع في أمره ولم يستمع إلى أعدائه ، وإنه قرأ بنفسه عظاته وسمع من حضرها . وأصر على ضرورة منعه من الوعظ نهائياً وإلا تعرضت فلورنسا لقرار التحريم . وأرسل البابا تهديداته إلى فلورنسا ، واستخدم في ذلك الدهاء والمكر . وقال في خطاباته إلى حكومة فلورنسا إن عقيدة ساڤونارولا سليمة ، وإن حياته وعمله يدعوان إلى التقدير والإعجاب . وإنما عيبه في عدم الطاعة والخضوع للأوامر البابوية وتحديه قرارالحرمان ، وذلك مما يخالف قواعد

Twitter: @ketab_n

الكنيسة . وطلب حضوره إلى روما ، مع الوعد بالصفح عنه ، ولكن ساڤونارولا لم يقع في الفخ .

عقدت حكومة فلورنسا في ١٤ مارس لجنة كبيرة من أعضاء لجان الحكم الرئيسية ، وانضم إليها ٢٥مواطناً يمثلون أحياء المدينة ، وتكلم جميع الحاضرين أولاً في مديح ساڤونارولا ، سواء أكان ذلك مديحاً خالصاً أم تظاهراً وذرّاً للرماد في العيون . ثم اختلفت الآراء . وأظهر بعضهم الخوف من البابا ورغبوا في الخضوع له ، خشية ما قد يصيبهم من الأضرار . سخر الآخرون من تهديدات البابا ورغبوا في أن يستمر ساڤونارولا في وعظه . وجرت مناقشات حادة عنيفة ، ظهر خلالها الروح الحزبي القديم المتأصل في نفوس أهل فلورنسا . وتضاربت المنافع العامة والشخصية ، وظهرت الدوافع السياسية والدينية ، واصطدمت آراء الوثنية بالروح المسيحية . مما يصوّر لنا ذلك كله طبيعة المجتمع الفلورنسي تصويراً صحيحاً .

تداول الكلام معارضوه وأنصاره ، وأدلى كل من الفريقين بوجهة نظره . تكلم أولاً جوفانيّ كاناتشي ، فذكر الأضرار التي يلحقها قرار التحريم البابوي بالتجارة الفلورنسية . ثم أعلن أن للبابا الحق في عقاب من يشاء من رجال الدين . وينبغي تسليم ساڤونارولا إليه . ووقف باولو أنطونيو سوديريني يدافع عن ساڤونارولا ، فقال إن البابا لا يحق له أن يصدر مثل هذه الأوامر ، وإنها تسبب انشقاقاً ، وينبغي أن يعلم البابا أن فلورنسا لن تنضم إلى الحلف المقدس بأي ثمن ، وأن الفلورنسيين عازمون على حفظ السلام في بلادهم . وأن ساڤونارولا جوهرة ثمينة نادرة ، ليس له نظير في إيطاليا كلها .

ثم تكلم جويد انطونيو فسبوتشي ، وهو من أنصار الحكم الارستقراطي في فلورنسا ، فقال : « إن فلورنسا تريد الحصول على ضريبة العشر على أملاك الكنيسة وتريد استرجاع بيزا وتريد إصدار العفو عن ساڤونارولا . ولا يمكننا أن نطلب هذه الأشياء من البابا ونحن نسمح بمناوأته . وسواء أكان ساڤونارولا مخطئاً أم مصيباً ، فإننا لن نحصل على شيء من البابا دون أن نسترضيه . وإذا أصدر البابا قانون التحريم ضدنا فإن فلورنسا ستفقد تجارتها . وإذا فكر إنسان فيما يمكن أن تتعرض له هذه المدينة من الضرر إذا أوقفت عظات ساڤونارولا ، فإننا ينبغي أن نتذكر أن الأمر بمنعها قد صدر من الرئيس الديني الأعلى ، ولا ذنب لنا في هذا المنع . . . وأن البابا يستمد قوته من الله ، ولكنا لا نستطيع أن نثق هل ساڤونارولا مرسل من الله حقاً أو لا . فينبغي إذاً أن نطيع البابا » .

ونهض إنيا ذلاّ ستوفا متكلماً باسم الشعب فقال : « إن الله قد أتى لمساعدتنا حتى عندما كانت إيطاليا كلها ضدنا . فلماذا نبعد الآن عن الطريق الذي رسمه لنا ساڤونارولا ؟ إن سلطة البابا روحية ، ولكن ليست له سلطة زمنية . ولا يناسب

Twitter: @ketab_n

كرامتنا أن نصبح آلات يسيّرها كما يشاء . وإذا سلمتم في هذه المسألة فإن البابا سيطلب أشياء أخرى . وأن ممثلي الشعب لا يخافون قرار التحريم . وستمضي تجارتنا في طريقها كما كان الحال من قبل » .

وقال فرنتشسكو فالوري -رئيس الدولة السابق- : « إنه لم تُذكر كلمة واحدة بيننا عن إغلاق دير سان ماركو ، لأنه في مدينة حرة لا تمنع الأعمال الصالحة ، ولكن تمنع الأعمال الشريرة . وإن هذا الدير مدرسة للفضيلة ، وسيعلو شأنه لخمسين سنة أخرى » . ونصح للحاضرين بتكريم ساڤونارولا وتمجيده لأنه أعظم رجل ظهر في فلورنسا في القرنين الماضيين .

وممن تكلموا في صف ساڤونارولا أنطونيو كانيدجاني فقال إن مقعده لا يخشى قرارات الحرمان . وإن الكتاب المقدس يدل على أن ساڤونارولا نبي حقيقي . « ولما كان البابا موافقاً على تعاليمه وسيرته فكيف يصدر ضده قرار الحرمان ؟ وإنني لا أعارض سلطة البابا ولكني أقول إنه معرض للخطأ . . . ولا يجوز أن تخضع حريتنا لإرادة البابا » .

ومع ذلك كانت نتيجة تلك المناقشات أن أعلنت أغلبية الأعضاء وجوب منع ساڤونارولا من الوعظ في الناس بتاتاً . ووقفت أقلية إلى جانبه ، وبقيت أقلية أخرى مترددة بين الفريقين . وبذلك كسب أعداء ساڤونارولا الموقف . وعبّروا عن ضرورة الحرص على تحقيق مصالح فلورنسا التجارية والسياسية ، باكتساب رضا البابا . وفي الوقت نفسه اعتقدوا أنهم سيخالفون ضميرهم إذا لم يطيعوا أوامر البابا باعتباره رأس الكنيسة الكاثوليكية . وقررت كلمات فسبوتشي مصير الحوادث . ولم يدافع أنصاره عنه بحرارة كافية . شرحوا وجهة نظرهم ، وأضاف بعضهم صفات النبوة إلى ساڤونارولا ، مما أضر ذلك بقضيته . وكذلك لم يجرؤ أحد من أنصاره على مهاجمة البابا ذاته . وعلى العموم لم يوجد الشعور الكافي لدى الأغلبية لكي يغلبوا مسائل الأخلاق والدين على المسائل المادية ، مما يحمل الشعوب على أن تقوم بأعمال البطولة النادرة في بعض الظروف . فكّروا أكثر فيما يسببه غضب البابا لتجارة الصوف والنبيذ من الكساد في فلورنسا .

وهكذا أخذت الحوادث تسرع الخطا نحوالنهاية المحتومة . وتقرر منع ساڤونارولا من الوعظ نهائياً ، طوعاً لأمر البابا ، مع الاعتراف بفضله وإخلاصه في خدمة فلورنسا . وصدر القرار في ١٧ مارس ١٤٩٨ .

وفي ذلك اليوم نفسه وعظ ساڤونارولا في دير سان ماركو جمهوراً من النساء . قال : « إننا لا نصلي من أجل الهدوء . . . ولكنا نصلي من أجل حب الله ، ولكي يمنحنا القوة والبراعة للتغلب على المحن . . . ولم يبق لي سوى الدموع » . وتلقى قرار المنع في مساء اليوم ذاته . وفي اليوم التالي خطب لآخر مرة فقال :

Twitter: @ketab_n

« . . . غير صحيح أنني حاولت إضعاف سلطة الكنيسة . قد خضعت دائماً ، وحتى الآن أخضع للكنيسة الرومانية . وأنني لا أسعى لإضعافها ، بل لتقويتها . ولكنني لن أخضع لقوى الجحيم ، وإن كل قوة تعارض الخير ، ليست من الله ولكنها من الشيطان . وكثيراً ما فكرت وقلت لنفسي ، عند آخر كل عظة لي ، إنني لن أتكلم عن هذه الأشياء مرة أخرى . . . ولكني عندما كنت أصعد إلى هذا المكان ، لا أقوى على حبس نفسي ، ولا أستطيع أن أتكلم في غير هذا . إن رسالة الله أصبحت كنار تأكل عظامي وقلبي . وما كنت أتحملها (في صمت) ، فكنت أضطر إلى الكلام ، لأنني أشعر أن كلّي يحترق ويشتعل بروح الله . . . أيها الروح الإلهي إنك تثير أمواج البحر وتقيم العواصف . . . فلندع كل شيء للرب . . . إننا مقتنعون . ولتنفذ إرادة الله . لأنه كلما زادت آلامنا على الأرض زاد مجدنا في السماء . . . بالأمس جاءني رسول من أولئك الذين يحكموننا ، يرجون مني لأسباب متعددة أن أمتنع عن الوعظ . . . ستأتي أخبار سيئة إلى فلورنسا ، وستجتاحها المصائب . إنكم تخافون قرار التحريم من البابا ، ولكن الرب سيوقع بكم تحريماً يزهق حياة الأدنياء . . . أيها الرب إني أضرع إليك أن ترحم الصالحين ، وألا تؤخر وعودك بعد الآن » .

وفي الوقت نفسه كتب ساڤونارولا إلى البابا يحذره مغبة العواقب ويوضح له تصميمه على النضال إلى آخر لحظة . قال : «اعتقدت دائماً أن واجب المسيحي المخلص أن يحمي الدين . . . ولكنني لم أجد أحداً يساعدني في هذه المهمة . وإنني أضع أملي في قداستك . ولكنك اخترت أن تنحاز إلى جانب أعدائي ، وحرّضت الذئاب الضارية على مهاجمتي . . . وسيساعدني الله على أن أثبت وأحتفظ أمام العالم ، بقداسة القضية التي تحملت من أجلها كثيراً ، وسيوقع العقاب الصارم بأولئك الذين يتعقبونني ويعملون على تحطيم عملي . وإنني لا أسعى لكسب فوائد مادية لنفسي ، بل أترقب الموت بفارغ الصبر . . . ولا تتأخر قداستك بعد الآن ، واعمل سريعاً على خلاص نفسك» . وكان بذلك خصماً شريفاً . فبالرغم من إدراكه لما تميز به اسكندر بورجيا من صفات الغدر والدهاء، فإنه أعلنه صراحة بالخطة التي سيتبعها وتمسك في ذلك بمبادئ الأخلاق والدين .

صمّم ساڤونارولا على القيام بمجهود أخير لإنقاذ الموقف ، بالدعوة إلى عقد مجمع ديني عام ، يدافع فيه عن نفسه ، ويعلن أن اختيار اسكندر بورجيا لكرسي البابوية باطل لأنه تم بالرشوة ، ويشرح جرائمه وآثامه الكثيرة ، ويثبت أنه هرطيق خارج على الدين ، وأنه السبب الأساسي لكل المفاسد التي أحاطت بالكنيسة في ذلك الوقت .

وكانت مسألة عقد المجمع الديني العام للنظر في شؤون الكنيسة من بين

Twitter: @ketab_n

قرارات مجمع كونستانس الديني ، الذي ألزم البابا بعقد مجمع ديني عام مرة كل عشر سنوات . وإذا أهمل البابا ذلك فعلى الملوك والأمراء أن يعقدوا ذلك المجمع الديني دون دعوة البابا . وسبق أن فكر بعض رجال الدين المعاصرين كما فكر شارل الثامن في ذلك . ولكن لم ينفذ شيء عملي . واعتزم ساڤونارولا أن يسعى لتحقيق ذلك .

حاول ساڤونارولا الاتصال بملوك أوربا وأمرائها في فرنسا وانجلترا وألمانيا وأسبانيا والمجر . ووجه إليهم رسائل ذكّرهم فيها بخطايا البابا وآثامه . ودعاهم إلى عقد مجمع ديني عام على وجه السرعة في مكان ملائم . وحفزهم للنهوض بإصلاح الكنيسة . واعتمد بصفة خاصة على شارل الثامن ، الذي كان لايزال يأمل أنه يستطيع القيام بعمل حاسم في هذه السبيل . وقال في رسائله إن الملوك لا يكفيهم الفتوح والحروب ، بل لابد من أن يعملوا على مجد الدين ، حتى لا تنهار عروشهم التي يشيدونها . وفي الواقع أنه كان قد بدأ يشتد اضطراب النفوس في أوربا ، الذي أدى فيما بعد إلى حركة الإصلاح الديني . ولكن لم تكن الفرصة قد سنحت بعد للبدء بها . على أنه لا يعرف إن كانت رسائل ساڤونارولا قد وصلت إلى أصحابها . وقع أغلبها في يد أعدائه الذين تربصوا لرسله في الطريق . ولا نعلم هل كانت تلك الرسائل ستحدث أثرها المطلوب لو أنها وصلت إلى أصحابها . في الواقع أن الظروف ما كانت تسمح بتحقيق ذلك . ووصلت بعض رسائل ساڤونارولا إلى البابا ، فأصبح في يده الأدلة الثابتة على نياته الحقيقية .

وفي حياة الأفراد كما في حياة الشعوب كثيراً ما يتغير مجرى الحوادث عندما يشعر الفرد أو الشعب أنه يوشك أن ينجح . وبينما كان ساڤونارولا يترقب إجابات ملوك أوربا وأمرائها على رسائله إليهم ، إذ به يعلم أنها وصلت إلى يد البابا . فضاع بذلك أمله المرتقب . وازدادت الأخطار المحدقة به من جميع النواحي ، وسارعت الحوادث خطاها . حتى أنه لم يدرك لأول وهلة ما يخبئه له القدر من الأحداث .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر
تجربة النار وسقوط ساڤونارولا

عوامل سقوطه : تفاوت شعب فلورنسا بين الإيمان والشك -خصومه -أثر السياسة في الدين -نقط الضعف في الدستور الفلورنسي -خطورة ملكة التنبؤ -أثر السياسة الخارجية -الفرنتشسكان يتحدون ساڤونارولا لدخول النار -معارضته -دومنيكو يقبل التحدي -تآمر رجال السنيوريا مع أعدائه -تجربة النار -تلكؤ الفرنتشسكان واختفاؤهم - ملل الجمهور -حدوث الشغب -رجوع رهبان سان ماركو إلى الدير وسخط الجمهور -محاصرة الدير -القتال - تسليم ساڤونارولا ودومنيكو -حبسهما في القصر القديم .

لم يكن من المستطاع أن يظل ساڤونارولا محتفظاً بسلطانه على أهل فلورنسا . والرجل الذي استطاع أن يكون روح الشعب ، وواضع الدستور الجديد ، والذي أصلح سلوك أهل فلورنسا عامة ، لم تتوافر له الظروف التي تساعده على الاستمرار في إصلاحاته . وتوافرت في ساعة نجاحه ذاتها العوامل المختلفة التي لم يستطع التغلب عليها ، والتي ستعمل بعد قليل للقضاء على سلطانه ، وتؤدي إلى وقوع مأساته التاريخية الفاجعة .

ما تلك العوامل ؟ وكيف تغيّر الموقف ؟ وكيف انصرف جمهور أهل فلورنسا عن ساڤونارولا ، وانكمش أتباعه المخلصون ، فوقفوا مكتوفي الأيدي ، وعجزوا عن

Twitter: @ketab_n

إنقاذه في الظروف الحرجة التي هو مقدم عليها ؟ هناك أسباب متنوعة .

يبدو أنه من الصعب لأي إنسان أن يكرّس حياته لإصلاح بلاده أو طبقة معينة من مواطنيه أو العالم كله ، إصلاحاً شاملاً ، طبقاً لمبادئ معينة مهما كانت سامية ، دون أن تنتهي محاولته بمأساة عنيفة قاسية . لا يستطيع فرد مهما خلصت نيته إصلاح المجتمع أو تغييره دفعة واحدة . إن تغيير المجتمع يتم نتيجة لجهود متعددة متتابعة . والمصلح الذي يصر على تغيير المجتمع في فترة محددة كثيراً ما يصبح لا حظّ له في الحياة ، وكثيراً ما يضحي دون أن يحقق النجاح الذي يرجوه . وغالباً ما تتعدل نزعة الإصلاح في نفوس أولئك المصلحين ، إذا ما امتدت بهم الحياة ، عندما يصطدمون بالوقائع العملية التي تحيط بهم . وكان ساڤونارولا -وقد قضى وهو في مقتبل العمر- من أولئك المصلحين الذين جاهدوا لتغيير المجتمع على أساس مبادئ الأخلاق والدين .

وكما عرفنا من قبل تكوّن شعب فلورنسا من عناصر متفاوتة في درجة التدين والميل لملاذ الحياة . وجد بين الطبقة العليا والوسطى فريق من المتدينين بطبعهم ، الذين لم ترضهم أخلاق العصر ، فعاضدوا ساڤونارولا في دعوته لاتباع تعاليم الدين ، ومنهم كان أنصاره المخلصون . وفي الوقت نفسه وجدت دائرة أوسع من العامة الذين تأثروا بعظاته وحرارة كلماته ، وكانوا مستعدين للقيام بتضحيات متفاوتة في سبيله ، عندما كان نفوذه سائداً . ولكن عندما أخذ سلطان ساڤونارولا يضعف بدؤوا ينصرفون عنه متأثرين بتيار الحوادث العام . ثم هناك دائرة أكثر اتساعاً تشمل أولئك الذين عاضدوه ، لأنه دافع عن حرية فلورنسا السياسية . ولم يعبأ هؤلاء بحركته الدينية ولا بتنبؤاته ، ولم يكن يهمهم حكم رجال الدين . ولكنهم التفوا حوله واستخدموه لمنع الطغيان السياسي في فلورنسا . وكان لهؤلاء أثر كبير في نجاحه وسقوطه على السواء . فانضموا إليه وانصرفوا عنه تحقيقاً لأغراضهم السياسية . وكان أولئك الذين تظاهروا في وقت ما بنصرته أسوأ أثراً فيه من خصومه أنفسهم .

أما خصومه فكانوا من عناصر متنوعة أيضاً . فهناك أنصار آل مديتشي الذي حاولوا مراراً التآمر عليه لمصلحتهم ، وظلوا يرقبون الفرص لتحقيق أغراضهم . واتصلوا بحكام إيطاليا وعلى الأخص بالبابا الذي لقوا منه أكبر تأييد . ثم من خصومه أيضاً حزب الأرّابياتي الذين كانوا من أصحاب المال والسلطان ، وكانوا يؤثرون عودة الحكم الأوتوقراطي في فلورنسا ، ولكن لا على يد آل مديتشي ، بل على أيديهم . وهؤلاء وجدوا نصيراً في شخص لودوفيكو سفورتزا الذي كان يكره آل مديتشي . وبالرغم من تعارض المصالح بين هذين الفريقين فإنهما اتحدا للقضاء على ساڤونارولا . وهناك فريق ثالث من أخطر خصوم ساڤونارولا من أول الأمر ،

Twitter: @ketab_n

وهو فريق الكومبانياتشي -أو رفقاء السوء- الذين كانوا متطرفين في كراهية رجال الدين وحكمهم ، وكانوا يسخرون بالجنة والنار وبنبوءات ساڤونارولا . ولم يكن لهؤلاء أثر في مجالس الحكم ولكن أثرهم كان قوياً على الشعب بما قاموا به من الشغب ومحاولة الاعتداء على ساڤونارولا ، وتشويه سمعته بين جمهور أهل فلورنسا . أضف إلى ذلك أنه كان من بين خصومه منافسوه من رجال الدين أنفسهم ، فقام رجال الفرنتشسكان في فلورنسا بمهاجمته والطعن في نبوته ، واتهموه بأنه مثير الفتن والشقاق ، وأظهروا العطف على فقراء فلورنسا ، وقدموا لهم المساعدات المادية لكي يصرفوهم عن ساڤونارولا .

ومن العوامل الفعالة التي أدت إلى سقوط ساڤونارولا دخوله ميدان السياسة . ولا شيء أخطر على النفوذ الديني من السياسة . صحيح أنه دخل ميدان السياسة لإصلاح الدستور الفلورنسي ولتوطيد حكم الشعب ، على النحو الذي عرفه أهل العصر ، كما أراد أن يجعل تعاليم الدين أساساً لحياة المجتمع الفلورنسي . ولكن دخوله ميدان السياسة الشائك جعله عرضة لمناوأة خصومة السياسيين ، من أصحاب الأفكار والمصالح المتعارضة . ورجل الدين في ميدان السياسة معرض للنجاح والفشل . وإذا فشل في السياسة فيكون لذلك أثره من غير شك على نفوذه الديني . ولقد استمرت المنافسات بين أنصاره وخصومه في حكم فلورنسا . وتداول الحكم عناصر مناصرة له ومعادية . ولو كانت حكومات فلورنسا كلها من العناصر الموالية لساڤونارولا لتغيّر الموقف . وعمل أعضاء الحكومة من معارضيه للتآمر عليه والقضاء على نفوذه . ولم يكن ساڤونارولا ، باعتباره من رجال الدين المخلصين ، يستطيع أن يلجأ في ميدان السياسة إلى وسائل أهل العصر ، من الغدر والدس والخداع والكذب . . . في حين أن أعداءه اتخذوا من الوسائل ما يحقق أغراضهم . فلم تكن لساڤونارولا من الأسلحة سوى الزهد والتدين والفصاحة ، ولكنها لم تكف لمواجهة خصومه . وحدث في ميدان السياسة الشائك ، كما عرفنا ، أن أعدمت حكومة فلورنسا خمسة من المواطنين ، من بينهم أحد رؤساء الدولة السابقين ، لتهمة التآمر على سلامة الجمهورية . وكان ساڤونارولا قد دعا من قبل إلى قطع رؤوس من تحدثهم أنفسهم بخيانة الشعب . ولكنه وقف منعزلاً عند محاكمة أولئك المتآمرين فعلاً . ولم يتدخل لمصلحتهم ، باعتباره من رجال الدين ، لأنهم كانوا من أعدائه السياسيين . وقتل هؤلاء من جانب أنصار الحكم الأوتوقراطي ، معناه احتمال قتل أفراد من الجانب الآخر ، كردّ فعل طبيعي . وبذلك عرّض ساڤونارولا نفسه لمؤامرات خصومه ، ولمحاولة الفتك به .

وكذلك نجد أن الدستور الفلورنسي الجديد ، الذي وضع ساڤونارولا مبادئه ، لم يحقق النجاح المرجو منه . وبالرغم من العناصر الديموقراطية التي اقتبست عن

Twitter: @ketab_n

دستور البندقية ، فإن الدستور الفلورنسي الجديد لم يوجد هيئة تنفيذية قوية ، كما عرفنا ، واستمرت اللجان والمجالس الحكومية تتغير في أوقات متقاربة مما أدى إلى استمرار الاضطراب في أداة الحكم ، فأتيحت الفرصة أمام أعدائه للسيطرة على الحكم . ثم أن الدستور الجديد ألغى ، كما عرفنا ، البرلمانات العامة منعاً لاستخدامها لمصلحة أصحاب الطغيان . ولكن ذلك الإلغاء أدى إلى ضياع المظهر الوحيد -مهما كانت قيمته الحقيقية -لاشتراك عامة أهل فلورنسا في الحكم . فلم يعد لهم صوت في الحكومة الجديدة . وأدى ذلك من غير شك إلى تذمرهم وسخطهم . والجمهور متقلب ، يستطيع المصلح أن يؤثر فيه ويقنعه بعمل شيء جديد ، ولكنْ من الصعب إبقاؤه متمسكاً به على الدوام . فما بالنا إذا تنبه العامة إلى ضياع مظهر السلطة الوحيد الذي كان في أيديهم .

وملكة التنبؤ صفة خطيرة ، وكان ساڤونارولا يفخر بها في أحيان كثيرة . وتحققت بعض تنبؤاته مثل موت لورنتزو وأنشنتو وولي عهد فرنسا وفشل ماكسميليان . . . ولكن أهم تنبؤاته لم تتحقق في حياته . قال للناس إن الله سيعاقب إيطاليا كلها وروما خاصة ، وإن فلورنسا المدينة المختارة ، بعد أن تنال جزاءها البسيط من العقاب ، ستأخذ بيزا وستعود إلى مجدها السابق . ملّ الجمهور الانتظار ، ووجد أن البابا لم يصب بأذى ، وأن إيطاليا لم تصب بأذى ، وأن روما هادئة مطمئنة . وذلك في الوقت الذي هبطت فيه تجارة فلورنسا وتعرضت لأخطار المجاعة والطاعون . وبقدر ما يؤمن العامة بالأحلام والتنبؤات يحسون بمرارة الخيبة . وهؤلاء هم الذين أحسّوا بوطأة الجوع والطاعون . فضاع في نظرهم نفوذ ساڤونارولا وسلطانه .

وكانت السياسة الخارجية من عوامل سقوط ساڤونارولا . فإن انحياز فلورنسا إلى جانب فرنسا وتمسكها بذلك الموقف أزعج الإمارات الإيطالية ، وخاصة البابا ، الذي حاول أن يبعد فلورنسا عن صداقتها لفرنسا ويضمها إلى الحلف الإيطالي . ووقف ساڤونارولا يعارض سياسة البابا . فأدى ذلك إلى اشتراك البابا في مهاجمة فلورنسا وسعى إلى إرجاع ال مديتشي إلى حكمها ، توطئة لبسط نفوذه عليها . فأقلق ذلك حكومة فلورنسا وشعبها . وعدّوا أن ساڤونارولا هو المسؤول عن ذلك . وإن كانت فلورنسا ستتبع السياسة نفسها بعد سقوطه .

هذا مجمل للظروف والعوامل التي أدت إلى انصراف الناس عن ساڤونارولا ومهدت لسقوطه وحدوث مأساته . ولنتتبع سير الحوادث السريعة المتلاحقة .

لجأ أعداء ساڤونارولا من رهبان الفرنتشسكان في فلورنسا إلى محاربته عن طريق المعجزات . ونهض فرنتشسكو دي بوليا الفرنتشسكاني لمهاجمة ساڤونارولا . وطلب إليه إثبات صحة تعاليمه بالدخول معه في النار ، وستأكل النار

Twitter: @ketab_n

من يرى الله فساد تعاليمه . رفض ساڤونارولا ذلك التحدي وقال إن تعاليمه وفساد قرار الحرمان البابوي لا يتطلب معجزة لإثباته . وما دامت الطرق الطبيعية تكفي لذلك ، فلا داعي لطلب المعجزات . ورفض ساڤونارولا التجربة أيضاً لتقديره المؤامرات التي كان يدبرها له خصومه في الخفاء . على أنه أعلن استعداده للقيام بنفسه بتجربة النار بشرط حضور ممثلي ملوك أوربا والبابا . كما اشترط إذا نجا من النار أن يعقد في الحال مجمع ديني لإصلاح الكنيسة . وقال إن مثل هذا الأمر العظيم يحتاج إلى معجزة . وكادت المسألة تقف عند ذلك الحد .

ولكن قام الراهب دومنيكو وهو من أنصار ساڤونارولا المخلصين ، وقبل تحدي فرنتشسكو دي بوليا . وحاول ساڤونارولا دون جدوى منع دومنيكو عن قبول تجربة النار . وتحمس أنصار ساڤونارولا وأبدوا استعدادهم لدخول النار دفاعاً عن تعاليم الدين . كما أن فريق الكومبانياتشي عملوا على تنفيذ التجربة ، لأنهم أدركوا أنه إذا دخل ساڤونارولا أو بعض أتباعه النار ، فسيحترقون ، وإذا رفضوا فسيفقد ساڤونارولا نفوذه نهائياً . وصمموا على انتهاز تلك الفرصة لإثارة الشغب والاعتداء عليه وقتله إذا أمكن ، أثناء التجربة ذاتها . وقال فرنتشسكو دي بوليا إنه تحدى ساڤونارولا شخصياً لا الراهب دومنيكو . وإذا لم يقبل ساڤونارولا دخول النار بنفسه ، فإنه لن يدخلها أيضاً وسيضع بدلاً منه الراهب جوليانو روندينلّي .

واتصل أعداء ساڤونارولا بأعضاء السنيوريا ، الذين كانوا معارضين له ، واتفقوا على تفصيلات تجربة النار ، وقرر الفرنتشسكان أنهم سيعملون على التلكؤ أثناء التجربة ، وأنهم لن يدخلوا النار فعلاً . وكان المقصود بذلك وضع ساڤونارولا ورهبان سان ماركو في مركز حرج ، وإثارة سخط الجمهور عليهم . وكان ذلك العمل مؤامرةً مدبرةً ، اشترك فيها أعداء ساڤونارولا من رجال الحكومة ومن أهل فلورنسا . وأعلن أنه إذا احترق أحد رهبان سان ماركو فينفى ساڤونارولا من فلورنسا ، وكذلك بالنسبة لرهبان الفرنتشسكان . وإذا احترقوا جميعاً فينفى الدومنيكان فقط . وكان هذا قراراً يدل على التحيز المعيب من جانب حكومة فلورنسا . وأعلن أيضاً أنه إذا لم تتم التجربة فينفى الفريق الذي عمل على منعها ، أو الفريقان معاً إذا اشتركا في تعطيلها . وأعلن البابا في ذلك الموقف معاضدته لتنفيذ التجربة ، ولكن بطريقة غير رسمية . واستاء ساڤونارولا لعلمه أن الأغراض السياسية والأحقاد الشخصية ، هي التي حركت أعداءه للعمل ضده تحت ستار الحماسة الدينية ، ولكنه اعتقد أنه إذا تمت التجربة فسينصر الله الحق والعدل .

حلّ يوم ٧ إبريل وهو التاريخ المحدد لإجراء تجربة النار ، وقد انعقدت عليه الآمال المختلفة من جانب أعداء ساڤونارولا وأنصاره . واضطرت الحكومة إلى اتخاذ الاحتياطات حتى لا يعم الاضطراب في أثناء التجربة ، فمنعت دخول الجمهور

Twitter: @ketab_n

المسلح إلى ميدان السنيوريا . ووعظ ساڤونارولا رجاله في دير سان ماركو صباح ذلك اليوم وأعلن عدم ثقته في تنفيذ التجربة . وخرج رهبان سان ماركو في موكب طويل ، يسيرون اثنين اثنين ، وعددهم حوالي ٢٠٠ راهب ، ومعهم ساڤونارولا ، ووصلوا إلى ميدان السنيوريا ، وكان قد اجتمع به حشد هائل من جمهور أهل فلورنسا . وغصت الشبابيك والشرفات والأسقف بالناس . وتسلق الأطفال الأعمدة والتماثيل ليكونوا أقدر على المشاهدة . واقتسم رهبان سام ماركو اللودجا دي لانتزي[٧٢] مع رهبان الفرنتشسكان . ووقف أمامها جنود مسلحون من أنصار ساڤونارولا عددهم حوالي ٣٠٠ رجل . كما وقف بضع مئات من الكومبانياتشي المسلحين ، وعدد من جنود الحكومة على مقربة من القصر القديم ، للمحافظة على الأمن . وأعدت معدات النار من وقود وخلافه .

بدا ساڤونارولا هادئاً شجاعاً أمام الناس ، وإلى جانبه الراهب دومنيكو تبدو عليه علائم البهجة والفرح والحماسة لدخول النار . ولم يظهر فرنتشسكو دي بوليا ولا جوليانو روندينلي ، وظلا محتجبين عن الناس في القصر القديم . وأبدى رهبان الفرنتشسكان في اللودجا دي لانتزي نوعاً من التلكؤ والمماطلة . فقالوا إن الملابس التي يرتديها الراهب دومنيكو قد تكون مانعة للنار . فغير دومنيكو ملابسه . وطلبوا أن يقف إلى جانبهم لا إلى جانب ساڤونارولا ، ففعل . ومضى وقت بلا طائل ، فأرسل ساڤونارولا إلى الحكومة طالباً الإسراع في تنفيذ تجربة النار . ولا يعرف ماذا تبودل بين الطرفين على وجه التحقيق . والثابت أن الوقت مضى بغير نتيجة . وقصد أعداء ساڤونارولا بذلك تأليب جمهور فلورنسا عليه .

وبعد ساعات طويلة فرغ صبر الجمهور . ووجد أعداء ساڤونارولا من الأرابياتي والكومبانياتشي الفرصة سانحة لتوجيه ضربة حاسمة إليه فأحدثوا شغباً مفاجئاً ، وصاح الجمهور ، واضطرب النظام ، وتدافع الناس . وبدا الجو مكهرباً . وأصبح من المنتظر أن يحدث أي شيء في أي لحظة . وحاول بعض أعداء ساڤونارولا أثناء ذلك الاضطراب الهجوم على موضع ساڤونارولا وقتله والتخلص منه نهائياً . وفي الواقع لم يكن أعداؤه يترقبون حدوث معجزة غير قتله في ذلك الوقت . ولكن الجنود الواقفين أمام اللودجا دي لانتزي حالوا دون ذلك . وتدخل جنود الحكومة ، وسرعان ما أعيد النظام . وحدث بعد ذلك مباشرة برق ورعد ومطر . ودهش الجمهور لهذه المفاجأة . ولكن سرعان ما اعتدل الجو . وتطلعت الأعناق مرة أخرى إلى متابعة تجربة النار . وعاد رهبان الفرنتشسكان إلى التلكؤ مرة أخرى ، حتى دخل الليل ، ولم يظهر مطلقاً دي بوليا أو روندينلي . وأخيراً أعلنت السنيوريا أن تجربة النار لا يمكن أن تتم في ذلك الوقت .

أذاعت السنيوريا وأعداء ساڤونارولا من أهل فلورنسا أن الراهب دومنيكو

Twitter: @ketab_n

رفض أن يدخل النار . ولم يكن ذلك صحيحاً . ولم يفرق الجمهور بين الحق والكذب . وصاح الناس ضد ساڤونارولا ، ونجح أعداؤه في تأليب الجمهور عليه . فاندفعوا نحوه بشدة . ولكن احتاط ساڤونارولا ورهبان سان ماركو الجنود من أنصاره المخلصين وجنود الحكومة ، التي اضطرت لمحاولة حمايته حفظاً لسمعتها . أحاط الجند رهبان سان ماركو على شكل هلال وساروا بهم إلى الدير ، وسط صياح الجمهور وشتائمه وسبابه . وحتى أنصار ساڤونارولا أظهروا استياءهم من الموقف ، وقالوا إنه كان يجدر بساڤونارولا أن يدخل النار بنفسه لا أن ينيب عنه غيره . واعتكف ساڤونارولا في صومعته وقد شعر بمرارة عميقة وتولاه حزن لا يوصف .

لم يقف الأمر عند ذلك الحد . فاستمر اتصال أعداء ساڤونارولا وبحثهم في الوسائل التي تتخذ للتخلص منه نهائياً . وفي الوقت نفسه أخذ أنصار ساڤونارولا وحكم الشعب يفكرون في الدفاع عن أنفسهم بقوة السلاح . ولكن البارزين منهم وعلى رأسهم فرنتشسكو فالوري لم يحبذوا تلك الوسيلة . وقال فالوري إنه لا يحسن أن يكونوا هم أول من يريق دماء أهل فلورنسا في حرب داخلية عنيفة . فاستمعوا لرأيه . ولعلهم أدركوا أن زمام الأمر قد أفلت من أيديهم ، وأنه لم تعد لهم القوة الكافية لفرض إرادتهم على فلورنسا .

مرّ صباح يوم ٨إبريل ساكناً . ولكنه كان السكون الذي يسبق العاصفة . وقال ساڤونارولا لرهبان الدير إنه يقدم جسده تضحية لله ، وإنه مستعد لمواجهة الموت لخير رجاله . ولم تمض ساعات حتى بدأت العاصفة تهب . بدأت بحدوث بعض مشاغبات بين أنصار ساڤونارولا وأعدائه انتهت بقتل عدد من أنصاره في الطرق العامة . ووصل بعض أنصاره إلى دير سان ماركو ، واندفع وراءهم أعداء ساڤونارولا . وأخذوا في قذف الدير بالحجارة . فخرج أغلب من فيه من النساء والرجال . وبقي بداخله حوالي ٣٠ من الشجعان الذين صمموا على الدفاع عن الدير .

وكان بعض المخلصين قد احتاطوا للحوادث . وحملوا إلى الدير ، دون علم ساڤونارولا ، مقادير من الأسلحة والدروع والخوذات والبارود . ووزعت الأسلحة على القادرين ، ومن بينهم عدد من رهبان سان ماركو وعلى رأسهم الراهب بندتّو . ولم يوافق ساڤونارولا على قتال رهبانه وقال إنه يجب ألا يلطخوا أيديهم بالدماء . ولكن لم تفلح محاولته لمنعهم عن القتال . فإن الجمهور المتجمع خارج الدير أخذ يواصل قذفه بالحجارة . وعندما رأى ساڤونارولا تحرّج الموقف أعلن لرجاله أنه سيضحي بنفسه لكي يضع حداً لهذا الصراع العقيم . فصاح فيه رجاله ، وسدوا الطريق أمامه . فذهب بجزء كبير منهم إلى كنيسة الدير وقال لهم إن الصلاة هي سلاحهم الوحيد .

Twitter: @ketab_n

قدم رسل السنيوريا إلى دير سان ماركو يحملون الأمر إلى رهبانه بإلقاء السلاح ، وبنفي ساڤوناورولا ، وأمره بمغادرة فلورنسا في مدى ١٢ساعة . ولم تصدر السنيوريا أمراً ولم تبذل مجهوداً لمنع المهاجمين من الاعتداء على دير سان ماركو ورجاله . عندئذ خرج بعض أنصار ساڤوناورولا من الدير ، ومن بينهم فرنتشسكو فالوري ، الذي حاول أن يجمع أنصاره ، لعله يستطيع القيام بقتال أعدائه في شوارع فلورنسا ، ولكن الجمهور كان قد حاصر مسكنه . وجاءه رسول من قبل السنيوريا ، وطلب إليه القدوم إلى القصر القديم . وأذعن فالوري للأمر وظن أنه بنفوذه سيجعل رجال السنيوريا يأسفون على ما فعلوه . وسار في الطريق مع رسول الحكومة رافع الرأس غير عابئ بالأخطار . والتقى في الطريق ببعض أقارب من قتلوا في العام السابق بتهمة الخيانة العظمى . فهاجموه وقتلوه بسيوفهم في الحال . كما قتلوا زوجته وأحد أحفاده واعتدوا على منزله . ولم تتحرك حكومة فلورنسا للاقتصاص من المعتدين .

اقترب الليل والدير لايزال يحاصره أعداؤه . وأشعلوا النار في أبوابه . وتمكن بعض المهاجمين من التسرب إلى الدير . ولم ينجح ساڤوناورولا في منع الشبان من الرهبان عن القتال . فكان الدم يجري حاراً في عروقهم ، كغيرهم من أهل فلورنسا . وأبدى أولئك الرهبان شجاعة فائقة في الدفاع عن معقلهم . فمن ذلك أن الراهب الشاب ماركو جوندي حطم صليباً خشبياً على رؤوس الذين هاجموه وهم يحملون السيوف . وجوفاني ماريا بتروتشي الذي امتاز بجمال الوجه وصلابة الجسم وبالشجاعة ، حطم رماح أعدائه بأصابعه كما يحطم أعواد الكبريت . وهنري الراهب الألماني الشاب الأشقر الشعر ، اندفع وسط المهاجمين وحمل بندقيته وأطلق النار . كما صعد الراهب بندتو فوق الدير وأخذ يقذف المهاجمين بالحجارة . وسقط قتلى وجرحى وتعالت الأصوات وارتفع الضجيج . ودق ناقوس الدير الكبير معلناً الخطر الداهم . وأدهشت المهاجمين شجاعة الرهبان في القتال . فاضطروا إلى الانسحاب فترة وقد اعتقدوا أن الملائكة هبّت للدفاع عن الدير! ثم جاء أمر آخر من السنيوريا يعلن أن من لا يغادر الدير في مدة ساعة يعدّ عاصياً . فخرج بعض من كان فيه من أنصار ساڤوناورولا .

وقف الرهبان هنيهةً عن القتال تناولوا أثناءها قليلاً من التين والنبيذ . ثم استؤنف القتال مع دخول الليل . وتبودل إطلاق النار . وضيق الدخان أنفاس المحاصرين . ولم يفلح ساڤوناورولا برغم محاولاته المتكررة في وقف ذلك الصراع . فخرج مع من تبعه من الرهبان إلى مكتبة الدير . ولمح الراهب بندتو مهروﻻً للقيام بأعمال الدفاع ، فأوقفه وأخذه معه . ثم جاء أمر ثالث من السنيوريا بطلب حضور ساڤوناورولا ودومنيكو وسلفسترو إلى مقر الحكومة مع تأمينهم على حياتهم . فقال

Twitter: @ketab_n

ساڤونارولا لرهبانه : « . . . كل ما قلته جاءني من الله . . . ولم أتوقع أن كل المدينة ستتحول ضدي بهذه السرعة . اجعلوا الإيمان والصلاة والصبر أسلحتكم . إنني أترككم مع الأسى والألم ، لكي أسلم نفسي إلى أعدائي . ولا أعلم هل يقتلونني . وإني واثق أنهم إذا قتلوني فسأساعدكم في السماء بخير مما فعلت في الأرض . . . »

واستعد ساڤونارولا للرحيل . والتف حوله الرهبان . وأجاب بكلمات رقيقة على محاولتهم منعه من مغادرة الدير ، ورغبتهم في الذهاب معه حيث يكون . وضمهم إلى صدره واحداً واحداً وهم يبكون . وحبس دمعه وكتم أنفاسه ، لكي يحملهم على الصبر و التجلد . بكت عيناه بغير دموع . وليس أقسى على الإنسان من حبس دموع نفس تجيش بالألم المرير توشك أن تنسكب . وغادر ساڤونارولا ودومنيكو الدير ، وتركا وراءهما الأسى والدموع ، دموع الفراق الذي لا يُعرف أبعده لقاء أم موت!

حملهما الجمهور خارج ميدان سان ماركو ، وقابلهما بالسباب والاعتداء . وبذل الجند مجهوداً شاقاً في حمايتهما ، ورفعوا سيوفهم فوق رأسيهما ليمنعوا وصول أيدي الجمهور إليهما . وفي القصر القديم سألهما رئيس الدولة ألا يزالان يصران على اعتبار كلامهما من عند الله . فأجابا بالإيجاب . فأمر بوضعهما في غرفتين منفصلتين . ووضع ساڤونارولا في غرفة صغيرة في برج ناقوس القصر . وفي اليوم التالي عثروا على الراهب سلفسترو ماروفي الذي كان مختبئاً ، وأخذوه أيضاً إلى القصر القديم . وبذلك سقط الرجل الذي كان له في فلورنسا سلطان أعلى من سلطان الملوك منذ عهد قريب .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر
نهاية ساڤونارولا

مراسلات بين البابا وفلورنسا -إجراءات السنيوريا - التحقيق والمحاكمة الأولى -تعذيب ساڤونارولا -التهم الموجهة إليه -تساهله في مسألة التنبؤ والنبوة -رسالته الدينية وأعماله السياسية -المحاكمة الثانية -عدم ثبوت التهم عليه -التحقيق مع دومنيكو وسلفسترو -كتابات ساڤونارولا الأخيرة -رسل البابا يحضرون المحاكمة الثالثة -قرار إعدام الرهبان الثلاثة -اجتماعهم الأخير -تنفيذ الحكم .

كتبت السنيوريا إلى حكومات إيطاليا وأوربا بأخبار الحوادث الأخيرة . وطلبت فلورنسا من البابا أن تتولى محاكمة ساڤونارولا ومن معه ، وأن تفرض الضرائب على أملاك الكنيسة ، وأملت حكومة فلورنسا أن يجيب البابا طلبها الأخير ، لمسلكها نحو ساڤونارولا . ووصل رد البابا الذي امتدح مسلك حكومة فلورنسا وطلب إرسال الرهبان الثلاثة إلى روما ، ولم يعط كلمة واضحة بشأن الضرائب على أملاك الكنيسة . كما وصلت أنباء من فرنسا تفيد موت شارل الثامن . ففقد ساڤونارولا بذلك الصديق الذي كان يأمل النجاة على يديه ، في اللحظة التي أخذ شارل يفكر فيها من جديد في أحوال إيطاليا وإصلاح الكنيسة . وضاعت بذلك فرصة كان من المحتمل أن تغير مجرى الحوادث .

لم توافق حكومة فلورنسا على طلب البابا إرسال الرهبان الثلاثة إلى روما ،

Twitter: @ketab_n

وقررت إجراء محاكمتهم وإرسال النتيجة إلى البابا . وبحثت الحكومة في اتخاذ أنجع الوسائل لإثبات إدانتهم . وخالفت في ذلك روح القانون ومبادئ العدل . فقررت السنيوريا حل لجنة العشرة ولجنة الثمانية ، قبل حلول الوقت القانوني ، لأن أعضاءهما كانوا موالين لساڤونارولا . وتدخلت في تكوين لجنتين جديدتين من أعدائه . كما عينت لجنة من ٧١عضواً ، من أعداء ساڤونارولا ، للتحقيق مع الرهبان الثلاثة ، ومحاكمتهم . وكان من بين أعضاء هذه اللجنة دوفو سبيني زعيم الكومبانياتشي ومن أعداء ساڤونارولا الألداء[٧٤] .

وبدئ فعلاً باستجواب ساڤونارولا وتعذيبه عقب القبض عليه مباشرة . عذبوه بالحبل والبكرة مرات عديدة[٧٥] . وكان ساڤونارولا يمتاز منذ حداثته بجسم رقيق . وسنوات الكفاح التي قضاها أخيراً ومرض أمعائه جعلته في حالة عصبية ، فبدا أنه يعيش بقوة إرادته . ولم يتحمل جسد ساڤونارولا آلام التعذيب ، ففقد وعيه وأخذ يهذي ، وصاح بصوت يفتت الصخر الأصم . وكرروا تعذيبه فأجاب أعداءه بأن تعاليمه صحيحة . طلبوا إليه أن يقول العكس فرفض . وأعطوه ورقاً ليدوّن اعترافاته . فمزقوا ما كتبه لأنه لم يوافق قصدهم . فخلوا وثاقه وأرسلوه إلى سجنه[٧٦] . وأخذت حكومة فلورنسا تتصيد الوسائل التي تثبت بها إدانته . فاقترح تشكّوني مسجل أقواله في أثناء التحقيق والمحاكمة ، تلفيق الأدلة إذا لم يوجد ما يكفي لثبوت إدانته .

وعندما تركوا ساڤونارولا وحيداً في سجنه ، أخذ يفكر في الموقف العصيب . ووجد أنه لا يستطيع أن يقاوم التعذيب الذي سيلاقيه . وبحث في النقطة التي يمكنه أن يسلم فيها . عرف أن التهم الموجهة إليه ثلاث : مسألة دعوته الدينية ومسألة تدخله في السياسة ومسألة التنبؤ والنبوة . التسليم في دعوته الدينية أمر لا يمكن أن يخطر له على بال ، والموت عنده خير منه ألف مرة . والتسليم في آرائه السياسية يعرض حرية فلورنسا للخطر . ولم تبق إلا مسألة التنبؤ والنبوة . وكان يعلم في هذه الناحية أن رجال المسيحية الأوائل أنكروا أحياناً أنهم أنبياء وأن نبوءاتهم جاءتهم عن طريق الملائكة . وهو نفسه كان يقول أحياناً إنه ليس نبي ولا ابن نبي .

وعندما سألوه عن صحة تنبؤاته ونبوته قال لسائليه إن تعاليمه جاءت إليه من الله . وقال لهم اتركوا هذه المسألة لأنه لا يهم الدولة في شيء كوني من الأنبياء أو العكس . ولما عادوا إلى تعذيبه نفى عن نفسه صفة النبوة . ثم لما استمروا في تعذيبه بعد ذلك ، عاد فأكد في نفسه صفة النبوة . وأجاب بإجابات رمزية غير محدودة . وعلى كل حال لم تصلنا في هذه المسألة خاصة أقوال ساڤونارولا الصحيحة . لأن المحققين اعتقدوا أن ناحية التنبؤ والنبوة هي أسهل طريق لمهاجمته .

Twitter: @ketab_n

فحرّفوا أقواله ، وأحياناً قلبوا كلمة نعم بكلمة لا أو العكس . وحذفوا أحياناً أخرى أجزاء كبيرة من كلامه ، وأضافوا طوراً كلمات لم ينطق بها على الإطلاق . كما يُلاحظ أحياناً تعارض في الأقوال ، وجمل لا معنى لها واختلاف في الأساليب وفي الأخطاء اللغوية ، التي دونت بها محاضر المحاكمة .

وعندما سألوه عن رسالته الدينية ، ظل ثابتاً لا يتزعزع ، ولم ينكر مرة واحدة ، بالرغم من التعذيب المستمر الذي لقيه ، إيمانه بالدعوة إلى تطهير الكنيسة ، والدعوة إلى ضرورة عقد مجمع ديني عام لإصلاحها ، وقال إنه لو تم ذلك لكان من المحتمل عزل البابا الذي خالف تعاليم الدين . وكذلك أبدى ساڤونارولا الثبات نفسه والشجاعة عندما استجوبوه في الناحية السياسية . فقال إنه لم يتدخل في أعمال الحكومة ولم يتحيز لأحد ، وإنه لم يتكلم إلا في مسائل الدولة من وجهة عامة ، وترك تفصيلات الأمور لرجال الحكومة من أمثال فالوري وسوديرينيي ، وإنه حارب الطغيان السياسي ودافع عن حرية الشعب . وبالرغم من تغيير أقواله في هاتين الناحيتين لم يصل المحققون إلى أدلة كافية لإدانته . ولكن على الرغم من ذلك كسبت حكومة فلورنسا شيئاً مهماً ؛ إذ استطاعت أثناء الحوادث الأخيرة ، بالاشتراك مع أعدائه من أهل فلورنسا ، أن تسقط ساڤونارولا من أعين الشعب . وأصبحت في هذه الحالة تستطيع أن تتصرف معه على النحو الذي يلائمها ، دون مراعاة لأيّ عدالة أو قانون ، ودون أن تخشى غضب جمهور أهل فلورنسا .

ثم عقدت محاكمة ثانية ، وعُذب ساڤونارولا واستجوب بضعة أيام أخرى ، ولكن لم تجد تغييرات تشكّوني وتلفيقاته . فرأت الحكومة الاعتماد على نتيجة التحقيق والمحاكمة الأولى دون الثانية . وكان المفروض أن تعلن نتيجة التحقيق والمحاكمة ، وتقرأ كل تفصيلاتها بحضور المتهم أمام المجلس الكبير . ولكن السنيوريا خالفت التقاليد في هذه الناحية . واكتفت بقراءة مقتطفات من أوراق التحقيق بغير حضور ساڤونارولا . وقالت إنها تخشى أن يقذفه أعضاء المجلس الكبير بالحجارة . ولعلها كانت تخشى تأثير ساڤونارولا في الحضور ، واحتمال تغيّر الموقف لمصلحته .

أخذوا بعد ذلك الراهب دومنيكو . وعذبوه واستجوبوه . ولكنه أبدى ثباتاً وشجاعة تشبه ما أبداه شهداء المسيحية الأوائل . وجعلوه يدون أقواله . وحاولوا نشرها مع تعديل قليل ، لكي يكسبوا ثقة الناس ، وينفوا عن أنفسهم التحريف والتزوير في أقوال ساڤونارولا . ومما كتبه دومنيكو أنه يؤمن دون أدنى شك بتنبؤات ساڤونارولا ، وأنه يستمد الوحي من الله ، وأن هذا الإيمان لا يضر أحداً على الإطلاق . ولم يصدق كلامهم ويغير رأيه عندما أخبروه وحاولوا إقناعه بأن ساڤونارولا قد عدل عن كل آرائه . وقال دومنيكو أيضاً إنه لا يستطيع قول مالا

Twitter: @ketab_n

يعتقد في صحته ، ولا أن يخفي الحق ، لأن ذلك يعدّ خطيئة ، وإنهم يمكنهم قتله كما يشاؤون ، ولكن لا يمكن أن يحمله أحد على تغيير اعتقاده ، وليس عنده غير ذلك . فاستمروا في تعذيبه ، وتركوه يكتب أقواله مرة أخرى . فقال إن أرادة الله ستنفذ . وإنه لم يشك لحظة واحدة في أن ساڤونارولا كان رجلاً صادقاً وإنه أطاعه بكل حماسة وإخلاص .

ثم جاء دور الرهب سلفسترو . وكان مسلكه مخالفاً ؛ إذ كان يتميز بضعف الشخصية وباضطراب أعصابه . وعندما أخذوا في استجوابه حرص على إنقاذ نفسه ، ولو ضحى بساڤونارولا في ذلك السبيل . فأعطى قوائم طويلة بأسماء المترددين على دير سان ماركو . وأنكر صحة تعاليم ساڤونارولا . ولكنه قال كلاماً في مصلحته . قال إن ساڤونارولا لم يتأثر مطلقاً بالدسائس الحزبية ، ولم يعمل على التدخل في شؤون الدولة .

وكذلك استجوب المحققون عدداً كبيراً من أنصار ساڤونارولا المدنيين ومن رهبان سان ماركو . ولم يكن موقف رهبان سان ماركو مشرفاً تماماً . فهم اعترفوا جميعاً بأن ساڤونارولا لم يفكر بتاتاً في القيام بمؤامرات سياسية ، وأنه رجل مخلص لدينه . ولكنهم عندما اطلعوا على اعترافات ساڤونارولا المزيفة ، تردد الكثير منهم ، وصدقوا تلك المفتريات . وتأثروا في ذلك بالضغط الموجه نحوهم . وحتى الراهب بندتو خامره الشك في ساڤونارولا فترة من الزمن ، هرب في أثنائها إلى فيتربو . ولكنه عاد إلى رشده ورجع إلى فلورنسا مؤمناً بإخلاص ساڤونارولا من جديد . وكتب رهبان سان ماركو إلى البابا ، ووضعوا أنفسهم عند قدميه ، وقالوا إن ساڤونارولا بالرغم من استقامته وتدينه وإصلاحاته في فلورنسا ، فإنه قد خدعهم بتنبؤاته . وطلبوا إلى البابا إلغاء قرار الحرمان الصادر ضدهم باعتبارهم أتباع ساڤونارولا . ومن الغريب أنهم طلبوا أيضاً إبقاء استقلال المجمع التسكاني . وكان ذلك من الأسباب السياسية التي أدت إلى صدور قرار الحرمان ضد ساڤونارولا ورهبان سان ماركو . وعفا عنهم البابا ووعدهم خيراً في مسألة استقلالهم .

وجرت مراسلات مستمرة بين روما وفلورنسا . وطلب البابا تسليم ساڤونارولا بعد محاكمته . ولكن حكومة فلورنسا وجدت أن ذلك العمل يؤذي هيبة فلورنسا . وفي الوقت نفسه طلبوا إلى البابا أن يوافق على فرض ضريبة العشر على أملاك الكنيسة . وكان ذلك الطلب أيضاً من العوامل الأساسية التي أغضبت البابا على ساڤونارولا . وقالت السنيوريا للبابا -بشأن تسليم ساڤونارولا- إنها تفضل أن ينفذ الحكم في مكان صدوره لكي يكون في ذلك عبرة لمن يعتبر . ولما استوثق البابا من أن نية حكومة فلورنسا إعدامه ، وافق على رأيها لأنه أراد بالحصول على شخصه أن يستوثق من إعدامه . وقال البابا بشأن ضريبة العشر على أملاك الكنيسة إنه

Twitter: @ketab_n

يبيح ذلك الحق لحكومة فلورنسا لمدة ثلاث سنوات . وكتبت حكومة فلورنسا إلى ممثليها وسفرائها في إيطاليا وفي فرنسا بصفة خاصة لكي يمهدوا لما سيحل بساڤونارولا عما قريب . وكانت فلورنسا تخشى أن يتدخل ملك فرنسا لويس الثاني عشر لمصلحة ساڤونارولا في آخر لحظة .

اعتزل ساڤونارولا في سجنه ، وقد مرت بمخيلته حوادث حياته الصاخبة العنيفة . واستعرض ما ناله من سوء في الزمن الأخير . فتولاه شعور اليأس من نفسه ومن الناس ومن الدنيا . ولكنه لم يفقد ثقته بالله . وعكف على الكتابة يدون خواطر نفسه في أيامه الأخيرة . ولم يتناول من تولوا تعذيبه ومحاكمته ، ولم يحاول الدفاع عن نفسه لأنه لم يكن له أي أمل في الدنيا . وركز كتابته في الله وفي تمجيد الله الذي تسع رحمته كل شيء . وتضرع إليه أن يصلح الكنيسة . وكتب بحماسة وحرارة كأنه يلقي إحدى عظاته الحماسية على الناس ، ونسي أنه بين جدران السجن ، ينتظره العذاب والموت . ولم تغير الأحداث التي مرت به إحساسه وخلقه . ثم استطرد لمقاومة اليأس الذي أخذه من كل ناحية فقال : « . . . أحاط بي اليأس من كل جانب . . . وملأ قلبي ، وهو يعمل على محاربتي بلا انقطاع . . . وانطوى أعواني تحت لوائه وأصبحوا أعداء لي . وكل ما أراه وأسمعه يحمل طابع اليأس . ولكنني سأتجه إلى السماء . وعندئذ سيساعدني الأمل . انظروا! ها هو اليأس يذهب أمام أشعة الأمل . وليلق العالم بثقله علي كما يشاء ولينهض أعدائي ضدي . فإن الخوف قد فارقني ، لأنني وضعت كل أملي في الله . . . يا فارس المسيح! ماذا يدور في ذهنك في هذه المعركة ؟ هل عندك إيمان في الله ؟ نعم . عندي الإيمان . إذاً فاعلم أن هذه رحمة كبيرة من الله ، لأن الإيمان هبته . . . »

ثم يعاوده شعور اليأس ، ولكنه يكافحه بعزم وتصميم ، ويكتب : « . . . من ذا الذي يضع حداً لرحمة الله ، ويظن أنه يحمل مياه المحيط في يديه ؟ ألم تسمع الرب يقول : إذا أبدى المخطئ الندم وابتعد عن خطاياه ، فإنني لن أذكرها . إن رحمة الله لا حد لها . هل سقطت ؟ انهض ، وستتلقاك الرحمة . هل انهار كيانك ؟ اصرخ ، وستأتيك رحمة الله . . . إنني لن أضع ثقتي في أي إنسان ، ولكن في الله وحده . وسأشكره أمام الناس جميعاً ، لأن موت القديسين ثمين في نظره . وإذا اجتمع ضدي كل جيوش الأرض فلن يعرف قلبي الخوف . لأنك أنت ملاذي يا رب ، وستقودني إلى نهايتي » .

وصل رسل البابا إلى فلورنسا ، وحضروا محاكمة ساڤونارولا لثالث مرة ، مع ممثلي حكومة فلورنسا . عذبوه وسألوه عن المجمع الديني العام الذي دعا إلى عقده ، وعن شركائه في الفكرة . قال إنه لم يتحدث إلى أحد في شأنه سوى اثنين من رهبان سان ماركو ، ولم يتصل بأمراء إيطاليا ، لأنهم من أعدائه ، وإنه كان يأمل

Twitter: @ketab_n

في نهوض ملوك أوربا بهذا المشروع . واستمروا في تعذيبه . فصاح فيهم قائلاً : «أيا حكومة فلورنسا! إنني قد أنكرت النور الإلهي الذي فاض عليّ خشية ما ألاقيه من التعذيب . أما إذا كان لابد لي من أن أعذّب . فليكن تعذيبي من أجل الحقيقة . إن كل ما أعلنته للناس قد جاءني من الله!» ثم تابعوا تعذيبه فترة أخرى بدون طائل . فأرسلوه إلى سجنه . ودخلوا عليه ليلاً ليفاجئوه في وحدته . وسألوه في المسائل السياسية فلم يفوزوا منه بجديد . ولم تثبت عليه تهمة التآمر على الدولة . وأصبح التأخير أكثر من ذلك في إصدار الحكم عليه أمراً مضراً . لأنه قد تقع حوادث تقلب الأمور رأساً على عقب . وعقدت لجنة خاصة لإصدار الحكم . ودافع عضو واحد عن ساڤونارولا . قال لا تقتلوه واحتفظوا به واسجنوه لكي نستفيد من تعاليمه الصالحة . ولم يلق ذلك الرأي قبولاً لأنه يعرضهم جميعاً للخطر . وصدر الحكم بإعدام الرهبان الثلاثة .

قرئ القرار عليهم في مساء ٢٢مايو ، واستولى على سلفسترو الاضطراب . ولكن دومنيكو قابل حكم الموت بحماسة وشجاعة ، وطلب أن يحرق جسده حياً . وقابل ساڤونارولا الحكم بهدوء . ودخل عليه نيكّوليني لكي يلازمه في ساعاته الأخيرة ، وسأله عن أيّ رغبة ، فطلب أن يسمح له بالاجتماع بزميليه قبل الموت . وأقنع نيكّوليني السنيوريا بإجابة طلبه الأخير .

وافقت السنيوريا على اجتماع الرهبان الثلاثة . ومن عجائب القدر أن يتم ذلك الاجتماع في قاعة المجلس الكبير الذي اقترح انشاءه ساڤونارولا . اجتمع الثلاثة ليلاً . وظهور ساڤونارولا بوجهه الصارم أمام سلفسترو ودومنيكو قوّى من عزمهما ، وأعاد الثقة إلى قلب سلفسترو ، وأضاء أمامهما ظلام الليل ، وأحسا بالاطمئنان إلى جانب ذلك الأب العطوف الرحيم . لم يتكلم واحد منهم عما سمعه عن الآخرين من تنازل عن الرأي أو تغيير في العقيدة . لم يتسع الوقت للمناقشة . وكان ذلك لقاء الوداع ، قبل الموت . قال ساڤونارولا لدومنيكو إنه لا يجوز للمؤمن أن يختار طريقة موته ، بل عليه أن يتحمل الموت على أي نحو يأتي . وركع الراهبان أمام ساڤونارولا فباركهما . وتماسك ساڤونارولا وتجلد ، ولم يظهر عواطفه لكي يجعلهما أقوى على الصبر والاحتمال ، وافترق الثلاثة كل إلى سجنه . وفي غرفة السجن توسّد ساڤونارولا الأرض ووضع رأسه على فخذ نيكّوليني ، وراح في سبات عميق . وابتسم وتكلم في نومه ، كأنه يحادث الملائكة .

أقيمت معدات الشنق والإحراق في ميدان السنيوريا ، واقتيد الرهبان الثلاثة إلى ساحة الإعدام في صباح اليوم التالي . ووقف الثلاثة على عتبة القصر القديم ، وخلعت أرديتهم الكنيسة ونعالهم ، وربطت أيديهم ، وأعلن فصلهم عن الكنيسة بحضور رسل البابا وممثلي حكومة فلورنسا . وقرؤوا عليهم علناً حكم الإعدام شنقاً

Twitter: @ketab_n

مع إحراق جثثهم حتى تتحقق مفارقة أرواحهم لأجسامهم . وأبدى الرهبان الثلاثة شجاعة وجلداً ، وحتى سلفسترو لم يبد عليه أثر للجزع . وصعد سلفسترو أولاً على سلم المشنقة وقال : « إنني أضع روحي في يدك يا رب! » وفاضت روحه . وصعد دومينكو وهو يغني نشيداً دينياً ، وبدت عليه علائم الانشراح كأن أبواب السماء قد فتحت له . وانتهى في لحظات . وجاء دور ساڤونارولا ، الذي بدا هادئاً مطمئناً . وصعد سلم المشنقة وهو يفكر في ملاقاة ربه ، ولم يعبأ بوجوه الناس المتغيّرة أسفله . وفاضت روحه في الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٢٣ مايو سنة ١٤٩٨ .

أشعلت النار في أسفل الجثث ، وأخذت تحترق . وتفاوتت مشاعر الجمهور المحتشد أمام ذلك المشهد ، وسرى بين الناس شعور بالخوف والرهبة . وما أن أخذت الجثث تلتهمها النيران حتى دفع الأرّابياتي بعض الأولاد إلى قذفها بالحجارة ، فاندفع أنصاره لالتقاط ما يصل إلى أيديهم من تلك البقايا المقدسة . وألقيت بقايا الجثث من أعلى الجسر القديم[٧٧] في مياه الأرنو .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

خاتمة

كسب أعداء ساڤونارولا الموقف مؤقتاً ، وأخذوا يتعقبون أنصاره هنا وهناك . وظنوا أن الأمور ستسير كما يبتغون . ولكن سرعان ما تبددت أوهامهم . هل اطمأن أهل فلورنسا حقيقة إلى مقتل ساڤونارولا ؟ ألم يعد الكومبانياتشي إلى حياة الإباحية والفسوق ، بدرجة مبالغ فيها كردّ فعل على حركة ساڤونارولا ، مما جعل المعتدلين من أهل فلورنسا يشعرون بالأسف ؟ ألم يضعف سلطان القانون ، ويضطرب الأمن ؟ ألم تحاول كل حكومة جديدة أن تدخل تغييرات على نظام الحكم ؟ في الواقع إن الكثيرين من أهل فلورنسا فهموا أنهم تسرعوا ، وأنهم ارتكبوا ما لا يمكن التعويض عنه .

ووجد أعداؤه أنفسهم مضطرين إلى اتباع السياسة التي حاربوها ، والتي كانت من العوامل التي أدت إلى مقتل ساڤونارولا . فإن بييرو دي مديتشي سرعان ما أخذ يزحف صوب الأراضي التسكانية ، تعاضده قوات كبيرة من البندقية . وأوشكوا أن يحرزوا النصر . لولا أن وقف حائلاً إزاءهم دوق ميلانو ، الذي خشي استفحال نفوذ البندقية ، إذا ما تركها تعمل على تنفيذ خططها . ومع ذلك لم تكن فلورنسا تستطيع أن تثق بنيات لودوفيكو . وأدرك ذلك حتى الأرابياتي الذين حاولوا أن ينالوا منه المعاضدة والمعاونة من قبل .

Twitter: @ketab_n

كذلك وجد البابا الفرصة سانحة لكي يبسط سلطانه على فلورنسا . وشجع ابنه قيصر بورجيا على مهاجمة الأراضي التسكانية ، وحاول إرجاع بييرو دي مديتشي إلى فلورنسا . وأخذ قيصر يحرض المدن التسكانية على الثورة على فلورنسا . وكان ذلك هو الجزاء الذي تلقته فلورنسا من البابا ، بعد أن تخلصت من ساڤونارولا ابتغاء رضائه .

وبذلك وجد الأرَابياتي أنفسهم مضطرين إلى اتباع سياسة ساڤونارولا . فعقدوا محالفة مع فرنسا ، كما هادنوا البيانيوني وكفّوا عن تعقبهم وإيذائهم . وكانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لحماية فلورنسا من الأخطار التي تهددها . ثم تجددت المطامع الفرنسية في إيطاليا . وغزا لويس الثاني عشر الأرض الإيطالية بعد حوالي العام من مأساة ساڤونارولا . ولما كان الفرنسيون ظافرين في إيطاليا ، استطاعت فلورنسا في ظل الصداقة الفرنسية ، أن تحتفظ بكيانها ضد أطماع البابوية . ولكن لما انتصر الأسبان أرجعوا آل مديتشي إلى فلورنسا في أوائل القرن السادس عشر .

وعندما ارتفع صوت مارتن لوثر عالياً في أوربا ، وازداد تعرّض إيطاليا للأخطار الخارجية ، وعندما هجم جنود شارل الخامس على روما وأعملوا فيها السلب والنهب ، تنبه أهل فلورنسا إلى تنبؤات ساڤونارولا والويلات التي هدد بها إيطاليا . فقوي مركز أنصاره وعادوا إلى السيطرة على فلورنسا من جديد ، وطردوا آل مديتشي وأعلنوا المسيح ملكاً على فلورنسا . ولما عاد آل مديتشي إلى مهاجمة فلورنسا مرة أخرى ، أصبح دير سان ماركو معقل الوطنية والحرية . وعندما انتصر آل مديتشي هبط نفوذ البيانيوني ، كما ضاعت الحرية السياسية في فلورنسا .

لم يخرج ساڤونارولا على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية . وقام يحمل على البابا ورجال الدين ، ودعا إلى إصلاح الكنيسة ولكن في نطاق التعاليم الكاثوليكية . ومنع البابا اسكندر تداول كتاباته بعد مقتله ، ولكنه تساهل بعد فترة من الزمن وأباح تداولها . وفي عهد باولو الرابع فحصت كتابات ساڤونارولا ، وحذف القليل منها وأبيح تداول معظمها .وأعلن بندتو الرابع أن ساڤونارولا يستحق أن يرتفع إلى مرتبة القديسين . واستعملت بعض كتاباته في المدارس الكاثوليكية .

وبالرغم من أن ساڤونارولا يمثل التعاليم الكاثوليكية ، وبالرغم من ثورته على أخلاق العصر ، يعدّ من الرجال المجددين المبتدعين ، . فقد خامرته فكرة الإيمان التي ستصبح أساس المذهب البروتستانتي . ولكنه لم يستطع أن يعبّر عنها كما فعل مارتن لوثر فيما بعد . وقد تنبه مارتن لوثر إلى ما خالج نفس ساڤونارولا وعدّه من الشهداء في سبيل إصلاح الكنيسة . كما يعدّ ساڤونارولا من أوائل من دعوا إلى الفكر الأصيل ، وأدرك أن الجنس البشري يوشك أن يدخل في عصر جديد .

Twitter: @ketab_n

ولا يجوز لنا أن نخلط بين عصر النهضة ، عصر الثورة والانقلاب ، وبين الحضارة الحديثة التي ظهرت بعد أن هدأ المرجل واستقامت الأمور . ومن هنا يمكن أن يسمى ساڤونارولا نبي عصر النهضة .

كان ساڤونارولا إذاً من رجال عصر النهضة الذي تنبؤوا بتقدم الحضارة . وكان من أولئك الرجال الذين تغلي الدماء في عروقهم وتسيطر عليهم قوى عالية تدفعهم نحو كشف عوالم جديدة ؛ وكان لهم وحي لا ينضب ، لأنه ينبع من القلب ، ويمدهم بحياة لا تنتهي ، تعيش على نفسها ، وتستمد النشاط والحيوية من الأخطار والمصاعب . وليس من الضروري أن يعرف هذا النوع من الرجال الطريق الذي يسلكونه ، والنهاية التي يصلون إليها . هم جذبوا الناس وراءهم في حياتهم ومماتهم . ومزقوا أستار الظلام ، وشقوا طريقهم المجهول وسط الصخور الوعرة ، وجدَّدوا الإنسانية بدمهم المراق . كيف كان يظهر جاليليو وباكون وديكارت دون ظهور فيتشينو وساڤونارولا وكامبانيلا ؟ كيف كان يجنى الثمر دون وضع البذور ؟ كيف كان يصبح الطريق ممهداً أمام مارتن لوثر بغير استشهاد ساڤونارولا ، الذي أثبت أن إحياء الإيمان وإصلاح الكنيسة لا يمكن أن يتم ، بغير حدوث انشقاق ديني وبغير إراقة الدماء!

هناك أوجه شبه بين مأساة ساڤونارولا ومأساة دانتي . فإن فلورنسا قتلت الراهب الأجنبي الذي عاش فيها وحاول أن يبذل من أجلها ، على طريقته ، ما لم يفعله أحد من قبل . وتلقى نكران الجميل بكلمة واحدة عندما قال إنه لم يكن يتوقع أن تتغير قلوب أهل فلورنسا بمثل تلك السرعة . وكان من أهم العوامل التي أدت إلى قتله عدم طاعته للبابا وكراهة البابا إياه . ذلك البابا الذي كان يكرهه نصف أهل فلورنسا . وكذلك نفت فلورنسا دانتي من قبل وأهدرت دمه ، لكراهيته للبابا وجرأته على الوقوف في وجه مطامعه السياسية . ولكن خطيئة فلورنسا في حق ساڤونارولا أعظم من خطيئتها في حق دانتي ، لأنها لم تكن قد عرفت بعد عبقرية الأخير . في حين أن ساڤونارولا كان قد أدى خدمات واضحة لفلورنسا . صحيح أنه خالف الاتجاه العام من ناحية أخلاق العصر وبعث التراث القديم وتحرير الفن من قيود العصور الوسطى . . . وصحيح أنه أصبح في آخر الأمر سبباً للخلاف الداخلي ولإحداق الخطر الخارجي بفلورنسا . ولكنه إلى جانب ذلك أدى خدمات جليلة . فإنه حقق الحكم الشعبي وحكم أكبر عدد ممكن من الناس بالقدر الذي فهمه أهل العصر . ومع أن ماكيافلي لم يكن من المتحمسين لحركة ساڤونارولا ولم ترضه أساليبه لإصلاح أهل فلورنسا ، فإنه أبدى إعجابه وتقديره للمجلس الكبير الذي دعا ساڤونارولا إلى إنشائه . وكذلك أثنى جويتشارديني على إصلاحاته الدستورية واتجاهه الديموقراطي . إذا كانت فلورنسا لم تدرك خدمات ساڤونارولا من هذه

Twitter: @ketab_n

الناحية ، ورأت أن من مصلحتها في وقت ما التخلص منه ،فكان من المستطاع أن تنفيه دون أن تقتله . ولكن فلورنسا أبت إلا أن تقضي على رمز الحرية ومعلم الأجيال التالية . وهكذا حطمت أحد مشيدي صرح الحرية فيها . وكما أنه لم يكد ينهض صوت للدفاع عن قضية دانتي عند نفيه وإهدار دمه ، فإنه لم يكد يرتفع صوت للدفاع عن ساڤونارولا عند تعذيبه وقتله وإلقاء بقاياه في نهر الأرنو . ولو عاش بضعة شهور أخرى في فلورنسا لكان من المحتمل جداً أن يصبح معبود الجمهور مرة أخرى .

وهكذا نجد أن الشعب الذي دافع دانتي عن حريته هو الذي نفاه وشرده . والطغاة الذين حاربهم هم الذين أحسنوا استقباله في حياة المنفى . وكذلك كانت جمهورية فلورنسا التي أنشأها ساڤونارولا هي التي قتلته . ولم يلق ساڤونارولا من طغاة آل مديتشي إلا الرعاية ورحابة الصدر . قال دانتي إن مثل هذه الحوادث تقع لأن شعب فلورنسا يجري على شفاهه دائماً كلمة الحق ، ولأن الذين يحسنون الكلام عن الحرية ، هم في أحوال كثيرة أقل الناس قدرة على تطبيق الحرية والانتفاع بها .

إن حيوية عصر النهضة هي التي أوجدت آثاره المختلفة بالرغم مما يبدو فيها من التناقض . ولم تكن تلك الثورة الإنسانية الهائلة لتتم وتنتهي دون ظهور تلك الآثار المتنوعة ، المتناقضة والمؤتلفة ، ودون تأثر بعضها ببعض . ويتركز في رجال عصر النهضة جميعاً تيارات العصر المتنوعة .

وتلك الحياة الغامضة المضطربة ، المشتعلة بالنيران ؛ وتلك الدماء الحارة الجارية ، وذلك المصير المجهول الذي كان يترقبه الإنسان ؛ وتلك النفوس الحائرة القلقة ، كان يلزمها الإيمان لتهدأ وتستقر وتتعزى . فأوجدت الحاجة إلى الإيمان أولئك الرجال المتحمسين وعلى رأسهم ساڤونارولا ، الذين أرضوا ناحية طبيعية راسخة في أعماق النفوس .

أدى كل من رجال العصر رسالته ، وكان كل منهم يكمل الآخر ويؤدي واجبه . فالمفكر في الفلسفة ، والباحث في العلم ، والفيلسوف السياسي ، والطاغية المستبد ، والثائر للحرية ، والإباحي المتمتع بالملذات ، والفنان والأديب ، ورجل الدين المتصوف ، كل هؤلاء جميعاً يمثلون الحياة . والحياة لا تقوم على كتفي واحد منهم بل على أكتافهم جميعاً . هذه هي عناصر الحياة التي تفترق وتلتقي ، وتتشابك وتتعارض وتصطرع ، وتتفاعل وتنسجم وتتصافى . وهذا هو سيرُ الزمان .

Twitter: @ketab_n

حواشي الكتاب

مقدمة

١- ظهرت حكومات الكومونات (أو حكومة المدن) على مسرح السياسة الإيطالية في حوالي القرن الثاني عشر الميلادي للدفاع عن المصالح التجارية والوطنية للمدن الإيطالية ولتحقيق نوع من الاستقلال الذاتي لها . وقد ارتبط بنمو الكومونات النزاع بين الأحزاب السياسية المتنافسة ، وبين النبلاء بعضهم وبعض ، والثورة على سلطان رجال الدين ، وضد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وكذلك الصراع العنيف بين المدن الإيطالية . وكانت لتلك الحكومات مجالس تمثل نقابات الحرب والمهن وأصحاب النفوذ فيها .

الفصل الأول

١- إتزيلينيو Ezzelino (١١٩٤ -١٢٩٥) حاول أن يبسط حكم الطغيان في شمالي إيطاليا وأخضع عدة مدن في مناطق لمبارديا وإيميليا والفنتو . وساعده في مشروعاته الامبراطور فردريك الثاني . امتاز بشجاعته ومقدرته السياسية . عارض الكنيسة لأسباب سياسية . وبالرغم من سطوته فإن المدن التي وقعت تحت حكمه ناضلته وثارت عليه . ومات في السجن .

٣- اشتهر الدوق نيقولا الثالث بحبه للآداب والفنون وعمل على اجتذاب كثير من مشاهير رجال العصر إلى بلاطه .

٤- اتفق أغلب الكتاب على ترتيب أفراد أسرة سالفونارولا على النحو التالي : أونيبيني الذي أصبح جندياً ، وبارتولوميو لا تعرف له مهنة ، ثم جيرولامو بطلنا ، ومارکو الذي دخل دير سان مارکو في فلورنسا وأصبح الراهب ماوريليو ، وألبرتو الذي أصبح طبيباً ممتازاً ، وبياتريتشي التي عاشت في منزل الأسرة ولم تتزوج . وكيارا التي رجعت إلى منزل الأسرة بعد وفاة زوجها .

٥- البابا بيو الثاني (١٤٨٥ -١٤٦٤) هو إنيا سيلفيو بيكولوميني . كان شغوفاً بالتراث القديم ودرس بعناية آثار روما حتى أصبح من خيرة العارفين بها . وكان رجلاً متعدد النواحي .

٦- دير سان مارکو هو دير الرهبان الدومنيكان في فلورنسا . أنشئ في النصف الأول من القرن ١٥بتشجيع كوزيمو دي مديتشي . وعهد إلى فرا أنجلكو بتزيين جدرانه بالصور الفنية . وهو الآن متحف يحتوي على آثار ساڤونارولا .

٧- قاوم فرا أنجلكو Fra Angelico (١٣٨٧ -١٤٥٥) بعض اتجاهات الفن الجديد في عصر النهضة . فعدأن رسم الجسم العاري خطيئة . وبينما كان الفنانون يدرسون في وقته الهندسة والتشريح حاول أنجلكو أن يعبر عن حياة الإنسان الروحية . ولم يكن عالمه عالم الجبال والحقول والأزهار واللحم والدم ولكنه عالم الأرواح والملائكة . ومن أشهر صوره إنزال المسيح ورقص الملائكة في دير سان مارکو في فلورنسا .

Twitter: @ketab_n

٨- أسرة مديتشي Medici غير معروف أصلها على وجه التحقيق . وتظهر لأول مرة في تاريخ فلورنسا في أواخر القرن ١٢م . وهي أسرة بورجوازية ارتفعت من بين الشعب . عضد أفرادها الشعب ضد الأسر النبيلة القديمة من ناحية نظم الحكم والضرائب . وأصبحوا أرستقراطية جديدة . وبنيت أرستقراطيتهم لا على الأصل والميلاد ، ولكن على الثروة والعلم والثقافة والملكات الممتازة . عاصرت هذه الأسرة إحدى ثورات الإنسانية الكبرى وامتلأت حياة أفرادها بالأعمال الحافلة . ظهر من بينهم شخصيات ممتازة مثل كوزيمو ولورنتزو وكاترين وليو العاشر وكلمنتو السابع . وكان لهم الفضل في استمرار حركة النهضة . ولولاهم من المحتمل أن حركة النهضة لم تكن تستمر أو على الأقل لم تكن تسير في الطريق الذي سلكته . ونشأ في أحضانهم عدد كبير من رجال الفن والأدب والعلم . كما امتازوا في ميدان الثروة والسياسة . اتهموا بأنهم تحولوا إلى طغاة في فلورنسا . هم عملوا على تركيز السلطة في أيديهم لأنهم وصلوا إلى السلطة بعد فترة من الصراع الحزبي العنيف بين الجلف والجبلين ثم بين فرعي الجلف من البيض والسود . واتهموا بأنهم اعتمدوا على الغدر والقتل لتحقيق أغراضهم . ولكن الظروف هي التي أملت عليهم اتخاذ تلك الوسائل . ولم يكونوا في ذلك أسوأ من غيرهم من أهل العصر .

٩- استرجاع براتو ، عقب موت بيرو دي مديتشي وسيطرة ابنه لورنتزو على فلورنسا حاول أعداء آل مديتشي القضاء عليهم . وظنوا أن لورنتزو شاب حدث لا تجربة له . فجمعوا قواتهم واستولوا على براتو أقرب المدن الخاضعة لفلورنسا من العاصمة . وأملوا بذلك أن يحدثوا اضطراباً في فلورنسا ذاتها . ولكن لورنتزو قضى بسرعة على الدسائس في فلورنسا وأرسل جنده فاستولوا على براتو وقضوا على تلك الحركة بسهولة في ١٤٧٠ .

١٠- حادث فولتيرا ، حدث خلاف بين السينوريا في فولتيرا وبين إحدى الشركات التجارية التي كان من بين أعضائها بعض الفلورنسيين بشأن استغلال بعض المناجم في ماريما . استولت حكومة فولتيرا على المناجم عنوة ، بينما عضد لورنتزو التجار الفلورنسيين . فقامت ثورة على العمدة الفلورنسي في فولتيرا . لم يخش لورنتزو الثورة وأصدر أوامر مشددة ، وأراد أن يكبح جماح فولتيرا لأنها لم تكن أول ثورة قامت بها ضد فلورنسا ، وكان يخشى أن تطلب فولتيرا مساعدات من البندقية أو نابلي . كما أراد لورنتزو أن يثبت للفلورنسيين أنه قادر على أن يقبض على ناصية الأمور بيد ثابتة في الداخل . فأرسل قوة من بضعة آلاف رجل بقيادة دوق أورينو . ولم تكن مواقع المدينة ولا أسوارها جيدة التحصين وأعوز جندها السلاح والذخيرة . وسلمت حامية فولتيرا بعد حصار ٢٥ يوماً . وحدث فجأة مصادمة غير مقصودة بين سكان المدينة وجنود فلورنسا أدت إلى نهب المدينة والاعتداء على أهليها . وبذل دوق أوربينو وسعه لكي يكبح جماح جنده ولكن بدون جدوى . ولما علم لورنتزو بذلك ذهب بنفسه إلى فولتيرا لتهدئة الحال .

١١- مؤامرة آل باتزي ، اتهم البابا سكستو الرابع لورنتزو بأنه يقف في سبيل أقربائه الذين عمل على تقوية نفوذهم في إيطاليا . واتهمه بأنه ساعد بعض أعدائه بالمال . عين البابا فرنتشسكو سالفياتي أسقفاً لبيزا على غير رغبة فلورنسا ، واجتذب البابا إليه دوق أوربينو وأبعده عن خدمة لورنتزو الحربية ، وعينه قائداً للقوات البابوية . وحدثت مناوشات بين جند لورنتزو والجند البابوي في منطقة سينا ، ونجح لورنتزو في أن يمنع تلك المناوشات من الاستفحال . وتم وقتئذ اتحاد البابا بفردناند ملك نابلي . وانضم آل باتزي إلى رجال البابا للقيام بمؤامرة ضد آل مديتشي ، وهم من أسرة نبيلة قديمة نافست آل مديتشي على السلطة في فلورنسا . وضع المتآمرون الخطة وغيروها أكثر من مرة . وأخيراً رأوا أن يفتكوا بلورنتزو وجوليانو في كاتدرائية فلورنسا . نجح المتآمرون في قتل جوليانو وجرح لورنتزو ولكنه نجا من الموت . وحدث اضطراب وصخب في الكاتدرائية . وهرول الجناة طالبين الفرار ، وتعقبهم رجال آل مديتشي . وانتشر الاضطراب في المدينة ونهبت بيوت آل باتزي ونكل بالجناة وتجمع الشعب أمام قصر مديتشي . وأطل عليهم لورنتزو وشكرهم على جميل شعورهم نحوه وحمايتهم إياه ، ودعاهم إلى الحلم وإلى عدم التنكيل بالجناة . ولكن الجمهور الغاضب لم يستمع لأقواله . ويعد بعض الكتاب مثل سيسموندي في كتابه

Twitter: @ketab_n

«الجمهوريات الإيطالية» أن آل باتزي كانوا من الرجال الأحرار الوطنيين الذين نهضوا للدفاع عن حقوق الشعب . وهذا غير صحيح . كانت المؤامرة مطابقة لأهواء البابوية ، وإن لم يصرح البابا علناً بأنه من أنصار القتل وسفك الدماء . ولعل آل باتزي لم يدركوا أنهم ألعوبة في أيدي البابوية إلا بعد فوات الوقت . ولا يدل سلوكهم في الماضي على أنهم كانوا حقيقة من أنصار الحكم الشعبي والنظم الحرة ، على عكس آل مديتشي الذين استخدموا هذه الوسيلة لتقوية نفوذهم على حساب آل باتزي . ولم يكن غرضهم من هذه المؤامرة سوى الانتقام والسيطرة على مصاير فلورنسا .

١٢- انتزاع سارتزانا : عندما ذهب لورنتزو لكي يعقد الصلح مع فرديناند ملك نابلي ، كان أحد أتباع الأخير قد استولى على سارتزانا من أملاك فلورنسا . وبالرغم من عقد الصلح بينهما في ١٤٨١ ، فإن سارتزانا لم ترجع إلى فلورنسا . وظلت حاميتها تهاجم الأراضي الفلورنسية المجاورة . فأرسل لورنتزو حملة استرجعتها في ١٤٧٨ . وكان حاضراً بشخصه وقت تسليمها . واستقبله شعب فلورنسا عند رجوعه بحماسة زائدة .

١٣- أغنية الحب الإلهي عند الأفلاطونيين ، Canzone del Divino Amore secondo la mente ed opinione dei Platonici

١٤- دانتي أليجييري Dante Alghieri (١٢٦٥ -١٣٢١) من أعظم شعراء العالم . عاش في فلورنسا واشترك في الحرب والسياسة نفي وجاع وتشرد وأخفق . وله آراء في السياسة والدين وفي إصلاح المجتمع . صهرته التجارب وانضجت عبقريته الآلام والمحن . أشهر كتاباته «الكوميديا الإلهية» . والحب عنده إحساس مقدس يطهر قلب الرجل ويقوده إلى الفضيلة وإلى السعادة الأبدية . ولا يتكلم في الحب عن الجسد والمادة ولكن عن الروح .

١٥- فرنتشسكو بترراركا Francesco Petrarca (١٣٠٤ -١٣٧٤) من أعظم واضعي الشعر الغنائي . عاش في فلورنسا واهتم بالدراسات اللاتينية وبجمع المخطوطات القديمة . أشهر شعره كتاب «المنشد» . يتجاذبه القديم والحديث فيشعر بقلق نفسي . وفي الحب يتكلم عن المادة والجسد كما يشرح أثر الإحساس الروحي .

١٦- جوفاني بوكاتشو Giovanni Boccacio (١٣١٣- ١٣٧٥) عاش في فلورنسا . وهو واضع أساس النثر الإيطالي . فشل في الحب وامتاز بالتهكم والسخرية اللاذعة . دعا في كتابه «الديكاميرون» إلى التمتع بالملاذ ولم يعد يتكلم عن الروح والفضيلة .

١٧- Trionfo di Bacco وباكوس هو إله الخمر عند اليونان والرومان .

١٨- أريانا من شخصيات الميثولوجيا اليونانية . وهي رمز للدليل الذي يقود الإنسان إلى الخلاص أو الشعلة التي تضيء ذكاء الإنسان .

١٩- أنجلو بوليتزيانو Angelo Poliziano (١٤٥٤ -١٤٩٤) عاش في فلورنسا . اهتم بدراسة تراث اللاتين واليونان . امتاز شعره الإيطالي بالرقة والعذوبة وبوصف الطبيعة الرائع .

٢٠- قصة أرفيو Orfeo قصيدة تمثل عالماً متحركاً يسوده الانسجام والتوافق . وترقص فيه الحياة وتنشد وتترنم .

٢١- لويدجي بولتشي Luigi Pulci (١٤٣٢ -١٤٨٤) عاش في فلورنسا . ويمتاز بأنه أكثر شعراء عصره استقلالاً ، ويمثل روح الشعب بالشخصيات التي صورها . وفي شعره تفكير وفلسفة وتهكم ودعوة إلى التمتع بالحياة .

الفصل الثالث

٢٢- كان الراهب ماريانودا جناتزانو Mariano da Gennazano أثيراً عند لورنتزو فأنشأ له ديراً خاصاً خارج فلورنسا ، كان يذهب إليه لمناقشة المسائل الدينية . ومدحه أنجلو بوليتزيانو . قال إنه ذهب لسماعه وهو غير واثق بالمديح الذي وصله عنه . ولكنه عندما رآه في الكنيسة عرف الحقيقة . وكان عندما يتكلم يصبح كله آذاناً مصغية . وعندما يعرض أفكاره لا يجد مناصاً من الاقتناع . ويدلي جناتزانو بقصة تاريخية فيسلم بوجهة نظره . ويغير نبرات صوته حسب الموقف فيؤثر فيه .

Twitter: @ketab_n

ويمزح فيحمله على الابتسام . ويتمهل في عرض ما يثير النفس فيبكي .

٢٣- هناك اختلاف بين الكتاب في تواريخ رحلاته وترتيبها في تلك الفترة . ولكن الأستاذ فيلأري يستخلصها على هذا النحو .

٢٤- تذكر أهل بريشا كلمات سافونارولا عندما تعرضت مدينتهم لاعتداء الجند الفرنسي في سنة ١٥١٢ في أثناء الحرب بين الإسبان والفرنسيين في إيطاليا .

٢٥- جوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٥٠ -١٦٠٠) فيلسوف إيطالي ومن رهبان الدومينكان . قام برحلات في إيطاليا وفي أوربا . وهو ممن نادوا بالتجربة في العلم . واتهم بالهرطقة وأحرقته محكمة التفتيش . والمثالية المتسامية عنده هي اتجاه فلسفي يقوم على تصور مثالي للعالم يستمد من عالم يسمو عن عالمنا .

٢٦- جاليليو جاليلي Galilieo Galilei (١٥٦٤ -١٦٤٢) عالم إيطالي استخدم التجربة بدلاً من التأمل العقلي والجدل الذي كان سائداً في أثناء العصور الوسطى . وهو يمثل المنهج العلمي القائم على المشاهدة والتجربة . وتأتي شهرته لأنه أثبت أن الشمس لا الأرض هي مركز الكون .

٢٧- Compendio di Filosophia

٢٨- النفس النباتية أو النامية هي القوة التي بوساطتها ينمو الحي ويتوالد .

٢٩- النفس الحاسة أي القوة التي بها يشعر الإنسان بالمحسوسات سواء أكانت ظاهرة أم باطنة .

٣٠- النفس العاقلة أو الناطقة أي القوة التي يدرك بها الإنسان الصور العقلية المجردة .

٣١- الحدس intuition هو قوة فطرية تمكن الإنسان من الإدراك دون أن يسبقه مقدمات من تأمل عقلي أو تجربة . وهو يشبه الذوق عند متصوفي الإسلام .

٣٢- مشكلة الفلسفة الأساسية هي نظرية المعرفة القائمة على الإحساس أو الحدس أو هما معاً .

٣٣- Compendio di Morale

٣٤- توماس أكويناس (١٢٢٥ -١٢٧٤) فيلسوف العصور الوسطى وزعيم المذهب المدرسي . وكانت مهمته تنصير أرسطو بالتوفيق بين آرائه وتعاليم المسيحية . وأدى نجاحه في ذلك إلى أن تعتنق الكنيسة الكاثوليكية مذهبه رسمياً . وقد تأثر أكويناس من الناحية الخلقية بالأفلاطونية المحدثة .

٣٥- رؤية الله نوع من أنواع الكشف . والسعادة الحقة عند الفلاسفة الطبيعيين في عصر النهضة لا تقوم على مجرد العلم النظري ، ولكن على معرفة الله بنوع من أنواع الكشف . وهذه الفكرة تشبه اتجاه بعض الصوفية في الشرق والغرب ، في القول بأن تصفية النفس وتجردها من علائق البدن يؤدي بالإنسان إلى الاتصال بالله ورؤيته .

٣٦- Opus de Divisione Omnium Scientiarum

٣٧- اقترح زميلي الدكتور عثمان أمين ترجمة لفظ moral بكلمة خلقي نسبة إلى الخلق الإنساني بأوسع معانيه . ولفظ ethi-cal بكلمة أخلاقي نسبة إلى علم الأخلاق بالمعنى الضيق ، وبناء على ذلك يكون لفظ الخلقي مقابلاً للبدني ويشمل الظواهر السيكولوجية والملكات النفسية والميول والنزعات . وتكون العلوم الخلقية شاملة لعلم اللغة والتاريخ وعلم السياسة والاقتصاد السياسي والتشريع ، وبالإجمال لعلم الاجتماع ولعلم النفس والمنطق وعلم الأخلاق أيضاً . في حين أن الأخلاقي يقتصر على علم الأخلاق وعلى ما يتمشى مع مبادئه وقواعده .

٣٨- كان هذا هو طابع التفكير في العصور الوسطى . وقد ثار عليه رواد الفكر الحديث في عصر النهضة ، وأسرف مفكرو عصر النهضة فترة من الزمن في محاكاة آثار القدماء . وقد قاوم سافونارولا هذا الاتجاه .

٣٩- في عصر النهضة وجدت الثورة على العصر الوسيط من إحياء تراث القدماء . وفي القرن السابع عشر وجدت محاولات لتحرير الفلسفة من روح العصرين القديم والوسيط معاً . ويعدّ سافونارولا بمهاجمته محاكاة القدماء ممهداً للقرن السابع عشر من هذه الناحية .

Twitter: @ketab_n

٤٠- Trattato dell'Umilta

٤١- Trattato e vero sermone della Orazione

٤٢- Della Oaazione Mentale

٤٣- يشبه هذا ما وجد عند متصوفي الإسلام من أهل الباطن .

٤٤- Trattato dell'Amore di Gesu Cristo

٤٥- عرفت فكرة الاتحاد بين الخالق والمخلوق عند الإشراقيين من صوفية الإسلام كالسهرودي وأتباعه .

٤٦- Libro della Vita Biduale

الفصل الخامس

٤٧- كاتدرائية فلورنسا من أعظم كنائس العالم . بدئ في إنشائها منذ أواخر القرن ١٣م واشترك في بنائها أعاظم رجال العمارة الإيطاليين مثل جوتو وبروناسكي . وهي مغطاة من الخارج بطبقة من الرخام البديع وتضم طائفة من روائع فن النحت الإيطالي .

٤٨- هناك خلاف بين الباحثين على ما دار بين ساڤونارولا ولورنتزو في تلك الزيارة الأخيرة ، ولا تزال المسألة غير واضحة .

الفصل السادس

٤٩- الكردينال سان بيرو دي فنكولي سيصبح فيما بعد البابا يوليوس الثاني .

الفصل السابع

٥٠- مجلس السنيوريا Signoria فيه معنى السيادة والرياسة .

٥١- حامل لواء العدالة هو Gonfaloniere di Giustizia .

٥٢- كان لنقابات الفنون والمهن أهمية كبرى في تاريخ العصور الوسطى . والفنون الكبرى تضم تجار الأقمشة والجلود والفراء والأطباء ورجال البنوك ورجال الأعمال والمحامين . وتشمل الفنون الصغرى القصابين والخبازين والحدادين والنجارين والبنائين . . . وأبعد النبلاء عن هذه النقابات ، وتسوهل في ذلك فيما بعد . وكان يؤخذ من النقابات أعضاء المجالس واللجان الحكومية . وكانت السيطرة لنقابات المهن الكبرى بطبيعة الحال .

٥٣- Balia هي لجنة خاصة يعين أعضاؤها ولا يؤخذون بالاقتراع . ويمكن لهذه اللجنة أن تملأ وتفرغ قوائم أسماء المرشحين للمجالس الحكومية . وبذلك تضمن تكوين الحكومة من نوع معين من الناس لعدة سنوات . ويمكنها أن تحدث أي تعديل في نظام الحكم يراه أصحاب السيطرة مناسباً لهم .

الفصل الثامن

٥٤- القصر القديم Palazzo Vecchio بدئ في إنشائه في أواخر القرن١٣م . وكان مقراً لرئيس الدولة ولرؤساء الفنون والمهن ، ومكاناً للاجتماعات العامة . وهو مشيد من الحجر الصلد ويشبه الحصن من الخارج لأنه بني في عهد الصراع العنيف بين الأحزاب السياسية . ويرتفع برجه عالياً في الفضاء بعظمة وقوة تتناسب مع ضخامة البناء . وهو الآن من أهم متاحف فلورنسا .

٥٥- بنك الرهون Monte di Peita أي جبل الرحمة لأنه يساعد المحتاج .

٥٦- نيقولا ماكيافلي Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ -١٥٢٧) هو السياسي الفرنسي المشهور وصاحب كتاب «الأمير» . استمع إلى بعض عظات ساڤونارولا . ولكن كانت له عقلية مخالفة ولم يوافقه على دعوته الدينية وعلى طريقته في إصلاح المجتمع . وبالرغم من ذلك فقد أثنى عليه في أكثر من موضع . قال إنه ملهم بالخير الإلهي وإنه رجل عظيم جدير بأن يذكر بكل احترام ، وإن الطريقة الوحيدة لإعادة تنظيم الحكومة الفلورنسية هي إرجاع المجلس الكبير الذي أوجده

Twitter: @ketab_n

سافونارولا ، وإنه ما من جمهورية ثابتة تنشأ دون إرضاء الجمهور .

٥٧- فرنتشسكو جويتشارديني Francesco Guicciardini (١٤٨٢ -١٥٤٠) المؤرخ والسياسي الفلورنسي المعاصر . صاحب تاريخ فلورنسا . يقول إن الفلورنسيين أحبوا الحرية التي أعطاها لهم دستور سنة ١٤٩٤ وإن فلورنسا مدينة للراهب سافونارولا الذي قام بالثورة في الوقت المناسب دون أن تسفك قطرة دم . ولكن تلك الثورة كلفته حياته . وعده منقذ فلورنسا بفصاحته وكفاءته وإخلاصه .

الفصل التاسع

٥٨- النبوة عند توماس أكويناس هي وحي من الله .

٥٩- ترى الأفلاطونية المحدثة أن العالم مترابط بقوانين ، وأن النبي ومن يرى يؤول الأحداث المنظورة إلى أحداث غير منظورة ، ولكنها مرتبطة بعضها ببعض .

٦٠- Compendium Revelationum

الفصل العاشر

٦١- من هؤلاء الذين تحولوا إلى الرهبنة أفراد من أسر ستروتزي وسالفياتي وجوندي الشهيرة في فلورنسا ، كما تحول بعض رجال الأدب والعلم والسياسة .

٦٢- فراباتولوميو Fra Bartolomeo (١٤٧٥ -١٥١٧) من أصدقاء سافونارولا وتلاميذه . يسود رسومه طابع من التفكير مع أساس كلاسيكي . ومن أشهر صوره العذراء في دير سان ماركو والعائلة المقدسة في متحف بتي بفلورنسا .

٦٣- كروناكا Cronaca مهندس معماري ونجات فلورنسي (١٤٥٧ -١٥٠٨) تمتاز آثاره بالأشكال المحددة والأعمدة ذات الخطوط البسيطة ، مما هو من خصائص الفن الكلاسيكي . ومن أعماله المعمارية أنه اشترك في إنشاء قصر ستروتزي وقاعة الخمسمائة بالقصر القديم في فلورنسا .

٦٤- لورنتزو دي كريدي Lorenzo di Credi (١٤٥٧ -١٥٣٧) تلميذ فيروكيو ويمتاز بخطوطه الواضحة وألوانه البراقة ، ويسود صوره طابع من التفكير مع أساس كلاسيكي ، ومن صوره العذراء والطفل في متحف برجيزي في روما .

٦٥- ليوناردو دا فنتشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢ -١٥١٩) من أعظم رجال الفن في العالم . امتاز باتساع ثقافته وتعدد ملكاته . برع في الطبيعة والميكانيكا وتصميم آلات الحرب والهندسة والتشريح والموسيقا والشعر والنحت والتصوير . مزج العلم بالفن وتأثر بقوانين الطبيعة . امتزجت فيه الأحلام والأماني بالحقيقة العليا وبروح العلم الفاحصة . كان أشبه بإله بين البشر . لم يعشق النساء ولم يبن قلاعه الضخمة على رمال قلب المرأة المتغير ، وأحب الناس جميعاً كأبنائه . ومن أشهر صوره العشاء الأخير في دير عذراء الرحمة في ميلانو والجوكندا في متحف اللوفر في باريس .

٦٦- ساندرو بوتتشلّي Sandro Botticelli (١٤٤٤ -١٥١٠) جمع في صوره بين الاتجاهين القديم والحديث . أحيا الميثولوجيا القديمة كما جعل العصور الوسطى أقرب إلى القرن ١٥ . يسود صوره روح تصوفية شعرية مع الرقة والجمال . صوّر الأزهار والورد تصويراً دقيقاً رائعاً واعتنى برسم تفاصيل الأزهار وأوراقها عنايته برسم أيدي العذارى وأقدامهن . ومن أروع صوره تتويج العذراء وصورة الربيع في متحف الأوفيتزي في فلورنسا .

٦٧- مايكل أنجلو بوناروتي Michelangelo Buonarroti (١٤٧٥ -١٥٦٤) من أعظم رجال الفن في العالم . متعدد النواحي ، مزج في فنه بين الفن القديم والفكرة المسيحية وروح العصر . وكل الآراء والأماني والمحن التي أحاطت به وبفلورنسا جعلته في حالة عصبية عنيفة ، وأعطت آثاره طابعاً من الألم والعنف والقوة والجمال الرائع . ومن أشهر صوره الحكم الأخير في قبة سيستو بالفاتيكان والعائلة المقدسة في متحف الأوفيتزي في فلورنسا . ومن أشهر تماثيله داڤيد في أكاديمية الفنون الجميلة في فلورنسا ، وتماثيل النهار والليل والفجر والمساء في مقبرة سان لورنتزو في فلورنسا ، وتمثال موسى في كنيسة سان بيترو دي فنكولي في روما .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

٦٨- Riforma santa et pretiosa ha fatto Domenico Cecchi, per Chonservazione della citta di Firenze

٦٩- يقصد البابا اسكندر بورجيا الذي كان يتكلّم ويكتب عن أبنائه دون أي شعور بالخجل .

٧٠- يقصد بذلك الراهب ماريانو دا جناتزانو عدو ساڤونارولا القديم الذي ما فتئ يتآمر عليه في روما .

الفصل الثالث عشر

٧١- Atutti gli eletti di Dio e fedeli cristiani

٧٢- Trionfo della Croce

الفصل الرابع عشر

٧٣- اللودجا دي لانتزي Loggia dei Lanzi أنشئت في القرن ١٤م وجعلت مكاناً لمناقشة المسائل السياسية والتجارية وللحفلات العامة . وغُطي سقفها منعاً لنزول المطر . ووضع فيها فيما بعد بعض روائع فن النحت الفلورنسي وخاصة تماثيل بنفنوتو تشلّيني .

الفصل الخامس عشر

٧٤- دوفّو سبيني Doffo Spini أثار الشغب ضد ساڤونارولا يوم تجربة النار ، كما كان على رأس الجماهير التي هاجمت دير سان ماركو بعد ذلك . وحاول قتل ساڤونارولا بيده أكثر من مرة . وجعلوه هنا أحد قضاته وفي هذا مخالفة لأبسط قواعد العدل .

٧٥- لم تكن تلك الأداة أقسى أدوات التعذيب . ولكن إذا طال تعذيب الإنسان بها يفقد وعيه ويموت .

٧٦- تشكّوني Ceccone كان من أنصار آل مديتشي واشترك في مؤامرة بييرو دي مديتشي ضد فلورنسا . ولما اكتشف أمره اعتصم في دير سان ماركو وتظاهر بأنه أصبح من أنصار ساڤونارولا . ولكنه كان يتجسس عليه لمصلحة لودوفيكو سفورتزا في ميلانو .

٧٧- الجسر القديم Ponte Vecchio من أقدم جسور فلورنسا ويرجع بشكله الحالي إلى القرن ١٤١م . وعلى جوانبه حوانيت للتحف والعاديات وفي أعلاه ممر يصل بين قصري بيتي وأوفيتزي في شقي المدينة .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مكتبة البحث

١

كتابات ساڤونارولا

Prediche Italiano ai Fiorentini, a cura di Francesco Cognasso, 3vol, Firenze 1930.
Trattato circa il Reggimento e Governo della citta di Firenze, Firenze 1847.
Poesie, Introduzione e note di Valentino Piccoli, Torino 1926,
Villari (P.). e Cassanova (E.). -Scelta de Prediche e Scritti di Fra Girolamo Savonarola, con nuovi documenti intorno alla sua vita, Firenze 1898.

٢

كتب خاصة

Aquarone (B.). -Vita di Fra Geromino Savonarola, Alessandria 1857.
Burlamacchi (P.). -Vita di Girolamo Savonarola, Lucca 1761.
Galleti (A.). -Savonarola, Milano 1912.
Luotto (P.). -Il Vero Savonarola e il Savonarola di Pastor, Firenze 1897.
Marchese (V.). -Storia di San Marco di Firenze, Firenze 1855.
Roeder (R.). -Savonarola, London 1930. -Savonarole, trad. francaise par Blanche Prenez, Paris 1933.
Villari (P.). -La Storia di Girolamo e de'suoi tempi, 2vol., Firenze 1887 -88. -Life and Times of Girolamo Savonarola, Engl. trans. by Linda Villari, London 1888.

٣

مراجع عامة

Armstrong (E.). -Savonarola, Cambridge Modern History, vol. I, London 1902.
-Italian Studies, London 1934.

Twitter: @ketab_n

Burckhardt (J.). -The Civilization of the Renaissance in Italy, Engl. trans. by S,G.C. Midllemore, Vienna.
Capponi (C.). -Storia della Repubblica di Firenze, vol I, Milano 1934.
Doffy (E.). -The Tuscan Republics, London 1892.
Fattorusso (J.). -Wonders of Italy, Florence 1930.
Finlayson (D.) -Michelangelo thhe Man, New-York 1935.
Gebhart (E.). -Mystics & Heretics in Italy, Engl. trans, by Ed. Maslin Hulme, London 1922.
Guicciardini (F.). -Storia Fiorentina, Firenze 1884.
Hyett (F.A.). -Florence, Her History Art, London 1903.
Inge (W.R.). -Christian Mysticism, London 1933.
Lensi (A.). -Palazzo Vecchio, Milano 1929.
Macchiavelli (N.). -Il Principe, Firenze 1926.
Mitchell (T.W). -Problems in Psychopathology, London 1927.
Muir (E.). -Macchiavelli and his Times, London 1936.
Nardi. -Istoria della citta di Firenze, Firenze 1883.
Pastor (L.). -The History of the Popes, vol. V, London 1923. Pater (W.). -The Renaissance, New York.
Rio. -Art Chretien, Paris 1836.
Roeder (R.). The Man of the Remaissnce, London 1934.
Sismondi (J.). -History of the Italian Republics, London 1910.
Symonds (J.A.). -The Remaissance in Italy, 7, vols., London 1927.
Young (G.F). -The Medici, New-York 1933.

٤

دوائر المعارف

Encyclopaedia Britannica.
Enciclopedia Italiana.
Encyclopaedia of Religion and Ethics.
Dictionnaire de Theologie Catholique.

٥

الدوريات

Bolletino della R.Universita Italiana per Stranieri, di Perugia, 1937, No. 2, 7.II.-1938, No. 10.

مجلة «العصور» جيرولامو ساڤوناورولا بإمضاء «فيلوزوف» . القاهرة ، اكتوبر ١٩٢٧ .

مجلة «الثقافة» ساڤوناورولا أعداد ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ . القاهرة ، سبتمبر -نوفمبر ١٩٤٣ ، للمؤلف .

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سلسلة «الكتاب للجميع» صدر منها

إسم الكتاب	إسم المؤلف
حي بن يقظان	لابن سينا وابن طفيل والسهروردي
غابة الحق	فرنسيس فتح الله مراش
الإسلام بين العلم والمدنية	الإمام محمد عبده
الأمير الصغير	انطوان دي سانت اكسوبري
طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
مغامرات مونشهاوزن	رودلف ارك راسب
أطفال غسان كنفاني	غسان كنفاني
كليلة ودمنة	الفيلسوف الهندي بيدبا
طوق الحمامة	ابن حزم الأندلسي
تخليص الإبريز في تخليص باريز	رفاعة رافع الطهطاوي
بطل من هذا الزمان	ميخائيل ليرمانتوف
الدين والعلم والمال	فرح أنطوان
غرائب المكتوبجي	سليم سركيس
الأجنحة المتكسرة	جبران خليل جبران
حكاية إيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
حول العالم في ثمانين يوماً	جول فيرن
رحلات جيلفير	جوناثان سويفت
مذكرات هدى شعراوي	هدى شعراوي
البخلاء للجاحظ	الجاحظ
روائع في الشعر والمسرح	رابندرانات طاغور
صندوق الدنيا	إبراهيم عبد القادر المازني
كل الأسماء	جوزيه ساراماغو
مذكرات دجاجة	الدكتور إسحاق موسى الحسيني
حياتي	أحمد أمين
قنديل أم هاشم	يحيى حقي
مذكرات الأميرة جويدان	الأميرة جويدان
إبراهيم الكاتب	إبراهيم عبد القادر المازني
بغداد مدينة السلام	طه الراوي
الحب الأول	إيفان ترجنيف

إسم الكتاب	إسم المؤلف
أرض البشر	أنطوان دي سانت اكسوبري
الملايين الأربعة	أو. هنري
في الحب والحب العذري	الدكتور صادق جلال العظم
رحلة ابن جبير	تقديم الدكتور حسين نصار
صمت البحر	فيركور
التذكار	أرسكين كولدويل
على باب سجن أبي العلاء	معروف الرصافي
قصص وحكايات خرافية	هانس كريستيان أندرسن
هرمن ودرونيه	يوهان ولفجانج فون جوته
خزين اللامرئيات	فؤاد التكرلي
دون كيخوته جـ١	ثربانتس
دون كيخوته جـ٢	ثربانتس
المواقف والمخاطبات	النفري (محمد عبد الجبار بن الحسن)
أمسيات قرب قرية ديكانكا	نيوكولاي جوجول
إسرار الموسيقى	علي الشوك
الخنفسة الذهبية	إدجار الن بو
إخطية	إميل حبيبي
فن التمثيل عند العرب	محمد حسين الأعرجي
شبح كانترفيل	أوسكار وايلد
أغاني الفجر	هانزيكون فويكت
العودة إلى الأهوار	كافن يونغ
كناسة الدكان	يحيى حقي
في تجربة الكتابة	س. ر. مارتين
الإسكافية العجيبة	فيدريكو غارسيا لوركا
دراسات في التاريخ	أ. ج. هوبزبوم
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني
وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين	تقديم غسان تويني
الفرح ليس مهنتي	محمد الماغوط
الضائع من معجم الأدباء	د. مصطفى جواد

سلسلة »الكتاب للجميع« صدر منها

إسم الكتاب	إسم المؤلف
العالم الطريف	أولدس هكسلي
طونيو كروجر	توماس مان
صوت أبي العلاء	طه حسين
أخبار الحمقى والمغفلين	أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
بيت الدمية	هنريك إبسن
الشرق الفنان	د. زكي نجيب محمود
الوقائع الغريبة في اختفاء المتشائل	إميل حبيبي
الشقيقات الثلاث	أنطوان تشيخوف
الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
نازك الملائكة (حياة وشعر وأفكار)	.....
رحلة باريس وقصص أخرى	فرانسيس مراش
مشروع السلام الدائم	إيمانويل كانط
مائدة أفلاطون	أفلاطون
شعر الرعاة	ترجمة صقر خفاجة
جنة على نهر العاصي	موريس بارس
لاعب الشطرنج	ستيفان زفايج
عنبر رقم ٦	أنطوان تشيخوف
أحلام شهرزاد	طه حسين
حبر على ورق	مارون عبود
والدة	فرانسوا مورياك
ماجلان قاهر البحار	ستيفان زفايج
أرض البرتقال الحزين	غسان كنفاني
حديث الأشجار	فؤاد التكرلي
مدرسة الزوجات	أندريه جيد
د. هيغل ومستر هايد	روبرت لويس ستفنسن
عاصفة الأوراق	غابرييل غارسيا ماركيز
المعذبون في الأرض	طه حسين
أمين الريحاني	مارون عبود
الجواب المسحور	غائب طعمة فرمان

إسم الكتاب	إسم المؤلف

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب للجميع

هكذا نريده: إيماناً بكونه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

وإذ شرعنا فعلا بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشرت خلال العقود الماضية وتعذر وصولها إلى قارئ اليوم، فإنما نهدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القارئ من الوصول إلى الينابيع الفكرية ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة بكلفة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في
هذا المشروع العربي متنازلة
عن حقوقها لصالح القارئ

ISBN:2-84305-835-X

سلسلة كتب شهرية توزع مجاناً مع الصحف التالية

السفير	لبنان
المدى	العراق
الإتحاد	العراق
البيان	الإمارات
القاهرة	مصر
القبس	الكويت